

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير سورة

يس
ص
غافر
الصفات
الزمر
فصلت

الدكتور محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

المجلد الثاني عشر



الأمانة العامة

مراجعة

د. عبد الرحمن العَدَوِي
الأستاذ بطلية الدعوة الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

نفسیر سُورَةُ لَيْسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

- ١ - سورة « يس » من السور التي يحفظها كثير من الناس ، لاشتهارها فيما بينهم ، وهي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « الجن » .
قال القرطبي : وهي مكية بإجماع ، وهي ثلاث وثلاثون آية . إلا أن فرقة قالت : إن قوله - تعالى - : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ... ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار ، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ، وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول - ﷺ - ^(١) .
- ٢ - وقد ذكروا في فضلها كثيرا من الآثار ، إلا أن معظم هذه الآثار ضعفها المحققون من العلماء ، لذا نكتفي بذكر ما هو مقبول منها .
قال ابن كثير ما ملخصه : أخرج الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من قرأ « يس » في ليلة أصبح مغفورا له » ...
وأخرج ابن حبان في صحيحة ، عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ « يس » في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » .
وأخرج الإمام أحمد في مسنده ، عن معقل بن يسار ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « البقرة سنام القرآن ، ويس قلب القرآن . لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرءوها على موتاكم » أى : في ساعات الاحتضار وعند خروج الروح .
قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان . قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت - يعني يس - عند الميت ، خفف عنه بها ^(٢) .
وقال الآلوسی ما ملخصه : صح من حديث الإمام أحمد ، وأبي داود ، وابن ماجه ، والطبرانی ، وغيرهم عن معقل بن يسار ، أن رسول الله - ﷺ - قال : « يس قلب القرآن » .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٨ .

وذكر أنها تسمى المَعْمَةُ ، والمدافعة ، والقاضية ، ومعنى المعمة : التى تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة . ومعنى المدافعة التى تدفع عن صاحبها كل سوء ، ومعنى القاضية : التى تقضى له كل حاجة - بإذن الله وفضله^(١) .

٣ - وقد افتتحت سورة « يس » بتأكيد صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وبتكذيب أعدائه الذين أعرضوا عن دعوته ، وبتسليته عما أصابه منهم من أذى .
قال - تعالى - : ﴿ يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

٤ - ثم ساقَت السورة الكريمة بعد ذلك قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا إليهم لهدايتهم ، وكيف أهلك الله - تعالى - المكذبين لرسله ...
قال - سبحانه - : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ .

٥ - ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ، ألواناً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن نعمه على عباده ، تلك النعم التى نراها فى الأرض التى نعيش عليها ، وفى الخيرات التى تخرج منها ، كما نراها فى الليل والنهار . وفى الشمس وفى القمر ، وفى غير ذلك من مظاهر نعمه التى لا تحصى .

قال - تعالى - ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ .

٦ - وبعد هذا البيان الحكيم لمظاهر قدرة الله - تعالى - ، وفضله على عباده ، حكمت السورة الكريمة جانباً من دعاوى المشركين الباطلة ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وصورت أحوالهم عندما يخرجون من قبورهم مسرعين ، ليقفوا بين يدي الله - تعالى - للحساب والجزاء ...

قال - تعالى - : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فالיום لا تظلم نفس شيئا ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

٧ - وبعد أن تحكى السورة الكريمة ما أعده الله تعالى بفضل له وكرمه لعباده المؤمنين ، من جنات النعيم ، ومن خير عميم ، تعود فتحكى ما سيكون عليه الكافرون من هم وغم ، وكرب وبلاء ، بسبب كفرهم ، وتكذيبهم للحق الذي جاءهم به نبيهم - ﷺ - .

قال - تعالى - : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

٨ - ثم تنزه السورة الكريمة النبي - ﷺ - عما اتهم به أعداؤه ، من أنه شاعر ، وتسليه عما أصابه منهم ، وتبين للناس أن وظيفته - ﷺ - إنما هي الإنذار والبلاغ .

قال - تعالى - ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

٩ - ثم تختتم السورة الكريمة بحكاية ما قاله أحد الأشقياء منكرا للبعث والحساب ، وردت عليه وعلى أمثاله يرد جامع حكيم ، يرشد كل عاقل إلى إمكانية البعث ، وأنه حق لا شك فيه ..

قال - تعالى - : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

١٠ - وبعد . فهذا عرض مجمل لسورة « يس » ومنه نرى ، أن هذه السورة الكريمة ، قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ...

كما اهتمت بضرب الأمثال لبيان حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار .

كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، يغلب عليه قصر الآيات ، وإيراد الشواهد المتنوعة على قدرة

الله - تعالى - ، عن طريق مخلوقاته المبتوثة في هذا الكون ، والتي من شأن التأمل فيها بعقل سليم ، أن يهتدى إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .
وصدق الله - تعالى - في قوله : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

القاهرة - مدينة نصر د . محمد سيد طنطاوى

صباح الخميس ٢٣ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ

١١ / ٧ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسَّ ① وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ④ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِيرُهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ⑫

قوله - تعالى - يس من الألفاظ التي اختلف المفسرون في معناها ، فمنهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول - ﷺ - .
ومنهم من يرى أن معناها : يا رجل ، أو يا إنسان .

ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبية إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التي ينطقون بها ، هو من عند الله - تعالى - ، وأنهم ليس في إمكانهم أو إمكان غيرهم

أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ...
 قال الآلوسی : قوله - تعالى - : ﴿ يس ﴾ : الكلام فيه كالکلام في « ألم » ونحوه من
 الحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، إعرابا ومعنى عند الكثيرين .
 وظاهر كلام بعضهم أن « يس » بمجموعه ، اسم من أسمائه - ﷺ - .
 وقرأ جمع يسكون النون مدغمة في الواو ، وقرأ آخرون بسكونها مظهرة ، والقراءتان
 سبعيتان ...^(١) .

قوله - تعالى - : ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ قسم منه - تعالى - بكتابه ذي الحكمة العالية .
 والهدايات السامية ، والتوجيهات السديدة ، والتشريعات القوية ، والآداب الحميدة ...
 وقوله - سبحانه - : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ جواب لهذا القسم .

أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم
 لحمل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لكي يخلصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا في ذلك
 غيرنا .

وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد ، للرد على أولئك المشركين الذين استكروا
 رسالة النبي - ﷺ - وقالوا في شأنه : « لست مرسلا » .

قال بعض العلماء : واعلم أن الأقسام الواقعة في القرآن . وإن وردت في صورة تأكيد
 المحلوف عليه ، إلا أن المقصود الأصلي بها تعظيم المقسم به : لما فيه من الدلالة على اتصافه
 - تعالى - بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من
 الحلف : الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة . كأنه قال : إن
 من أنزل القرآن - وهو ما هو في عظم شأنه - هو الذى أرسل رسوله محمدا - ﷺ - ومثل ذلك
 يقال له في الأقسام التي في السور الآتية ...^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر ثان لحرف « إن » في قوله - تعالى - قبل
 ذلك : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

أى : إنك - يا محمد - لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ، لا اعوجاج فيه
 ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو في نهاية الاعتدال والاستقامة .
 قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر بعد خبر ، أوصلة
 للمرسلين .

(١) تفسير الآلوسی ج ٢٢ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير « صفوة البيان » ج ٢ ص ٢١٥ لفضيلة الأستاذ الشيخ حسين محمد مخلوف .

فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟

قلت : ليس الغرض بذكره مذهبته إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته . وإنما الغرض وصفه ، ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين في نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه - أى : في التضخيم والتعظيم - ^(١) .

ثم مدح - سبحانه - كتابه بمذائع أخرى فقال : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ وقد قرأ بعض القراء السبعة : ﴿ تنزيل ﴾ بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف . أى : نزل الله - تعالى - القرآن تنزيل العزيز الرحيم .

وقرأ البعض الآخر : ﴿ تنزيل ﴾ بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هذا القرآن هو تنزيل العزيز - الذى لا يغلبه غالب - ، الرحيم أى الواسع الرحمة بعباده .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

واللام في قوله : ﴿ لتنذر ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ .

والإنذار : إخبار معه تخويف في مدة تتسع للتحفظ من الخوف . فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار . وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله - تعالى - .

والمراد بالقوم : كفار مكة الذين بعث النبي - ﷺ - لإنذارهم ، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال - تعالى - : ﴿ قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ... ﴾ و ﴿ ما ﴾ نافية . والمراد بآبائهم : آباؤهم الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله - تعالى - إليهم إسماعيل - عليه السلام - .

أى : أرسلناك - يا محمد - بهذه الرسالة من لدنا ، لتنذر قوما ، وهم قريش المعاصرون لك ، لم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير منا يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله - تعالى - - فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له ، وطاعته في السر والعلن .

قال ابن كثير : قوله ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعنى بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم ، الذى وردت به الآيات والأحاديث المتواترة ... (١) .

وقال الجمل ما ملخصه : قوله ﴿ لتنذر قوما ... ﴾ أى العرب وغيرهم وقوله ﴿ ما أنذر آباؤهم ﴾ أى الأقربون ، وإلا فأباؤهم الأبعدون قد أنذروا فأبا . العرب الأقدمون أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعبسى .. و « ما » نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا - ﷺ - فالجملة صفة لقوله « قوما » أى : قوما لم ينذروا . وقوله ﴿ فهم غافلون ﴾ مرتب على الإنذار ... (٢) .

ثم بين - سبحانه - مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا فى غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون ﴾ . والجملة جواب لقسم محذوف . ومعنى ﴿ حق ﴾ ثبت ووجب .

والمراد بالقول : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب إصرارهم على كفرهم . أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أزلا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، وجحودهم الحق الذى جتتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الغى على الرشد ، والضلال على الهدى ...

وقال - سبحانه - ﴿ على أكثرهم ﴾ لأن قلة منهم اتبعت الحق ، وآمنت به ، وشيبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٣) .

ثم صور - سبحانه - انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهمى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ . والأغلال : جمع غل - بضم الغين ، وهو القيد الذى تشد به اليد إلى العنق يقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن - بفتح الذال - وهو أسفل الفم .

ومقمحون . من الإقحاح ، وهو رفع الرأس مع غض البصر . يقال : قمح البعير قموحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . والفاء فى قوله ﴿ فهمى ﴾ وفى قوله ﴿ فهم ﴾ : للتفريع .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٤٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٣) سورة يونس الآيتان ٩٦ ، ٩٧ .

أى : إنا جعلنا فى أعناق هؤلاء المجاحدين قيودا عظيمة ، فهمى - أى هذه القيود - واصله إلى أذقانهم ، فهم بسبب ذلك مرفوعة رؤوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لا يستطيعون أن يخفضوها ، لأن القيود التى وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رؤوسهم .

فقد شبه - سبحانه - فى هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم ، بحال من وضعت الأغلال فى عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . أى : أننا لم نكتف بجعل الأغلال فى أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزا عظيما ، ومن خلفهم كذلك حاجزا عظيما . ﴿ فأغشيناهم ﴾ أى : فجعلنا على أبصارهم غشاوة وأعطية تمنعهم من الرؤية ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ شيئا بسبب احتجاب الرؤية عنهم .

فالآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فمنعتهم من الرؤية والإبصار .

ولذا قال صاحب الكشف عند تفسيره لهاتين الآيتين : ثم مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله ^(١) .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ، أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله - تعالى - قوله : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ... ﴾ فكانوا يقولون لأبى جهل : هذا محمد - ﷺ - فيقول : أين هو ؟ ولا يبصره ^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ بيان لما وصل إليه هؤلاء المجاحدون من عناد وانصراف عن الحق .

وقوله ﴿ سواء ﴾ اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل . أى : مستو . أى : أن هؤلاء الذين جعلنا فى أعناقهم أغلالا .. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥ .

(٢) لباب القول فى أسباب النزول ج ١٨٧ للسيوطى .

سدا ، مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه ، فهم - لسوء استعدادهم وفساد فطرهم - لا يؤمنون بالحق الذى جتتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بشيء مما تدعوهم إليه ..

ثم بين - سبحانه - من هم أهل للتذكير فقال : ﴿ إِنَّمَا تَنْذَرُ مَنْ آتَمَعَ الذِّكْرَ ﴾ .
أى : إنما تنذر - أيها الرسول الكريم - إنذارا نافعا ، أولئك الذين اتبعوا إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه ...

وينفع إنذارك - أيضا - مع من ﴿ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ أى : مع من خاف عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب ، ودون أن يرى الله - تعالى - الذى له الخلق والأمر . هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد ، لأنهم فتحوا قلوبهم للحق ، واستجابوا له .

والفاء فى قوله : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لترتيب البشارة أو الأمر بها ، على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية .

أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هذا النوع من الناس ، بمغفرة عظيمة منا لذنوبهم ، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد سوانا .

ثم أكد - سبحانه - أن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، لكى لا يغفل عنها الناس ، ولكى يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَى ... ﴾ .

أى : إنا نحن بقدرتنا وحدها نحى الموتى بعد موتهم ، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى لكى نحاسبهم على أعمالهم .

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ أى : وإنا نحن الذين نسجل عليهم أعمالهم التى عملوها فى الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صالحة أم غير صالحة .

ونسجل لهم - أيضا - آثارهم التى تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة كعلم نافع ، أو صدقة جارية ... أم غير صالحة كدار للهو واللعب ، وكراى من الآراء الباطلة التى اتبعها من جاء بعدهم ، وسنجازهم على ذلك بما يستحقون من ثواب أو عقاب ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : وكل شيء أثبتناه وبيناه فى أصل عظيم ، وفى كتاب واضح عندنا . ألا وهو اللوح المحفوظ ، أو علمنا الذى لا يعزب عنه شيء .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وفى قوله : ﴿ آثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : ونكتب أعمالهم التى باسروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها - أى تركوها - من

بعدهم ، فنجزهم على ذلك - أيضا - ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . كقوله - ﷺ - من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ..

والثاني : أن المراد بقوله ﴿ وَأَنَارَهُمْ ﴾ أى : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . فقد روى مسلم والإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال لهم : « إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال : يا بني سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم ».

ثم قال ابن كثير : ولا تنافي بين هذا القول والذي قبله ، بل في القول الثاني تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب ، فلأن تكتب التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ^(١) .

هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية - كما قيل - ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول - ﷺ - قد قال لبنى سلمة ، « دياركم تكتب آثاركم » أى : ألزموا دياركم تكتب آثاركم .. دون إشارة إلى سبب النزول .

قال الآلوسى ما ملخصه : والأحاديث التي فيها أن الله - تعالى - أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن ينتقلوا من ديارهم . معارضة بما في الصحيحين من أن النبي - ﷺ - قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته - ﷺ - لاتنافي تقدم النزول . أى : أن الآية مكية كبقية السورة ^(٢) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقرأ على الناس - ليعتبروا ويتعظوا - قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥١ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢١٨ .

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
 إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَطِيرُ زَنَايَكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
 مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ وهذه القرية هي « أنطاكية » في قول جميع المفسرين ... والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله - تعالى - (١).

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبي والمفسرون من أن المراد بالقرية « أنطاكية » كما أنه لم يرتض الرأي القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى - عليه السلام - فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عيسى - عليه السلام - وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ...

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التي فيها بതാരكة - أي ، علماء بالدين المسيحي ..

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ...
فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة . قرية أخرى غير أنطاكية .. فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك^(١) .

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه في هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها .

وضرب المثل في القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل في تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما في قوله - تعالى - ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا . وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركى مكة في الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .
وقوله - سبحانه - : ﴿ إذ جاءها المرسلون ﴾ يدل اشتغال من ﴿ أصحاب القرية ﴾ .
والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق .
وقوله : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما .. ﴾ بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما . وأعرضوا عن دعوتها .

والقاء في قوله ﴿ فكذبوهما ﴾ للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبوا إليهم فكذبوهما .

وقوله : فعززنا بثالث أى : فقوبنا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٩ .

قوله: تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى . وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها . وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول ﴿ فعززنا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ﴿ فقالوا ﴾ أى الرسل الثلاثة لأصحاب القرية : ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون ﴾ .
أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشراً مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شيء مما تدعوننا إليه .

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا . وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإلنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواصل من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ .
أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علماً ، وبحكمه حكماً ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليفاً واضحاً ، لا غموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم . بالمنطق الرصين ، ويتأكد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون فى رسالتهم ، لأن قولهم ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ جار مجرى القسم فى التوكيد .

وقولهم : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تحديد للوظيفة التى أرسلهم الله - تعالى - من أجلها .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل رداً قبيحاً ، فقالوا لهم : ﴿ إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجنكم ، وليمسنكم منا عذاب ألیم ﴾ والتطير : التشاؤم . أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى

وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى مالا نريده ، لنرجنكم بالحجارة ، ولیمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهی بقتلكم وهلاككم .

قال صاحب الكشف : قوله ﴿ تطيرنا بكم ﴾ أى : تشاء منا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا مما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا ..^(١) .

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضا - بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ﴿ طائركم معكم ، أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم ، بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم .

وجواب الشرط لقوله : ﴿ أئن ذكرتم ﴾ محذوف ، والتقدير : أئن وعظمت وذكرتم بالحق ، وخوفتم من عقاب الله .. تطيرتم وتشاءتم .

وقوله : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم .

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى ، وفى إثارة الباطل على الحق ، والغى على الرشيد ، والتشاؤم على التيامن .

ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاوراة التى دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتى تدل على أن أهل القرية كانوا مثلاً فى السفاهة والكراهة للخير والحق .

بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله - تعالى - وتطاولهم عليهم ، وتهديدهم لهم بالرجم : فقال - تعالى - :

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٩ .

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ
لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا
فِطْرَتِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
يُرِيدَنَّ الرَّحْمَنُ يُضِلَّيْكَ لَا تَعْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنْقِذُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
﴿ * ﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلْقُرُونِ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى ﴾ .. ﴿ معطوف على كلام محذوف -
يفهم من سياق القصة ، والتقدير :

وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ﴾ وجاء من
أقصا المدينة ﴿ أى من أبعد مواضعها ﴾ رجل يسعى ﴿ أى : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع

الخطا لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .
 قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالتجارة .
 وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه .
 ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله - تعالى - عليه بصرف النظر عن اسمه أو صناعته أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها في القرآن الكريم هو الاعتبار والافتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها في أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والعبر بقرينه : ﴿ يسعى ﴾ : يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرتض أن يقبع في بيته - كما يفعل الكثيرون - بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .

أى : ﴿ قال ﴾ لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإفقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى الطريق الحق ، والحال أنهم في أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون في التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك في حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إني إذا لقي ضلال مبين . إني آمننت بربكم فاسمعون ﴾ .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعني من أن أعبد الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقني ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام في قوله : ﴿ أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ ﴾ للإنكار والنفي .

أى : لا يصح ولا يجوز أن اتخذ معه في العبادة آلهة أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ﴾ من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع في نهاية القلة والحقارة .

﴿ ولا ينقذون ﴾ : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمن أن ينزله بى .

﴿ إني إذا ﴾ لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله في العبادة ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أى : لأكونن في ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ ، الذى خلقكم ورزقكم ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه - سبحانه - في العبادة أحدا . مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان في قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشق الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .

ثم يصارحهم في النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يشيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشف ، فقد أجاد في تصوير هذه المعاني فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ كلمة جامعة في الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لا تحسرون معهم شيئا من دنياكم ، وترهبون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليلطف بهم ويدرهم .. فقال : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون ﴾ .

ثم قال : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ يريد فاسمعوا قولى وأطيعوني ، فقد نيهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتلوكم وإليه مرجعكم ..^(١) .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، ﴿ قيل ادخل الجنة ... ﴾ .

أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ قيل ادخل الجنة .. ﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك . والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة ، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه ..

وقيل : الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال ياليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ استئناف ببيان ما قاله عند البشارة .

أى : قيل له ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح ، فرد وقال : ياليت قومي الذين قتلونى ولم يسمعوا نصحى ، يعلمون بما نلت من ثواب من ربى ، فقد غفر لى - سبحانه - ، وجعلنى من المكرمين عنده ، بفضلته وإحسانه ..

قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحم الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

روى ابن أبى حاتم أن عروة بن مسعود الثقفى ، قال للنبي - ﷺ - : ابعثنى إلى قومي أدعهم إلى الإسلام ، فقال له - ﷺ - « إني أخاف أن يقتلك » ، فقال : يا رسول الله ، لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول الله - ﷺ - « انطلق إليهم » فانطلق إليهم ، فمر على اللات والعزى فقال : لأُصْبِحَنَّ غدا بما يسوؤك ، ففضبت ثقيف فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا تسلموا - ثلاث مرات - . فرماه رجل منهم فأصاب أُنْكُحَه فقتله - والأكلح : عرق فى وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس ﴾ قال ياليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين^(٢) .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٥٨ .

وقال صاحب الكشف ما ملخصه : وقوله : ﴿ ياليت قومي يعلمون .. ﴾ إنما تنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول في الإيمان .. وفي حديث مرفوع : « نصح قومه حيا وميتا » .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في اقتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشبهة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبداء أصنام ..^(١) .

ثم بين - سبحانه - ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلهم فقال : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده ﴾ : أى : من بعد موته .

﴿ من جند من السماء ﴾ لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن تفعل معهم ذلك .
﴿ وما كنا منزلين ﴾ أى : وما صح وما استقام في حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم ، وهوان قدرهم .

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحبها بهم جبريل بأمرنا .

﴿ فإذا هم خامدون ﴾ أى : هامدون ميتون ، شأنهم في ذلك كشأن النار التي أصابها الخمود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال : خمدت النار تخمد خمودا . إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل - كقعد - إذا مات وانقطعت أنفاسه .

وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين ، فقد نزلت بهم عقوبة الله - تعالى - فجعلتهم في ديارهم جائمين .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاعتاض بذلك من قبل قوات الأوان ، فقال - تعالى - : ﴿ يا حسارة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ .

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والتندم عليه ندما لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه ونهبت ، وصار في غير استطاعته إرجاعها .

و « يا » حرف نداء . و « حسارة » منادى وندأوها على المجاز بتزليلها منزلة العقلاء .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وآثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمقصود من الآية الكريمة ، التعجب من حال هؤلاء المهلكين ، وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على يؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .
والمعنى : يا حسارة على العباد الذين أهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضري فهذا أوان حضورك ، فإن هؤلاء المهلكين كانوا في دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ، ويتغامزون ، ويستخفون به ويدعونه ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والالتقياد .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ يا حسارة على العباد ... ﴾ تداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسارة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلطف عليهم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرىء : يا حسارة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث إنها موجهة إليهم^(١) .

أى : يا حسارة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .
ثم ويخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ .

والقرون : جمع قرن . وهم القوم المقترنون في زمن واحد . و « كم » خبرية بمعنى كثير .
أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسلهم ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك في الدنيا ، لحكمة أرادها الله - تعالى - .

ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب الجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ .

و « إن » حرف نفى ، و « كل » مبتدأ ، والتثوين فيه عوض عن المضاف إليه

و « لما » بمعنى إلا . و « جميع » خبر المبتدأ . و « محضرون » خبر ثان .
 أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكتنا كثيرا من القرى الظالم أهلها . وأن هؤلاء
 المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة في الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لا شك فيها أنه ما من أمة من
 الأمم ، أو جماعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة ، لنحاسبها
 على أعمالها ، ولنجازتها بالجزاء الذى تستحقه .
 كما قال - سبحانه - في آية أخرى : ﴿ وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون
 خبير ﴾ ^(١) .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، وهذه الأدلة
 منها ما هو أرضى ، ومنها ما هو سواى ، ومنها ما هو بحرى ، وكلها تدل - أيضا - على
 فضله ورحمته ، قال - تعالى - :

وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
 فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ
 وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ
 وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي
 خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
 وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْبَلَدُ الَّذِي سَخَّرَ مِنْهُ النَّهَارَ
 فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى
 عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ
 الْقَمَرَ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه قوله : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ وجه تعلقه بما قبله ، أنه - سبحانه - لما قال : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم ، وعنادهم فقال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها .. ﴾ أى : وكذلك نحى الموتى...^(١) .

والمراد بالآية هنا : العلامة والبرهان والدليل .

والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجدياء التى لا نبات فيها .

والمراد بالحلب : جنسه من حنطة وشعير وغيرها .

أى : ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى ، أننا ننزل الماء على الأرض الجدياء . فتهتز وترى ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التى يعيشون عليها . ويأكلون منها .

ونكر - سبحانه - لفظ ﴿ آية ﴾ للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغى لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها .

واقه - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر - أيضا - على إحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة .

وقوله : ﴿ أحييناها ﴾ كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله ﴿ فمعه يأكلون ﴾ للدلالة على أن الحب هو الشيء الذى تكون منه معظم المأكولات التى يعيشون عليها ، وأن قِلَّتَهُ تؤدي الى القحط والجوع .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٧٧ .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم الأخرى التي تحملها الأرض لهم فقال : ﴿ وجعلنا فيها جنت من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على قوله ﴿ أحييناها ﴾ ، ونخيل : جمع نخل ، كعبيد جمع عبد ، وأعناب : جمع عنب : والعيون ، جمع عين . والمراد بها الآبار التي تسقى بها الزروع .
أى : أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء .. وجعلنا فيها - بقدرتنا ورحمتنا - بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التي تسقى بها تلك الزروع والثمار .

وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنها أشهر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم .
واللام في قوله : ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وجعلنا ﴾ .
والضمير في قوله : ﴿ من ثمره ﴾ يعود إلى المذكور من الجنت والنخيل والأعناب . أو إلى الله - تعالى - .

أى : وجعلنا في الأرض ما جعلنا من جنت ومن نخيل ومن أعناب ، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التي جعلناها لهم ، وليشكرونا على هذه النعم .

و « ما » في قوله : ﴿ وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ الظاهر أنها نافية والجملته حالية ، والاستفهام للحض على الشكر .

أى : جعلنا لهم في الأرض جنت من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمار ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم ، وإنما الذى أوجدها وصنعها هو الله - تعالى - بقدرته ومشيئته .
وما دام الأمر كذلك ، فهلا شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أى : وماذا كله إلا من رحمتنا بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة . ولهذا قال : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أى : فهلا يشكرونا على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى^(١) .

ويصح أن تكون « ما » هنا موصولة فيكون المعنى : ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم من هذه الثمار كالعصير الناتج منها ، وكفرسهم لتلك الأشجار وتعهدا بالسقى وغيره ، إلى أن آتت أكلها .

قال الشوكاني : وقوله : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ معطوف على ثمره ، أى : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن « ما » موصولة ، وقيل : هى نافية ، والمعنى : لم يعملوه بأيديهم ، بل العامل له هو الله .^(١)

ثم أتى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : ﴿ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وبما لا يعلمون ﴾ .

ولفظ : ﴿ سبحانه ﴾ اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله سبحانه : أى : تسبيحا . بمعنى نزهته تنزهها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما . و « من » فى الآية الكريمة للبيان .

أى : تنزه الله - تعالى - تنزهها عن كل سوء . ونعظمه تعظيما لا نهاية له ، فهو - عز وجل - ﴿ الذى خلق الأزواج كلها ﴾ أى : الأنواع ، والأصناف كلها ذكورا وإناثا .

﴿ مما تنبت الأرض ﴾ أى خلق الأصناف كلها التى تنبت فى الأرض من حبوب وغيرها . ﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى : وخلقها من أنفسهم إذ الذكر من الأنتى ، والأنتى من الذكر . ﴿ وبما لا يعلمون ﴾ أى : وخلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد علمها إليه وحده - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته - تعالى - وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا فى الأرض ، ونرى بعضها متمثلا فى الإنسان المكون من ذكر وأنتى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى الأرض التى نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى تقلب الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، فقال - تعالى - : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار . فإذا هم مظلمون ﴾ . وقوله : ﴿ نسلخ ﴾ من النسلخ بمعنى الكشط والإزالة ، يقال : نسلخ فلان جلد الشاة ، إذا أزاله عنها .

والمراد هنا : إزالة ضوء النهار عن الليل ، ليبقى الليل ظلمته . قال صاحب الكشف : سَلَخَ جلد الشاة ، إذا كشطه عنها وأزاله . ومنه : سَلَخَ الحية

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٦٨ .

لِحَرَّشَاتِهَا - أى : لجلدها - فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل ، وملقى ظله^(١) .

أى : ومن البراهين والعلامات الواضحة ، الدالة على وحدانية الله ، وقدرته على إحياء الموتى ، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التى نشاهدها ، حيث ينزع - سبحانه - عن الليل النهار ، فيبقى لليل ظلامه ، ويصير الناس فى ليل مظلم ، بعد أن كانوا فى نهار مضى .
فمعنى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مَظْلُومُونَ ﴾ : فإذا هم داخلون فى الظلام ، بعد أن كانوا يعيدون عنه .
يقال : أظلم القوم . إذا دخلوا فى الظلام . وأصبحوا ، إذا دخلوا فى وقت الصباح .
وقوله - تعالى - : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرَى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ بيان لدليل آخر على قدرته - تعالى - وهو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلِ .. ﴾ .
قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى لحد معين تنتهى إليه .. شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره ، والمستقر عليه اسم مكان ، واللام بمعنى إلى ..
ويصح أن يكون اسم زمان ، على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعدها ، وعلى هذا فمستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا ..^(٢)

والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا ، وهى أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعدها ، وإلى زمن محدد لا تتجاوزه ، وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .
قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرَى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى : والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة فى مكانها ، وإنما هى تجرى فعلاً .. تجرى فى اتجاه واحد ، فى هذا الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلاً فى الثانية .

والله ربها الخبير بجرياتها ويمصيرها يقول : إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر الذى ستتتهى إليه لا يعلمه إلا هو - سبحانه - ولا يعلم مواعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى فى الفضاء لا يسندها شيء ، حين نتصور ذلك ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم^(٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٢ .

(٣) تفسير فى ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥ .

وقد ساق القرطبي عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله - تعالى - : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قال مستقرها تحت العرش .

ولفظ البخاري عن أبي ذر قال : قال النبي - ﷺ - لي حين غربت الشمس . « تدرى أين تذهب » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها . فقال لها : ارجعي من حيث جئت . فطلع من مغربها . فذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ (١) .

واسم الإشارة في قوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يعود الى الجرى المفهوم من « تجرى » .

أى : ذلك الجريان البديع العجيب المقدر الشمس ، تقدير الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، العليم بكل شيء فى هذا الكون علما لا يخفى معه قليل أو كثير من أحوال هذا الكون .

ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى تتعلق بكمال قدرته فقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل .. ﴾ .

ولفظ القمر قرأه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده . والمنازل جمع منزل . والمراد بها أماكن سيره فى كل ليلة ، وهى ثمان وعشرون منزلا ، تبدأ من أول ليلة فى الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه . ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر تاما . ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة .

أى : وقدرنا سير القمر فى منازل ، بأن ينزل فى كل ليلة فى منزل لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، إذ كل شيء عندنا بمقدار ..

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « والقمر » بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة « قدرناه » .

قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : ﴿ والقمر قدرناه ﴾ - بالنصب - أى : وصيرنا سيره ، أى : محله الذى يسير فيه « منازل » فقدر بمعنى صير الناصب لمفعولين . والكلام على

حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول ﴿ ومنازل ﴾ مفعوله الثاني .
 وقرأ الحريمان وأبو عمرو : ﴿ والقمر ﴾ بالرفع ، على الابتداء ، وجملة ﴿ قدرناه ﴾ خبره .

والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة^(١) .
 وقوله - سبحانه - : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ تصوير بديع لحالة القمر وهو في آخر منازل .

والعرجون : هو قنو النخلة ما بين الشاريخ إلى منبته منها ، وهو الذي يحمل ثمار النخلة سواء أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية . وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو الانعطاف والتقوس ، شبه به القمر في دقته وتقوسه واصفراره .

أى : وصيرنا سير القمر في منازل لا يتعدها ولا يتقاصر عنها ، فإذا صار في آخر منازل ، أصبح في دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس .

قال بعض العلماء : والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة . يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر في لياليه الأولى هلال . وفي لياليه الأخيرة هلال . ولكنه في لياليه الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة . وفي لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكون فيه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم . فليست مصادفة أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ بيان لدقة نظامه - سبحانه - في كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب في أسنى درجات الدقة ، وحسن التنظيم .

أى : لا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر في مسيره فتجتمع معه بالليل . وكذلك لا يصح ولا يتأتى لليل أن يسبق النهار ، بأنه يزاحمه في محله أو وقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يسير ، في هذا الكون بنظام بديع قدره الله - تعالى - له ، بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه في سيره .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٦ .

(٢) تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ٢٥ .

مجاهد : لكل منها حد لا يعدوه ، ولا يَقْصُرْ دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ..

وقال عكرمة : يعنى أن لكل منها سلطانا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ، وقوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار ..^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ التثنية في « كل » عوض عن المضاف إليه ..

قال الآلوسى : والفلك : مجرى الكواكب ، سمي بذلك لاستدارته ، كفلكة المغزل ، وهى الخشبة المستديرة فى وسطه ، وفلكة الخيمة ، وهى الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لثلا تتمزق الخيمة^(٢) .

أى : وكل من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، فى أجزاء هذا الكون يسرون بانسباط وسهولة ، لأن قدرة الله - تعالى - تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب . ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من النعم التى امتن بها على عباده فقال : ﴿ وآية لهم أننا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير فى « لهم » يعود إلى أهل مكة ، والمراد بذريتهم : أولادهم صغارا أو كبارا ، والمراد بالفلك المشحون : جنس السفن . فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - أولادهم صغارا وكبارا فى السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .

ويرى بعضهم أن الضمير فى « لهم » يعود إلى الناس عامة ، والمراد بذريتهم آبائهم الأقدمون ، والمراد بالفلك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام - التى أنجاه الله - تعالى - فيها بن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم . فيكون المعنى : وعلامة ودليل واضح للناس جميعا على قدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - آبائهم الأقدمين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة التى أمرنا بصنعها ، والتى كانت مليئة ومشحونة ، بما ينتفعون به فى حياتهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٢٣ .

قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ، الأصول والفروع ؛ لأن الذرية من الذرة بمعنى الخلق . والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع . فاسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد^(١) .

وهذا الرأي الثاني قد اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواء ، فقد قال رحمه الله : يقول - تعالى - : ودلالة لهم - أيضا - على قدرته - تعالى - تسخير البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح التي أنجاه الله فيها بن معه من المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم ﴾ أى : آباءهم .

﴿ فى الفلك المشحون ﴾ أى : فى السفينة المملوءة بالأمته والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - على عباده .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ من مثله ﴾ يعود على السفن المشبهة لسفينة نوح - عليه السلام - .

قال القرطبي : ما ملخصه قوله - تعالى - : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ والأصل ما يركبونه ... والضمير فى « من مثله » للإبل . خلقها لهم للركوب فى البر ، مثل السفن المركوبة فى البحر ، والعرب تشبه الإبل بالسفن . وقيل إنه للإبل والدواب وكل ما يركب .

والأصح أنه للسفن . أى : خلقنا لهم سفنا أمثالها ، أى : أمثال سفينة نوح يركبون فيها .

قال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح - عليه السلام -^(٣) .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : ﴿ وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقلون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴾ .

الصريخ : المغيث . أى : فلا مغيث لهم . أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصراخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى من يتقذه ، فيصرخ المغيث له قائلا : جاءك الغوث والعون . والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل .

أى : وإن نشأ أن نفرق هؤلاء المحمولين فى السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٦٥ .

منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضى عنده حياتهم .

فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير ؛ وذلك لأن السفن التي تجرى في البحر - مهما عظمت - تصير عندما تشند أمواجه في حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكين فيها من الهول والفرع ما يغشاهم ، وفي تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم مما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله - تعالى - ورحمته بهم .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من رد المشركين السيئ على من يدعوهم إلى الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذي لا يحيص لهم عنه ، ومن أحوالهم عند قيام الساعة ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا

قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا لِمَ نُنْفِقُ أَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا أَوَيْدُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

وَحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلَيْكُم لَّا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ .. ﴾ حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، وكيف أنهم صموا آذانهم عن سماع الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن التفكير في الآيات التكوينية .

أى : وإذا قال قائل هؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أى : احذروا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ، وصونوا أنفسكم عن ارتكاب المعاصى التى ارتكبوها الظالمون من قبلكم ، فأهلكوا بسببها وأبيدوا ، وآمنوا بالله ورسوله واعملوا العمل الصالح ، لعلمكم بسبب ذلك تتألون الرحمة من الله - تعالى - .

وجواب « إذا » مخوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن الناصح ، و استخفوا به ، وتطاولوا عليه .

ويشهد لهذا الجواب المخوف قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

و « من » الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن سماع الحق ، والثانية للتبعض . أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند هؤلاء المشركين ، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فى دعوته ، إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضا تاما ، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من قبلهم .

وأضاف - سبحانه - إليه الآيات التى أنتهم ، لتفخيم شأنها ، وبيان أنها آيات عظيمة ، كان من شأنهم - لو كانوا يعقلون - أن يتدبروها ، ويتبعوا من جاء بها .

ثم حكى - سبحانه - موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة ممن نصحهم وأرشدهم إلى الصواب ، فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ... ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقبه أبو جهل فقال له : يا أبا بكر : أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ .

قال نعم . قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : ابتلى - سبحانه - قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء .

فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا في ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت .. فنزلت هذه الآية .

وقيل : كان العاصي بن وائل السهمي ، إذا سأله المسكين قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى مني بك . ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا ..^(١) .

والمعنى . وإذا قال قائل من المؤمنين هؤلاء الكافرين : أنفقوا على المحتاجين شيئا من الخير الكثير الذي رزقكم الله - تعالى - إياه .

قال الكافرون - على سبيل الاستهزاء والسخرية - للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين طلبتم منا أن تنفق عليهم ، لو شاء الله لأطعمهم ولأغناهم كما أغنانا .

﴿ إن أنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ إلا في ضلال مبين ﴾ في أمركم لنا بالإلتفاق عليهم أو على غيرهم .

قال الشوكاني ما ملخصه : وقوله : ﴿ أنطم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ حكاية لتهكم الكافرين ، وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون : إن الرزاق هو الله ، وإنه يغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين ، وقالوا : نحن نوافق مشيئة الله فلا نطم من لم يطعمه الله . وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن الله - سبحانه - أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا ، وأمر الغنى أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة ، وقولهم : ﴿ من لو يشاء الله أطعمه ﴾ هو وإن كان كلاما صحيحا في نفسه ، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، وإنكار جواز الأمر بالإلتفاق مع قدرة الله ، كان احتجاجهم من هذه الحثية باطلا .

وقوله : ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ من تنم كلام الكفار . وقيل : هو رد من الله عليهم ..^(٢) .

ثم يحكى القرآن إنكارهم للبعث ، واستهزاءهم بمن يؤمن به فيقول : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

أى : ويقول الكافرون للمؤمنين - على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالبعث - ﴿ متى هذا

(١) حاشية المجلد على الجلالين ج ٣ ص ٥١٧ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٣٧٣ .

الوعد ﴿ الذى تعدوننا به من أن هناك بعثا ، وحسابا وجزاء ... أحضروه لنا ﴾ إن كنتم صادقين ﴿ فيها تعدوننا به .

وهنا يجيء الرد الذى يزلزله ، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم القيامة ، فيقول - سبحانه - : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

المراد بالصيحة هنا : النفخة الأولى التى ينفخها إسرافيل بأمر الله - تعالى - فيموت جميع الخلائق .

وقوله ﴿ يخصمون ﴾ أى : يختصمون فى أمور دنياهم . وفى هذا اللفظ عدة قراءات سبعية .

منها قراءة أبو عمرو وابن كثير : ﴿ وهم يَخْصُمُونَ ﴾ - بفتح الياء والحاء وتشديد الصاد مع الفتح - ومنها قراءة عاصم والكسائى : ﴿ وهم يَخْصُمُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الصاد مع الكسر .

ومنها قراءة حمزة ﴿ يَخْصُمُونَ ﴾ بإسكان الحاء وكسر الصاد مع التخفيف .

أى : أن هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة ، ويستبعدون حصولها ، جاهلون غافلون ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وستحل بهم بغتة فإنهم ما ينتظرون ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ يصيحها إسرافيل بأمرنا ، فتأخذهم هذه الصيحة وتصعقهم وتهلكهم ﴿ وهم يخصمون ﴾ أى : وهم يتخاصمون ويتنازعون فى أمور دنياهم .

وعندما تنزل بهم هذه الصيحة ، لا يستطيع بعضهم أن يوصى بعضا بما يريد أن يقول له ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهلهم ، لأنهم يصعقون فى أماكنهم التى يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة .

فأنت ترى أن الآيتين الكريميتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأحوال علامات يوم القيامة ، ولسرعة مجيء هذه الأحوال .

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة والرجل يليط حوضه - أى يسده بالطين - فلا يسقى منه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها »^(١) .

ثم بين - سبحانه - حالهم عند النفخة الثانية فقال : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ..

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التي يكون معها البعث والحساب .

والصور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، ولا يعلم كيفيته سوى الله - تعالى - :

والأجداث : جمع جَدَث - بفتحتين - كفرس وأفراس - وهي القبور .

وينسلون : أى : يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار ، والنَّسْلَان : الإسراع في السير .

أى : ونفخ في الصور النفخة الثانية، فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونه، يخرجون من قبورهم سراعاً - ويدون اختيار منهم - متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ليقضى فيهم بقضائه العادل .

﴿ قالوا ﴾ بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع ﴿ ياويلنا ﴾ أى : ياهلاكنا احضر فهذا أوان حضورك .

ثم يقولون بفزع أشد : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ أى من أثارنا من رقادنا، وكأنهم لهول ما شاهدوا قد اختلطت عقولهم، وأصبحت بالهول، فتوهوا أنهم كانوا نياما .

قال ابن كثير - رحمه الله - ﴿ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم قالوا : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد .

وقوله : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ رد من الملائكة أو من المؤمنين عليهم . أو هو حكاية لكلام الكفرة في رد بعضهم على بعض على سبيل الحسرة واليأس . و « ما » موصولة والعائد محذوف، أى : هذا الذى وعده الرحمن والذى صدقه المرسلون .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : إذا جعلت « ما » مصدرية ، كان المعنى : هذا وعد الرحمن، وصدق المرسلين، على تسمية الموعد والمصدق فيه بالوعد والمصدق ، فما وجه قوله : ﴿ وصدق المرسلون ﴾ ؟ إذا جعلتها موصولة ؟ .

قلت : تقديره : هذا الذى وعده الرحمن، والذى صدقه المرسلون ، بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال ...

ثم بين - سبحانه - سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

أى : ما كانت النفخة التى حكيت عنهم آنفا ﴿ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاحبا إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ومجموعون للحساب والجزاء .

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ من الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها .

وقوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ولا تحزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا ، فالجملة الكريمة تأكيد وتقرير لما قبلها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَنُضِعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١) .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أحوال الكافرين يوم القيامة ، جاء الحديث عما أعده الله - تعالى - بفضله وكرمه للمؤمنين ، وعما يقال للكافرين فى هذا اليوم من تبكيت وتأنيب فقال - تعالى - :

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ
فِي ظِلٍّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِعُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ
مَائِدَعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ
أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِى
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا
أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ بيان لأحوالهم الطيبة، بعد بيان أحوال الكافرين السيئة .

والشغل : الشأن الذى يشغل الانسان عما سواه من الشئون، لكونه أهم عنده من غيره، وما فيه من التنكير للتفخيم، كأنه قيل : فى شغل أى شغل .

وفاكهون . أى : متعمون متلذذون فى النعمة التى تحيط بهم، مأخوذ من الفكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط . يقال : فكه الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه، إذا طاب عيشه، وزاد سروره، وعظم نشاطه وسميت الفكاهة بذلك لتلذذ الانسان بها .

أى : يقال للكافرين فى يوم الحساب والجزاء زيادة فى حسرتهم - إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل عظيم، يتلذذون فيه بما يشرح صدورهم، ويرضى نفوسهم، ويقر عيونهم ، ويجعلهم فى أعلى درجات التمتع والغبطة .

وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة، للإشعار بأن هذه الحال ثابتة لهم ثبوتاً تاماً، بفضل الله - تعالى - وكرمه .

ثم بين - سبحانه - جانباً من كيفية هذا التمتع بالجنة ونعيمها فقال : ﴿ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾ .

و « هم » مبتدأ، و « أزواجهم » معطوف عليه . و « متكئون » خبر المبتدأ .

قال الامام الرازى . ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :

أحدهما : أشكالهم فى الاحسان . وأمثالهم فى الإيمان، كما قال - تعالى - : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ .

وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ... ﴾^(١) .

ويبدو أن المراد بالأزواج هنا : حلالهم اللاتى أحلهن الله لهم ، زيادة فى مسرتهم وبهجتهم ، وعلى هذا سار عامة المفسرين .

والظلال : جمع ظل أو ظلة، وهى ما يظل الإنسان ويقيه من الحر .

والأرائك : جمع أريكة وهى ما يجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه للراحة والمتعة .

أى : أن أصحاب الجنة هم وحلالهم يجلسون على الأرائك متكئين فى متعة ولذة .

﴿ لهم فيها ﴾ أى فى الجنة ﴿ فأكهة ﴾ كثيرة متنوعة ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أى : ولهم فوق ذلك جميع ما يطلبونه من مطالب وما يتمنونه من أمنيات .

فقوله : ﴿ يدعون ﴾ يصح أن يكون من الدعاء بمعنى الطلب، كما يصح أن يكون من الادعاء بمعنى التمنى .

يقال : ادعُ على ما شئت أى : تمن على ما شئت . ويقال : فلان فى خير ما يدعى، أى : فى خير ما يتمنى .

ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ . وللمفسرين فى إعراب قوله : ﴿ سلام ﴾ أقوال منها : أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ ﴿ قولا ﴾ أى : سلام يقال لهم قولا ...^(١) .

وقد أشار صاحب الكشف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله : ﴿ سلام ﴾ بدل من قوله ﴿ ما يدعون ﴾ كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم . والمعنى : أن الله - تعالى - يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة فى تكريمهم، وذلك غاية متمناهم ..^(٢) .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث، منها ما رواه ابن أبى حاتم - بسنده - عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - : « بيننا أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب - تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ قال : فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه . حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم »^(٣) .

والمأمل فى هذه الآيات الكريمة - كما يقول الإمام الفخر الرازى - يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب، كما تشير إلى وحدتهم، وإلى حسن المكان، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه، وإلى تلذذهم بالنعيم وإلى تلقيهم لأجل تحية ..^(٤) .

هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم، فهاذا يقال للمجرمين .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٢١ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٠ .

(٤) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٠١ .

لقد بين - سبحانه - بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ أى : ويقال للمجرمين في هذا اليوم - على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا - أيها المجرمون - عن المؤمنين ، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب في جهنم ، بسبب كفركم وجحودكم للحق .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره . قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾^(١) .

وقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ من جملة ما يقال لهم - أيضا - على سبيل التقرير والتوبيخ .

والعهد بالشئ : الوصية به ، والمراد به هنا : وصية الله - تعالى - للناس على السنة رسله ، أن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يخالفوا : مايوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية قال الآلوسى : والمراد بالعهد هنا . ما كان منه - تعالى - على السنة الرسل - عليهم السلام - من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله - تعالى - ﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ... ﴾ .

وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم النور ، إذ قال - سبحانه - ﴿ ألسنت بربكم قالوا بلى ﴾ .

وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله - تعالى - الزاجرة عن عبادة غيره ...

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها^(٢) .

والمعنى : لقد عاهدت إليكم - يا بني آدم - عهدا مؤكدا على السنة رسلى ، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته ، وأن لا تتبعوا خطواته ، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة ، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء .

فجملة ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان .

(١) سورة الروم الآيات من ١٤ - ١٦ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٤٠ .

وقوله : ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهي عما يجب عليهم أن يجتنبوه .

و « أن » في قوله ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ﴾ وفي قوله ﴿ وَأَنْ اعْبُدُونِي ﴾ مفسرة، والجملتان الثانية معطوفة على الأولى .

أى : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة الشيطان، وعهدت إليكم أن تعبدوني وحدي دون غيري .

والإشارة في قوله : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ تعود إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .
أى : هذا الذى أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لى هو الطريق الواضح المستقيم، الذى يوصلكم إلى عز الدنيا، وسعادة الآخرة .

وقوله - سبحانه - ﴿ وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ استئناف مسوق لتأكيد النهي عن طاعة الشيطان . ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته .

« وجبلا كثيرا » بمعنى : خلقا كثيرا حتى إنهم لكثرتهم كالجبيل العظيم .

ولفظ « جبلا » قرأه نافع وعاصم - بكسر الجيم والباء، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ جبلا ﴾ بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد .

أى : ولقد أغوى الشيطان منكم يابى آدم خلقا كثيرا، فهل عقلتم ذلك، وانعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة، واتخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح بعداوتكم . وبالعمل على إغوائكم .

قال - تعالى - : ﴿ إِنْ الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(١) .

وقال - سبحانه - حكاية عنه . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٢) .

وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان، يقال لهم فى النهاية : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

أى : هذه جهنم ماثلة أمام أعينكم أيها الكافرون، وهى التى كنتم توعدون بها فى الدنيا . وكنتم تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب .

(١) سورة فاطر آية ٦ .

(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ أى : ذوقوا حرها ولهيبتها وسعيرها ، بسبب كفركم فى الدنيا ، وموتكم على هذا الكفر .

والأمر فى قوله - تعالى - : ﴿ اصلوها ﴾ للتحقير والإهانة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ والذين يأمرونهم بذلك هم خزنة النار ، بأمر من الله - تعالى - ثم تنتقل السورة الكريمة فتحكى لنا جانباً آخر من أحوال الكافرين فى هذا اليوم العصيب ، كما تحكى لنا جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - فتقول :

الْيَوْمَ نَخْتِمُ

عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا

الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ

عَلَىٰ مَكَاتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ

﴿٦٧﴾ وَمَنْ نَعْمِرْهُ نَكْسِئْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

والمراد باليوم فى قوله - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم ... ﴾ يوم القيامة . وقوله : ﴿ نختم ﴾ من الختم ، والختم الوسم على الشئ بطابع ونحوه . مأخوذ من وضع الخاتم على الشئ وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه .

أى : فى يوم القيامة نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما تكلمنا أيديهم ، وتشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبون فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة . قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين فى الدنيا ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ^(١) .

أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف في ذلك اليوم العصيب ، أو لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق ، أو ليعلموا أن أعضاءهم التي ارتكبت المعاصي في الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم في الآخرة .

وجعل - سبحانه - ما تتنطق به الأيدي كلاما ، وما تتنطق به الأرجل شهادة ، لأن مباشرة المعاصي - غالباً - تكون بالأيدي ، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له ، أما قول الفاعل فهو إقرار وتنطق بما فعله .

قال الجمل : وقال الكرخي : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً ، أو قهراً . والإقرار مع الإيجاب غير مقبول . فقال : تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ، أي باختيارها بعد إقرار الله لها على الكلام ، ليكون أدل على صدور الذنب منهم^(١) .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث . التي صرحت بأن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه في الدنيا من سيئات . ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال : كنا عند النبي - ﷺ - فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مجادلة العبد ربه يوم القيامة .

يقول : رب ألم تُجِرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجزى على إلا شاهدا من نفسي ، فيقول الله - تعالى - له : كفى بنفسك اليوم عليك حسييا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .

قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانه - أي لأعضائه - : انطقى . فتتلقى بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً وسحقاً فعنكن كنت أناضل^(٢) .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾^(٣) .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين هم في قبضته في كل وقت فقال : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴾ .

(١) حاشية الجمل على الملالين ج ٣ ص ٥٢٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٧٢ ، وتفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ .

(٣) سورة فصلت الآية ١٩ ، ٢٠ .

وقوله : ﴿ لطمسنا ﴾ الطمس إزالة أثر الشيء عن طريق محوه . يقال : طمس الشيء طمسا - من باب ضرب - بمعنى محوته وأزلت أثره ، والمطموس والطميس الأعمى . ومفعول المشيئة محذوف . والصراف : الطريق وهو منصوب بنزع الخافض .

أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نمحو عنها الرؤية والإبصار لفعلنا ، ولكننا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم ، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر .
وقوله - سبحانه - : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ معطوف على ﴿ لطمسنا ﴾ على سبيل الفرض .

أى : لو نشاء محو أبصارهم لمحوناها ، فلو أرادوا في تلك الحالة المبادرة إلى الطريق ليسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك . لأنهم كيف يستطيعون ذلك وهم لا يبصرون شيئا .

فلاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ فأنى يبصرون ﴾ لاستبعاد اجتيازهم الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ والمسخ : تبديل الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة .
أى : وفي قدرتنا إذا شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية إلى صور أخرى قبيحة ، كأن نحولهم إلى قردة أو حيوانات وهم ﴿ على مكانتهم ﴾ أى : وهم في مكانهم الذى يقيمون فيه ﴿ فما استطاعوا ﴾ بسبب هذا المسخ ﴿ مضيا ﴾ أى : ذهابا إلى مقاصدهم ﴿ ولا يرجعون ﴾ أى : ولما استطاعوا - أيضا - إذا ذهبوا أن يرجعوا .
أى : في إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون في أماكنهم ، فلا يقدر أن يمضوا إلى الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف .

فالمقصود بالآيتين الكريميتين تهديدهم على استمرارهم في كفرهم ، وبيان أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفي قبضته ، وأنه - سبحانه - قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار ، ومن مسخ للصور ، ومن غير ذلك مما يريده - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - أحوال الإنسان عندما يتقدم به العمر فقال : ﴿ ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

وقوله : ﴿ نعمه ﴾ من التعمير ، بمعنى إطالة العمر .
قال القرطبي : وقوله : ﴿ نُنَكِّسُهُ ﴾ قرأه عاصم وحمة - بضم النون الأولى وتشديد

الكاف - من التنكيس . وقرأه الباقون : ﴿ تَنَكُّسُهُ ﴾ - يفتح النون الأولى وضم الكاف - من نكست الشيء أنكسه نكساً إذا قلبته على رأسه فانتكس .^(١)

قال قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ... قال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جِدَّتَه وخانه ثقناه السمع والبصر

فطول العمر يصير الشباب هَرَمًا ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا .. وقد استعاذ النبي - ﷺ - من أن يرد إلى أرذل العمر .. «^(٢) .

والمعنى : « ومن نطل عمره تنكسه في الخلق » أى : نرده إلى أرذل العمر ، فنجعله - بقدرتنا - ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخا بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص العقل بعد أن كان مكتمله ... ﴿ أفلا يعقلون ﴾ ذلك - أيها الناس - مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف .. قادر -أيضا - على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾^(٣) .

وقوله - سبحانه - ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾^(٤) . وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد هدت الكافرين بسوء المصير إذا استمروا في كفرهم ، وبينت جانباً من فضل الله - تعالى - عليهم ، لعلهم يفيثون إلى رشدهم ، ويشكرونه على نعمه .

ثم رد - سبحانه - على الكافرين الذين وصفوا النبي - ﷺ - بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال - تعالى - :

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ
لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٥١ .

(٢) سورة الروم آية ٥٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٧٠ .

أى : وما عَلَّمْنَا الرسول - ﷺ - الشعر وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم ،
المشتمل على ما يسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، نفى أن يكون القرآن شعراً بأبلغ وجه لأن الذى علمه
الله - تعالى - لنبيه هو القرآن وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعراً .
وقوله - تعالى - : ﴿ وما ينبغى له ﴾ . أى : ما علمناه الشعر ، وإنما علمناه القرآن ،
فقد اقتضت حكمتنا أن لا نجعل الشعر فى طبعه - ﷺ - ولا فى سليقته ، فحتى لو حاوله -
على سبيل الفرض - فإنه لا يتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته - ﷺ - .
والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ يعود إلى القرآن
الكريم :

أى : ما هذا القرآن الكريم إلا ذكر من الأذكار النافعة ، والمواظب الناجحة ،
والتوجيهات الحكيمة ، وهو فى الوقت نفسه ﴿ قرآن مبين ﴾ أى : كتاب مقروء من الكتب
الساوية الواضحة ، التى لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر .

وقد أنزلناه على الرسول الكريم ﴿ لينذر ﴾ به ﴿ من كان حياً ﴾ .
أى : من كان مؤمناً عاملاً ذا قلب حى ، ونفس نقية ، وأذن واعية ، لأن من كانت هذه
صفاته انتفع بالإنذار والتذكير .

﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أى : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع بالإنذار ، أما من
كان مصراً على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد حققت عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به فى
جهنم وبش القرار .

وقد تكلم المفسرون هنا كلاماً مفصلاً . عن كون القرآن ليس شعراً ، وكون الرسول
- ﷺ - ليس شاعراً ، وعلى رأسهم صاحب الكشف فقد قال ما ملخصه : كانوا يقولون
لرسول الله - ﷺ - إنه شاعر . فرد عليهم بقوله : ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ أى : أن
القرآن ليس بشعر ، وأين هو من الشعر . والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ،
فأين الوزن ؟ وأين التقفية ؟

وأين المعانى التى ينتحياها الشعراء من معانيه ؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه ...
﴿ وما ينبغى له ﴾ أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد
قرض الشعر لم يتأت له ، ولم يتسهل كما جعلناه أمياً .. لتكون الحجة أثبت ، والشبهة
أدحض ...

فإن قلت : فقله :

أنا النبی لا کذب أنا ابن عبد المطلب

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه - ﷺ - الذي كان يرمى به على السليقة . من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إذا جاء موزونا ، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر ... «^(١) .

ثم ذكر - سبحانه - المشركين ببعض النعم التي أسبغها عليهم ، والتي يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسئل النبي - ﷺ - عما لقيه منهم ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ جُنُودًا مُّخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ... ﴾ للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .
والأنعام : جمع نعم : وهي الإبل والبقر والغنم .

والعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم .
أنا خلقنا لهم مما عملته أيدينا . وصنعتهم قدرتنا . أنعاما كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه .

وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدي ، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان بقدرته

- تعالى - وحده دون أن يشاركه في ذلك مشارك ، أو يعاونه معاون . كما يقول القائل : هذا الشيء فعلته بيدي وحدي ، للدلالة على تفرده بفعله .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ لهم ﴾ للإشعار بأن خلق هذه الأنعام إنما حدث لمنفعتهم ومصلحتهم .

و ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ مما عملت ﴾ موصولة . والعائد محذوف . أى : مما عملته أيدينا . وقوله : ﴿ فهم لها مالكون ﴾ بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم . أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك في قوله : ﴿ وذلكلناها لهم ... ﴾ أى : وجعلنا هذه الأنعام مذلة ومسخرة لهم ، بحيث أصبحت في أيديهم سهلة القيادة ، مطوعة لما يريدونه منها ، يقودونها فتتقاد للصغير والكبير . كما قال القائل :

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير^(١)
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير^(٢)

ففى هذه الجملة الكريمة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم ، ولو شاء - سبحانه - لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها .

والفاء في قوله : ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ تفريع على ما تقدم وركوب بمعنى مركوب .

أى : وصيرنا هذه الأنعام مذلة ومسخرة لهم ، فمنها ما يستعملونه في ركوبهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر ، ومنها ما يستعملونه في مآكلهم عن طريق ذبحه .

وفضلاً عن كل ذلك ، فإنهم « لهم » في تلك الأنعام « منافع » أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها في الحراثة وفي نقل الأثقال ... ولهم فيها - أيضاً - « مشارب » حيث يشربون من ألبانها .

والاستفهام في قوله : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ للتخصيص على الشكر ، أى : فهلا يشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، ويخلصون له العبادة والطاعة .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى من هذه النعم فقال : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ .

(١) الجرير . الحبل الذى يربط به البعير .

(٢) فلا غير لديه ولا نكير : أى فلا غيره لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف .

أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر . فقد تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها . وراجين أن تدفع عنهم ضرا عند التماس ذلك منها .
وقوله - تعالى - : ﴿ لا يستطيعون نصرهم .. ﴾ دفع لما توهموه من نصرهم ونفى لما توقعوه من نفعهم .

أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين . لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فضلاً عن نصرهم لغيرهم .

وقال - سبحانه - : ﴿ لا يستطيعون ﴾ بالواو والنون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل .
والضمير « هم » في قوله - تعالى - : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعود إلى المشركين ، والضمير في قوله ﴿ لهم ﴾ يعود إلى الآلهة المزعومة .

أى : وهؤلاء الكفار - لجهااتهم وانطماس بصائرهم - قد صاروا في الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع عنها . والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها .

ويرى بعضهم أن الضمير « هم » للآلهة ، والضمير في « لهم » للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم أى الآلهة - « لهم » أى : للمشركين ، « جند محضرون » أى : جند محضرون معهم إلى النار ، ليلقوا فيها كما يلقي الذين عبدوهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ يأبى الذين آمنوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ .

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ للإفصاح . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم من الجهالة والقفلة ، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تبال بأقوالهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ تعليل للنهى عن الحزن بسبب أقوالهم . أى لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوالهم الباطلة ، فإننا نعلم علماً تاماً ما يسرونه من حقد عليك ، وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، وسنعاقيهم على كل ذلك العقاب الذى يستحقونه .

فالآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شيء ، فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ
مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات ، أن أبي بن خلف جاء إلى رسول الله - ﷺ - وفي يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه في الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال - ﷺ - : نعم . يبيتك الله - تعالى - ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار . ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة ...

والمراد بالإنسان : جنسه . ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .

وأصل النطفة : الماء القليل الذي يبقى في الدلو أو القربة . وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلّة .

والمراد بها هنا : المنى الذي يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .

والخصيم : الشديد الخصام والمجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل . والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين

الذى يخرج من الرجل فيصب في رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لفقلته وعناده ، بادر بالمبالغة في الخصومة والجدل الباطل . وجاهر بذلك بمجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث ، بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديق به ... والهمزة للإنكار والتعجب من أحوالهم ، وإيراد الإنسان مورد الضمير ، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان . والمراد بالإنسان الجنس . والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقاً .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ عطف على الجملة المنفية ، داخل في حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل : أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ، فأظهر الخصومة في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة ... ^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ معطوف على الكلام المتقدم ، وداخل في حيز الإنكار .

أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلاً هو في غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتي ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : - دون أن يفطن إلى أصل خلقته - من يحيى العظام وهى رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى . فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل . من رَمَّ اللّازم بمعنى بَلَى ، أو بمعنى مفعول ، من رم المتعدى بمعنى أَبْلَى . يقال : رمه إذا أبلاه . فيستوى فيه المذكر والمؤنث .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم سمي قوله : ﴿ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ مثلاً ؟ قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهى إنكار قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتي .. مع أن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله - تعالى - بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى .. ^(٢) .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الجواب الذى يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ﴿ قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ...

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٥٣ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٠ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجساد والأجساد البالية ، الله - تعالى - الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئاً مذكوراً ، ومن قدر على إيجاد الشيء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه . وهو - سبحانه - بكل شيء فى هذا الوجود عليم علماً تاماً ، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، سواء أكان هذا الشيء صغيراً أم كبيراً ، مجموعاً أم مفروقاً .

قال الشوكانى : وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام بما تحلها الحياة - أى أنها بعد الموت تكون نجسة .

وقال الشافعى : لا تحلها الحياة ، وأن المراد بقوله : ﴿ من يحيى العظام ﴾ من يحيى أصحاب العظام على تقدير مضاف محذوف . ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر ^(١) .
وقوله - تعالى - : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ دليل آخر على إمكانية البعث وهو بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ الذى أنشأها أول مرة ... ﴾ .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر الندى الرطب ، كشجر المَرْخِ والعَفَّارِ وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر انتقدت منهما شرارة نار بقدره الله - تعالى - .
قال ابن كثير : المراد بذلك سَرْحٌ - أى : شجر المرخ والعفار . ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء سواء .

روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى المثل : « لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار » ^(٢) .

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظاً من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشيء على بعض .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث ، يحيى الأجساد البالية الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضلته ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب ناراً ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار . وتتفعون بها فى كثير

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٢٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٨١ .

من أحوال حياتكم .

وإذا فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر - مع ما فيه من المائية المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخاً آخر . فقال : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

والاستفهام - كسابقه - للإنكار والتعجب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والضمير في « مثلهم » يعود إلى المنكرين للبعث .

والمعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض - وهما في غاية العظم - قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير ما بعد النفى ، وتأکید قدرته - سبحانه - على الخلق والإعادة . لأن « بلى » حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفياً .

أى : بلى إنه لقادر - سبحانه - على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو - سبحانه - « الخلاق » أى : الكثير المخلوقات « العليم » أى : الكثير العلم بحيث لا يخفى عليه شيء .

ثم أكد - سبحانه - شمول قدرته لكل شيء فقال : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

أى : إنما شأنه - سبحانه - فى إيجاد الشيء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجوداً فيكون ، أى : فهذا الشيء يكون ويوجد فى الحال ... قال الشاعر :
إذا ما أراد الله أمراً فلانما يقول له « كن » قوله فيكون

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتنزيهه - تعالى - عن كل نقص ، فقال ﴿ فسيحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

أى : فتزده الله - تعالى - الذى له ملك كل شيء ملكاً تاماً ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل ما يقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى .

فهو - سبحانه - لا يعجزه شيء ، ولا يخفى على علمه شيء ، ولا يحول دون قدرته شيء ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة « يس » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ،
ونافعاً لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر : صباح الثلاثاء ٥ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ - الموافق

٢٣ / ٧ / ١٩٨٥ م

نفسير سُورَةِ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الصفات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها كما ذكر صاحب الإتيقان - بعد سورة « الأنعام »^(١) .

ومعنى ذلك أن نزولها كان في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ، لأننا قد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أنه يغلب على الظن أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة^(٢) .

٢ - قال الآلوسى : هي مكية ولم يحكوا في ذلك خلافا . وهى مائة وإحدى وثلاثون آية عند البصريين ، ومائة واثنان وثلاثون آية عند غيرهم^(٣) .

وتعتبر هذه السورة - من حيث عدد الآيات - السورة الثالثة من بين السور المكية ، ولا يفوقها في ذلك سوى سورتي الأعراف والشعراء .

٣ - وسميت بهذا الاسم لا افتتاحها بقوله - تعالى - : ﴿ وَالصَّافَّاتُ صَفَا ﴾ . وقد سبأها بعض العلماء بسورة « الذبيح » ، وذلك لأن قصة الذبيح لم تأت في سور أخرى سواها .

٤ - وقد افتتحت سورة « الصفات » بقسم من الله - تعالى - بجماعات من خلقه على أن الألوهية والربوبية الحقّة إنما هي لله - تعالى - وحده ، ثم أقام - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة على صدق هذه القضية ، منها خلقه للسموات والأرض وما بينهما ، ومنها تزيينه لسماء الدنيا بالكواكب .

قال - تعالى - : ﴿ وَالصَّافَّاتُ صَفَا فَالزَّاجِرَاتُ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ . إِنَّا زِينَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ .

٥ - ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التي تذرّع بها المشركون في إنكارهم للبعث

(١) راجع الإتيقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ .

(٢) راجع مقدمة تفسير سورة الانعام للمؤلف .

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ٦٤ .

والحساب ، ورد عليها بما يحقها ، فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . أنذامتنا وكنا ترابا وعظاما أئتنا لمبعوثون . أو آبلؤنا الأولون . قل نعم وأنتم داخرون . فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

٦ - وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء المشركين ، وتوبيخ الملائكة لهم ، وإقبال بعضهم على بعض للتساؤل والتخاصم .. بعد كل ذلك بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - : ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون : إلا عباد الله المخلصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لافيهها غول ولاهم عنها ينزفون ﴾ .

٧ - ثم حكى - سبحانه - جانباً من المحاورات التي تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، وكيف أن أهل الجنة يتوجهون بالحمد والشكر لحالقهم ، حيث أنعم عليهم بنعمة الإيمان ، ولم يجعلهم من أهل النار الذين يأكلون من شجرة الزقوم .

قال - تعالى - : ﴿ إن هذا هو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رهوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ .

٨ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة إبراهيم مع قومه . ومع ابنه إسماعيل - عليهما السلام .

ومن قصة موسى وهارون وإلياس ولوط ويونس - عليهم الصلاة والسلام - .

٩ - ثم أخذت السورة الكريمة - في أواخرها - في توبيخ المشركين الذين جعلوا بين الله - سبحانه - وبين الملائكة نسباً ، ونزه - سبحانه - ذاته عن ذلك . وهدد أولئك الكافرين بأشد ألوان العذاب بسبب كفرهم وأقوالهم الباطلة .

وبين بأن عباده المؤمنين هم المنصورون ، وختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ .

١٠ - والمتأمل في هذه السورة الكريمة - بعد هذا العرض المجمل لآياتها - يراها بأنها قد اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وذلك لكي تغرس العقيدة السليمة في النفوس .. كما يراها تهتم بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم .. ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها .

كما يراها - كذلك - تسوق ألوانا من المحاورات التى تدور بين المشركين فيما بينهم عندما يحيط بهم العذاب يوم القيامة ، وألوانا من المحاورات التى تدور بينهم وبين أهل الجنة الذين نجاهم الله - تعالى - من النار وسعيرها .

كما يراها - أيضا - تسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، تارة بشيء من التفصيل كما فى قصة إبراهيم مع قومه ، وتارة بشيء من التركيز والإجمال كما فى بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها .

وتمتاز بعرضها للمعانى والأحداث بأسلوب مؤثر . ترى فيه قصر الفواصل وكثرة المشاهد ، والمواقف . مما يجعل القارئ لآياتها فى شوق إلى ما تسوقه من نتائج .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه
د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة ٨ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

٢٦ / ٧ / ١٩٨٥

« التفسير »

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣
 إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
 الْمَشْرِقِ ۝٥

والواو في قوله - تعالى - : ﴿ والصافات ﴾ للقسم . وجوابه قوله : ﴿ إن إلهكم
 لواحد ﴾ .

و « الصافات » من الصف ، وهو أن تجعل الشيء على خط مستقيم . تقول : صفت
 القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم . سواء أكانوا في الصلاة ، أم في الحرب ، أم في
 غير ذلك .

و « الزاجرات » : من الزجر ، وهو الدفع بقوة . تقول : زجرت الإبل زجرا - من باب
 قتل - إذا منعتها من الدخول في شيء ودفعتها إلى غيره .

و « التاليات » : من التلاوة ، بمعنى القراءة في تدبر وتأمل .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات : جماعة من الملائكة .
 موصوفة بهذه الصفات .

فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون أنفسهم صفا لعبادة الله - تعالى - وطاعته ،
 أو الذين يصفون أجنحتهم في السماء انتظارا لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب
 المعاصي ، أو يزجرون السحاب إلى الجهات التي كلفهم الله - تعالى - بدفعه إليها ، والذين
 يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقربا إليه - تعالى - وطاعة له .

وقد جاء وصف الملائكة بأنهم صافون في قوله - تعالى - في السورة نفسها : ﴿ وإنا لنحن
 الصافون . وإنا لنحن المسيحون ﴾ .

كما جاء وصفهم بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله - ﷺ - « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً . وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء »^(١) .

وفي حديث آخر رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمره قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : « يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف »^(٢) .

وجاء وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء ، لأجل الإعذار والإنذار به . كما في قوله - تعالى - في أوائل المرسلات : ﴿ فالملقيات ذكراً . عنرا أو نذرا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ هم الملائكة يمينون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ فالملقيات ذكراً . عنرا أو نذرا ﴾^(٣) ومنهم من يرى أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات هنا : العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات ، ويزجرون غيرهم عن المعاصي ، ويتلون كلام الله - تعالى - .

ومنهم من يرى أن المراد بالصافات : الطيور التي تصف أجنتها في الهواء وبالزاجرات والتاليات : جماعات الغزاة في سبيل الله ، الذين يزجرون أعداء الله - تعالى - : ويكثرون من ذكره .

ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح ، لأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي سقتها قبل ذلك تؤيده ، ويؤيده - أيضاً - ما يجيء بعد ذلك من أوصاف للملائكة كما في قوله - تعالى - : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ والمراد بالملأ الأعلى هنا . الملائكة .

ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن مسعود وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد .
وإنما أقسم الله - تعالى - هنا بالملائكة ، لشرفهم ، وسمو منزلتهم وامتثالهم لأوامره -

(١) صحيح مسلم : في كتاب المساجد ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣ .

سبحانه - امتثالاً تاماً وله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه ، تنويها بشأن المقسم ، ولفظاً لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع .

ولفظ « الصافات » مفعوله محذوف . والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو أجنحتها طاعة وامتثالاً لأمر الله - تعالى - .

والترتيب بالفاء في هذه الصفات ، على سبيل الترقى ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منفعتها إلى الغير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخلي عن الرذائل ، والتحلي بالفضائل .

وقوله « صفا ، وزجرا ، وذكرنا » مصادر مؤكدة لما قبلها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ جواب للقسام ، وهو المقسم عليه . أى : وحق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم - أيها الناس - لواحد لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في خلقه .

وقوله : ﴿ رب السموات الأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ بدل من قوله ﴿ لواحد ﴾ أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف .

أى : إن إلهكم - أيها الناس - لواحد : هو - سبحانه - رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التي تشرق منها الشمس في كل يوم على مدار العام ، إذ لها في كل يوم مشرق معين تشرق منه . ولها في كل يوم - أيضاً - مغرب تغرب فيه .

واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب ، لأن كل واحد منها يستلزم الآخر ، ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ في النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب ، وقد قال - تعالى - في آية أخرى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً ﴾^(١) .

والمراد بها هنا جنسها ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون مشرقاً - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التي هي كذلك .

وقال في سورة الرحمن : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربها ، أو مشرق الشمس والقمر ومغربها .

وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجيء هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية ،

وتارة على سبيل الجمع .

قال بعض العلماء : قوله ﴿ ورب المشارق ﴾ أى : ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السموات الفسيحة .

وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك . فالأرض فى دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس ، كان هناك مشرق على هذا القطاع . وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية .. وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ، أخبرهم الله - تعالى - بها فى ذلك الزمان القديم .. (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر قدرته فى خلقه لهذه السموات وكيف أنه - تعالى - قد زين السماء الدنيا بالكواكب . وحفظها من تسلل أى شيطان إليها فقال تعالى :

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظَّا
مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ
مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا لَمَنْ خُفِصَ
الْخُطْفَةُ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

وقوله - تعالى - ﴿ زينا ﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل . والمراد بالسماء الدنيا : السماء التى هى أقرب سماء إلى الأرض . فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب . والكواكب : جمع كوكب وهو النجم الذى يرى فى السماء .

وقوله : ﴿ بزينة الكواكب ﴾ فيه ثلاث قراءات سبعة ، فقد قرأ الجمهور بإضافة زينة إلى الكواكب . أى : بلا تنوين فى لفظ « بزينة » . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ « زينة » وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ ﴿ بزينة ﴾ ونصب لفظ الكواكب ، على أنه مفعول لفعل محذوف أى : أعنى الكواكب .

والمعنى : إنا بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التى ترونها بأعينكم - أيها الناس - بالكواكب ، فجعلناها مضيئة بحيث تهدون بها فى سيركم من مكان إلى مكان .

كما قال - تعالى - في آية أخرى : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾^(١) .

وعما لاشك أن منظر السماء وهي مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور ، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين في فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر .

قوله - سبحانه - : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ بيان لما أحاط به - سبحانه - السماء الدنيا من حفظ ورعاية .

ولفظ « حفظا » منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله . أى وحفظناها حفظا ، أو معطوف على محل « بزينة » .

والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب . والمراد به هنا : المتمرد من الجن .
والمارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله - تعالى - المتعري من كل خير .
أى : إنا جعلنا السماء الدنيا مزينة بالكواكب وضئانها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير ، خارج عن طاعتنا ورحمتنا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ، ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب ﴾ جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ ، وما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا استراق السمع منها .

ولفظ « يَسْمَعُونَ » بتشديد السين - وأصله يتسمعون . فأدغمت التاء في السين والضمير للشياطين ، وقرأ الجمهور ﴿ لا يَسْمَعُونَ ﴾ بإسكان السين .

قال صاحب الكشاف : الضمير في « لا يسمعون » لكل شيطان ، لأنه في معنى الشياطين ، وقرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله « يتسمعون » . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع . أو فلم يسمع .

فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث . وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟

قلت : المعنى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعد يأل يفيد الإصغاء مع الإدراك^(٢) .
والملاء في الأصل : الجماعة يجتمعون على أمر فيملئون النفوس هية ، والمراد بالملاء الأعلى هنا : الملائكة الذين يسكنون السماء .

(١) سورة الملك آية ٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٥ .

وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم في جهة العلو ، بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض .
وقوله : ﴿ وَيَقْدِفُونَ ﴾ من القذف بمعنى الرجم والرمى ، و ﴿ دَحُورًا ﴾ مفعولا لأجله ،
أى : يقذفون لأجل الدُّحُور ، وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا وَدُحُورًا : إذا
طرده وأبعده .

والواصب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وَصَبَ الشَّيْءُ يَصْبُ وَصُوبًا ، إذا
دام وثبت ، ومنه قوله : ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ أى : داتها ثابتا .

والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ، وحفظناها - بقدرتنا ورعايتنا - من كل
شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة في
السماء ، لم تمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجعناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب
السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا - فوق كل ذلك - عذاب
دائم ثابت لا نهاية له .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ خُفِىَّ الْخُطْفَةُ ﴾ استثناء من الواو في « يسمعون » و « مَنْ » في محل
بدل من الواو .

والخطف : الأخذ للشيء بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه .

أى : لا يسمع الشياطين إلى الملائكة الأعلى ، إلا الشيطان الذى خطف الخطفة من كلام
الملائكة بسرعة وخفة ، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر - دون ما يتعلق بالوحي - فإنه
في هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه ﴿ شهاب ثاقب ﴾ أى : شعلة من النار تنقب الجو
بضوئها فتهلكه وتحرقه وتنقبه وتمزقه .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَا لِمَسَاءٍ فُوجِدْنَا مِلَّتِ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشَهَابًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَمْعِ . فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾^(١) .
ومما يدل على أن استراقهم للسمع ، واختطافهم للخطفة ، إنما يكون في غير الوحي ،
قوله - تعالى - ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾^(٢) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنها - قال : كانت للشياطين مقاعد في السماء فكانوا
يستمعون الوحي قال : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : فإذا
سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة تسعا . قال : فلما بعث رسول

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٨٢ .

الله - ﷺ - جعل الشيطان إذا قعد مقعده ، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ^(١) .
ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يوبخ المنكرين للبعث والحساب ، وحكى جانباً
من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية ، ورد عليهم رداً يزهق باطلهم .. فقال - تعالى - :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا
أَنَّا نَلْعَبُوهَا ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ
﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَبِيُّنَا هَذَا
يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فاستفتهم .. ﴾ هي الفصيحة ، والاستفتاء : الاستخبار
عن الشيء ومعرفة وجه الصواب فيه .
والمراد من الاستفهام في الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على شركهم وجهلهم .
وتعجيب العقلاء من أحوالهم .

واللازب : أى : الملتصق ببعضه ببعض . يقال : لزب الشيء يلزب لזبا ولزوبا ، إذا تداخل
بعضه في بعض ، والتصق ببعضه ببعض . والطين اللازب : هو الذى يلزق باليد - مثلاً - إذا
ما التقت به قال النابغة الذبياني :

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب
أى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها .

والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك ه أيها الرسول الكريم - من أن كل شيء في هذا

الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأل هؤلاء المشركين « أهم أشد خلقا » أى : أهم أقوى خلقة وأمتن بنية ، وأضخم أجسادا .. « أم من خلقنا » من ملائكة غلاظ شداد ، ومن سجاوات طباقا ، ومن أرض ذات فجاج .

لاشك أنهم لن يجدوا جوابا يردون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق الملائكة والسموات والأرض . أشد من خلقنا .

وقوله - تعالى - ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ إشارة إلى المادة الأولى التى خلقوا منها فى ضمن خلق أبيهم آدم - عليه السلام - .

أى : إنا خلقناهم من طين ملتصق بعضه ببعض ، ومتداخل بعضه فى بعض .
فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقّت دليلين واضحين على صحة البعث الذى أنكره المشركون .

أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة .. أعظم وأكبر منهم ... ومن كان قادراً على خلق الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادراً على خلق الأقل والأصغر .

وقد ذكر - سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(١) .

وأما الدليل الثانى فهو قوله - تعالى - : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ وذلك لأن من خلقهم أولاً من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً .
إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الابتداء . وقد قرر - سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾^(٢) .

ثم بين - سبحانه - أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال : ﴿ بل عجبث ويسخرون ﴾ .

قال الجمل : وقوله : ﴿ بل عجبث ﴾ إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله : ﴿ فاستفتهم ﴾ أى : هم لا يقرون بل عجبث ، وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى :

(١) سورة غافر الآية ٥٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

لا تستفتهم فإنهم معاندون ، بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم^(١) .

أى : بل عجبت - أيها الرسول الكريم - ومن حقا أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التي سقتها لهم على أن البعث حق .
وجملة « يسخرون » حالية . أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك ومن إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لتردها على مسامعهم صباح مساء .
قال الآلوسى : وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ بل عجبت ﴾ - بضم التاء - .. وأولت هذه القراءة بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز على لعجبت من هذه الحال .
ثم قال : والذي يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل للسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو في الله - تعالى - بمعنى يليق لذاته - تعالى - وهو - سبحانه - أعلم به ، فلا يعينون معناه^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ بيان لشدة تماديهم في الباطل ، وإصرارهم عليه .

أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون ، وإذا رأوا آية واضحة في دلالتها على الحق ﴿ يستسخرون ﴾ أى : يبالغون في السخرية وفي الاستهزاء بها ، يقال : استسخر القوم من الشيء ، إذا استدعى بعضهم بعضا للاستهزاء به .

ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقوالا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال - تعالى - ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى : وقالوا - على سبيل المجحود والعناد - ما هذا الذي أتانا به محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا في كونه كذلك .

﴿ أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ﴾ .

أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول - ﷺ - سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة في الإنكار لما جاءهم به قولهم : أنذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا في قبورنا ، وصرنا تراباً وعظاما أننا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون أيضاً ؟ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٣٢ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص ٧٧ .

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطباس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التي لا يعجزها شيء . والتي من آثارها إيجادهم من العدم .

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الجواب الذي يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ستبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعاً ﴿ داخرون ﴾ أى : صاغرون مستسلمون ، لا تستطيعون التأخر أو التردد .. يقال : دخر الشخص يدخر - بفتح الحاء - دخورا ، إذا ذل وصغر وهان .

ثم بين - سبحانه - أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

والزجرة واحدة من الزجر ، يقال : زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شيء معين . والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام ، والفاء : هي الفصيحة .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا . فإنما بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة واحدة يصيحها إسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم في ذهول ، وينتظرون في استسلام وذلة حكم الله - تعالى - فيهم .

والمراد بهذه الزجرة : النفخة الثانية التي يقوم بها إسرافيل بأمر الله - تعالى - كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ^(١) .

والتعبير عن الصيحة بالزجرة للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتتهم ممن لا يستطيعون معصية أمره .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال : ﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾ أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم في ذهول : ﴿ يا ويلنا ﴾ أى : يا هلا كنا احضر فهذا أوان حضورك .

وقوله : ﴿ هذا يوم الدين ﴾ يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ما كانوا ينكرونه ، قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم .

أى : قال بعضهم لبعضهم في ذعر وفزع : يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال . الذى كنا ننكره في الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا .

ويصح أن يكون هو وما بعده ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ من كلام الملائكة على سبيل التأنيب لهم .

أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ما شئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، وتستهنئون بمن يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم بسوء المصير إذا ما سرتهم فى طريق الكفر به ، والإنكار له .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصورا تقشع من هوله الجلود ، وحكى جانباً من حسراتهم خلال تسلوهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ
 اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَنِيمِ (٢٣) وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)
 مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّا كُنْكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)
 قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
 بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ (٣١)
 فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ
 (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰئِنَا
 لِشَٰعِرٍ مُّجْتَنٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ
 لَذَٰئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)

وقوله - تعالى - : ﴿ احشروا ﴾ من الحشر بمعنى الجمع مع السوق يقال : حشر القائد جنده حشرا - من باب قتل - إذا جمعهم . والمحشر : المكان الذى يجتمع فيه الخلائق .

والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، ومن الآيات التي وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك والكفر ، قوله - تعالى - : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ .

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي - ﷺ - فسر الظلم بالشرك في قوله - تعالى - : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾^(١) .

والمراد بأزواجهم : أشباههم ، ونظراؤهم وأمثالهم في الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم عمر بن الخطاب ، والنعمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد ، وأبو العالية .

وقيل المراد بأزواجهم . قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه . وقيل المراد بهم : نساؤهم اللاتي كن على دينهم ، بأن كن مشركات في الدنيا كأزواجهن ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا محشور . والعياذ بالله . إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشباه والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشباه جاء كثيرا في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وما لا يعلمون ﴾ .

والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التي كانوا في الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان .

والأمر من الله - تعالى - للملائكة في هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة .

أى : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين في الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم في الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم - أيضا - آلهتهم الباطلة التي عبدوها من دون الله - تعالى - ثم ألقوا بها جميعا في جهنم ، ليدوقوا سعيها وحرها .

وفي حشر الآلهة الباطلة مع عابديها ، زيادة تحسير وتخجيل لهؤلاء العابدين لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وخسران ما كانوا يفعلونه في الدنيا .

والضمير في قوله : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ يعود إلى المشركين وأشباههم وآلهتهم . وقوله : ﴿ فاهدوهم ﴾ من الهداية بمعنى الدلالة على الشيء والإرشاد إليه .

أى : احشروهم جميعا إلى جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ، وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه .

والتعبير بالهداية والصراط فيه ما فيه من التهكم بهم ، والتأنيب لهم فكأنه - سبحانه - يقول : بما أنهم لم يمتدوا في الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، فليهدتوا في الآخرة إلى صراط الجحيم .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ زيادة في توبيخهم وإذلالهم ، والوقف هنا : بمعنى الحبس .

قال القرطبي : يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هي وقفا .. أى : احبسوهم ، وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير أى : قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار ..^(١) أى : واحبسوهم في موقف الحساب ، لأنهم مسئولون عما كانوا يقترفونه في الدنيا من عقائد زائفة ، وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة .

ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التي صرحت بأن المجرمين يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم لا يسألون كما في قوله - تعالى - : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ .

أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن في يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون في موقف ولا يسألون في آخر .. أو أن السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفي هو سؤال الاستعلام والاستخيار .

قوله - تعالى - : ﴿ مالكم لا تنصرون ﴾ تقريع آخر لهم ، أى : ما الذي جعلكم في هذا اليوم عاجزين عن التصاصر فيما بينكم - أيها الكافرون - مع أنكم في الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصر ؟

ثم أضرب - سبحانه - عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

والاستسلام : أصله طلب السلامة ، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق . يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .

أى : ليسوا في هذا اليوم يقادرين على التصاصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لمعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

ثم يحكى - سبحانه - ما يدور بينهم من مجادلات يوم القيامة فيقول : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ .

ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا ، يكون بين الأتباع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء .
كما تدل عليه آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ،
يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا
مؤمنين ﴾ ^(١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن
اليمن ﴾ وللمفسرين في تأويل معنى اليمن عنا اتجاهات منها :
أن المراد باليمن هنا : الجهة التي هي جهة الخير واليمن : أى : قال الضعفاء للرؤساء :
إنكم كنتم في الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على ما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ،
لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة . فأين مصداق ما قلتموه لنا وقد نزل بنا
ما نزل من أهوال وآلام ؟

فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم
خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب اتباعهم لهم .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : اليمن لما كانت أشرف العضوين
وأمتنها ، وكانوا يقيمون بها ، فيها يضافحون ، ويماسحون ، ويتناولون ويتناولون ، ويزاولون
أكثر الأمور :

لما كانت كذلك استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمن ، أى من الخير
وناحيته .. ^(٢) .

ومنهم من يرى أن المراد باليمن هنا : اليمن الشرعية التي هي القسم ، وعن بمعنى الباء .
أى : قالوا لهم : إنكم كنتم في الدنيا تأتوننا بالآيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق
فصدقناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الآيمان المغلظة ؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم
اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .

ومنهم من يرى أن المراد باليمن هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم في الدنيا تجبروننا
وتفسروننا على اتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء .

والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على

(١) سورة سبأ الآية ٣١ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٣٩ .

الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ما جاءهم به الرسول - ﷺ - .

ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسؤولية كاملة على الرؤساء ، توهمها منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئاً من العذاب .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة .

أولها : ﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أى : قال الرؤساء للأتباع : نحن لم نتسبب في كفركم في الدنيا ، بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضا - فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شيء خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم في وقت من الأوقات .

فالجملة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وثانيها : يتجلى في قوله - تعالى - : ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء في الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .

وثالثها قوله - تعالى - : ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ أى : نحن لم يكن لنا سلطان عليكم ، بل أنتم الذين كنتم في الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا . والطاغيان مجاوزة الحد في كل شيء .

ورابعها : نراه في قوله - سبحانه - : ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ والفاء للتفريع على ما تقدم ، من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء في الكفر .

أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلا . فكانت نتيجةنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به - تعالى - . وخامس هذه الأجوبة : بينه - سبحانه - في قوله - حكاية عنهم - : ﴿ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ .

أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشd ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ مثلكم ، فلا تلوّمونا ولوموا أنفسكم فنحن ما أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .

وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة .

وهنا يبين - سبحانه - حكمه العادل في الجميع ، في الرؤساء والأنبياء فيقول ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

أى : كما كانوا متشاركين في الدنيا في الغواية والضلالة ، فإنهم في الآخرة مشتركون جميعا في حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره .

فالضمير في قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : مثل هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا في العبادة ، وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يستكبرون ﴿ عَنْ قَبُولِ هَذِهِ النَّصِيحَةِ ﴾ ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لمن نصحهم : ﴿ أَتُنَا لِنَارَكَوْا أَهْلَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ .

أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لا إله إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ما عليه آبائنا وأجدادنا من عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون .

ويعنون بالشاعر المجنون - قبحهم الله - رسول الله - ﷺ - الذى أرسله الله - تعالى - لهدايتهم .

ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أى : ليس الرسول - ﷺ - شاعرا أو مجنونا ، كما زعمتم - أيها الجاهلون - ، بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم في الدعوة إليه . فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون ؟

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ .. أيها المشركون بسبب هذه المزاعم ﴿ لَذَائِقُوا ﴾ في هذا اليوم ﴿ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ الذى يذلكم ويخزيكم ويجعلكم في حزن دائم .

﴿ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجه المؤلم . إلا بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، سوء عاقبة الكافرين ، بسبب

إعراضهم عن الحق . واستكبارهم عن الدخول فيه ، ووصفهم للرسول - ﷺ - بما هو يرى منه .

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين مصير الأشرار ومصير الأخيار - ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة - أتبع - سبحانه - الحديث عن سوء عاقبة الكافرين - بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال - تعالى - :

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾
يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيَّضَاءُ لَّدُنَّ لِلشَّرِبِِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
الْطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

قال الآلوسی ما ملخصه : قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من ضمير « ذائقوا » وما بينها اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق . ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا . فإلا مؤولة بلکن .

فالمنعنى : إنکم - أيها المشرکون - لذائقوا العذاب الأليم ، لكن عباد الله المخلصين - ليسوا كذلك - أولئك لهم رزق معلوم ..^(١) .

ولفظ ﴿ المخلصين ﴾ قرأه بعض القراء السبعة - بفتح اللام - ، أى : لكن عباد الله - تعالى - الذين أخلصهم الله - تعالى - لطاعته وتوحيده ليسوا كذلك .

وقرأه البعض الآخر بكسر اللام . أى : لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ، لا ينوقون حر النار كالمشركين .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعود إلى هؤلاء العباد المخلصين .

أى : أولئك العباد المتصفون بتلك الصفة الكريمة وهى الإخلاص ، لهم رزق عظيم معلوم في وقته ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ . ومعلوم في خصائصه الكريمة

وصفاته الحسنة ككونه لذيق الطعم ، حسن المنظر ، غير مقطوع ولا ممنوع إلى غير ذلك من الصفات التي تجعله محل الرغبة والاشتهاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ فواكه وهم مكرمون ﴾ يدل مما قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه .

والمراد بهذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التلذذ والتفكه ، وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم في الجنة في غنى عن القوت الذي يحفظون به حياتهم . وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله الآكلون .

وفضلا عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شيء إلا ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله - تعالى - ورحمته .

ثم بين - سبحانه - مكانهم وهيئتهم فقال : ﴿ في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ﴾ .
أى : هم في جنات ليس فيها إلا النعيم الدائم ، وهم في الوقت نفسه يجلسون على سرر متقابلين ، بأن تكون وجوههم متقابلة لا متدايرة ، فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين .

﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ والكأس . هو الإناء الذي فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح ، وقد يسمى الشراب ذاته كأسا ، فيقال : شربت كأسا ، وذلك من باب تسمية الشيء باسم محله .

و « معين » اسم فاعل من معن وهو صفة لكأس مأخوذ من عان الماء إذا نبع وظهر على الأرض . أى : يطاف على هؤلاء العباد المخلصين وهم في الجنة ، بكأس ملء بخمر لذة للشاربين ، نابعة من العيون ، وظاهرة للأبصار ، تجري في أنهار الجنة كما تجري المياه في الأنهار .

فالتعبير بقوله - تعالى - ﴿ بكأس من معين ﴾ يشعر بكثرتها ، وقربها ممن يريدھا .
وقوله - تعالى - : ﴿ بيضاء لثة للشاربين ﴾ صفتان للكأس باعتبار ما فيه .

أى هذه الخمر التي يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذينة الطعم والرائحة عند الشاربين .
﴿ لافيهها غول ﴾ أى : أذى أو مضرة ، والقول . إهلاك الشيء - على غرة وغفلة .
يقال : غاله يفوله غولا ، واغتاله اغتيالاً ، إذا قضى عليه بقتة ، وأخذ من حيث لا يشعر .

أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا .

﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ و ﴿ عن ﴾ هنا للسببية ، فهي بمعنى الباء ، أى : ولا هم بسبب شرها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال في خمر الدنيا .

وأصل النَّزْفُ : نَزَعُ الشيء من مكانه وإذها به بالتدريج ، يقال : نَزَفَ فلان ماء البئر ينزفه - من باب ضرب - إذا نزحه شيئاً فشيئاً إلى نهايته ، ويقال : نَزَفَ الرجل - كَعْنَى - إذا سكر حتى اختل عقله ، وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ما قبلها ، لكونها من أعظم مفسدات الخمر .

وقوله - تعالى - : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ بيان لمتعة أخرى من المتع التي أحلها الله - تعالى - لهم .

وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس ، وعين ، جمع عيناء ، وهى المرأة الواسعة العين في جمال . أى وفضلاً عن ذلك ، فقد متعنا هؤلاء العباد بمتع أخرى . وهى أننا جعلنا عندهم للمؤانسة نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يبدونها إلى غيرهم ، لشدة محبتهم لهم ، ومن صفات هؤلاء النساء - أيضاً - أنهن جميلات العيون .

﴿ كأنهن ﴾ أى : هؤلاء النسوة ﴿ بيض مكنون ﴾ ، أى : كأنهن كبيض النعام . الذى أخفاه الريش فى العش ، فلم تمسه الأيدي ، ولم يصبه الغبار ، فى صفاء البشرة ، ونقاء الجسد . وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفاته يخالطه شيء من الصفرة وهو لون محبوب فى النساء عند العرب ولذا قالوا فى النساء الجميلات : بيضات الخدور .

وإلى هنا تجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين . بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذى تشرح له الصدور ، وتقر به العيون ، وتبتهج له النفوس .

ثم حكى - سبحانه - بعض المحاورات التى تدور بين عباد الله المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعده - سبحانه - لهم من نعيم مقيم .. فقال - تعالى - :

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى

بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١

يَقُولُ أَهْلَكَ لِيَنِ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَهْ دَامَ مَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْ نَا

لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلِعُونَ ٥٤ فَأُطْلِعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ

الْجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي

لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا
 الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾
 لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

قال صاحب الكشف : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؟
 قلت : هو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾
 والمعنى : يشربون فيتحدثون على الشراب كعادة الشاربين .
 قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام
 فيقبل بعضهم على بعض ﴿ يتسألون ﴾ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا . إلا أنه جرى به
 ما ضيا على عادة الله في أخباره^(١) .

أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ، أقبل بعضهم
 على بعض ﴿ يتسألون ﴾ فيما بينهم عن ذكرياتهم ، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه - من
 باب التحدث بنعمة الله :

﴿ إني كان لى قرين ﴾ أى : إني فى الدنيا كان لى صديق ملازم لى ، ينهانى عن الإيمان -
 بالبعث والحساب ، ويقول لى - بأسلوب التهكم والاستهزاء :
 ﴿ أئنك لمن المصدقين ﴾ أى : أئنك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك بعثا
 وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿ أنذا متنا ﴾ وانتهت حياتنا فى هذه الدنيا ، ووضعنا فى قبورنا
 ﴿ وكنا ترابا وعظاما ﴾ أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية .
 ﴿ أننا لمدينون ﴾ أى : أننا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ،
 ومجزيون بأعمالنا . فقوله - تعالى - : ﴿ لمدينون ﴾ من الدين بمعنى الجزاء ، ومنه قوله -
 تعالى - : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ والاستفهام : للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث
 والحساب .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٤٤ .

وهنا يعرض هذا المؤمن على إخوانه ، أن يشاركوه في الاطلاع على مصير هذا القرن الكافر بالبعث فيقول لهم : ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ أى : هل أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرن الذى حكيت لكم حاله ؟ والاستفهام للتخصيص ، أى : هيا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرن الكافر .

﴿ فاطلع ﴾ ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار . فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى « سواء الجحيم » أى : فى وسط النار ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب . قال الآلوسى : واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينها من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله - تعالى - فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .

ولعلمهم - إن أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف . فاطلعوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقبل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرن من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث^(١) .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول . ﴿ قال تآقه إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴾ . وقوله : ﴿ تآقه ﴾ قسم فيه معنى التعجب ، و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة . واللام فى قوله : ﴿ لتردين ﴾ وهى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة جواب القسم ، وتردين : أى تهلكنى يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه . ورَدَى فلان - من باب رَضَى - إذا هلك . و ﴿ المحضرين ﴾ من الإحضار ، يقال : أحضر المجرم ليلقى جزاءه ، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع الإكراه والقسر .

أى : قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى فى وسط جهنم . وحق الله - تعالى - لقد كدت أيتها القرن أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى على ، حيث عصمتنى من طاعتك ، ووفقتى للإيمان .. لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقتى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، فحمدا لله - تعالى - على الإيمان والهداية .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفها نحن يميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ بيان لما

يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه في الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .
وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .
والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف .
والمعنى : أنحن مخلصون في هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتنا الأولى التي
لحقتنا في الدنيا ، ولن يصيبنا شيء من العذاب كما أصاب غيرنا ؟
إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى في هذا النعيم الدائم بفضل الله
ورحمته .

وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت .
قال القرطبي : قوله : ﴿ أفأنا نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى ﴾ : هو من قول أهل الجنة
للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : « يا أهل الجنة خلود بلا موت ، يا أهل النار خلود بلا
موت »^(١) .

والإشارة في قوله - تعالى - : ﴿ إن هذا هو الفوز العظيم ﴾ لما سبق الإخبار به من نفى
الموت والعذاب عن أهل الجنة . وهذا القول - أيضا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه في
الجنة ، أى : إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه - يا أهل الجنة - هو الفوز العظيم ، الذى
لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح .

ثم يقول لهم - أيضا - : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ،
والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية .
ثم ساق - سبحانه - ما يدل على البون الشاسع . بين النعيم المقيم الذى يعيش فيه عباد
الله المخلصون . وبين الشقاء الدائم الذى يعيش فيه الكافرون ، فقال - تعالى - :

أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَّلَا أَمْ شَجَرَةٌ

الزُّقُومِ ﴿١٣﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ

مَخْرُجٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ

﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا لَئِنْ مَنَّا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّا لَأَهْمُ

عَلَيْهَا الشَّوْبَاءُ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
 إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
 وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
 مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرْنَاهُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾
 إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

واسم الإشارة « ذلك » في قوله - تعالى - : ﴿ أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم ﴾ يعود إلى نعيم الجنة الذي سبق الحديث عنه ، والذي يشمل الرزق المعلوم وما عطف عليه . والاستفهام للتوبيخ والتأنيب . والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام ومكان ينزل به . و « ذلك » مبتدأ ، و « خير » خبره ، و « نزلًا » : تمييز لخبر ، والخيرية بالنسبة لما اختاره الكفار على غيره . والجملة مقول لقول محذوف .

وشجرة الزقوم هي شجرة لا وجود لها في الدنيا ، وإنما يخلقها الله - تعالى - في النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والعقارب .

وقيل : هي شجرة سامة متى مست جسد أحد تورم ومات ، وتوجد في الأراضي المجردة للصحراء .

والزقوم : من التزقم ، وهو ابتلاع الشيء الكريه ، بمشقة شديدة .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم الذي ينزل به المؤمنون في الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التي يتبلغ بها الكافرون وهم في النار ، فلا يجحدون من ورائها إلا النعم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح رائحتها وهيئتها .

ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح ، واختار الكافرون ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار ، قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتفريع ، لسوء اختيارهم .

ثم بين - سبحانه - شيئا عن هذه الشجرة فقال : ﴿ إنا جعلناها فتنه للظالمين ﴾ أي : إنا جعلنا هذه الشجرة محنة وابتلاء وامتحانًا هؤلاء الكافرين الظالمين ، لأنهم لما أخبرهم

رسولنا - ﷺ - بوجود هذه الشجرة في النار . كذبوه واستهزأوا به ، فحق عليهم عذابنا بسبب هذا التكذيب والاستهزاء .

قال القرطبي ما ملخصه قوله - تعالى - ﴿ إنا جعلناها فتنه للظالمين ﴾ أى ، المشركين . وذلك أنهم قالوا . كيف تكون في النار شجرة ، مع أن النار تحرق الشجر .. ؟

وكان هذا القول جهلا منهم ، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب ..^(١) .

ثم بين - سبحانه - أصل هذه الشجرة ومنبتها فقال : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ أى : منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم ، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركاتها .

ثم بين - سبحانه - ثمرها فقال : ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ أى : ثمرها الذى يخرج منها ، وحملها الذى يتولد عنها ، يشبه في تناهى قبحه وكراهيته ، رؤوس الشياطين التى هى أقبح ما يتصوره العقل ، وأبغض شيء يرد على الخاطر .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : شبه حمل شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، للدلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس ، لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، أو كأنه رأس شيطان ، وإذا صوره المصورون صوروه على أقبح صورة .

كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه ، فشهوا به الصورة الحسنة ، قال الله - تعالى - : ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . وهذا تشبيه تخيلى .

وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر .. فجاء التشبيه بها ..^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ تفريع على ما تقدم من كونها فتنه لهم .

أى : هذا هو حال تلك الشجرة ، وهذا هو أصلها وثمرها ، وإن هؤلاء الكفار الذين يستهزئون بمن يحدثهم عنها لآكلون من ثمارها حتى تمتلئ بطونهم ، رغبا عنهم ، وإذلالا لهم .
﴿ ثم إن لهم عليها ﴾ أى : على ما يأكلونه منها ﴿ لشوبا من حميم ﴾ أى : لشرابا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٤٦ .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٨٦ .

فالشوب : الخلط يقال : شاب فلان طعامه ، إذا خلطه بغيره .

والحميم : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . فطعامهم - والعياذ بالله - قد اجتمع فيه مرارة الزقوم وحرارة الماء وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام .

ثم بين - سبحانه - مصيرهم الدائم فقال . ﴿ ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم ﴾ أى : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك لآلى دركات الجحيم لا إلى غيرها .
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال - تعالى - : ﴿ إنهم آلفوا آباءهم ضالين : فهم آثارهم يهرعون ﴾ .

وقوله : ﴿ آلفوا ﴾ من الإلف للشيء بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحصوله .
وقوله : ﴿ يهرعون ﴾ من الإهرع بمعنى الإسراع الشديد ، أو الإسراع الذى تصحبه رعدة وفزع ، يقال : هُرِعَ وأهرِعَ - بالبناء للمجهول فيها - إذا استحث وأزعج ، ويقال : فلان يهرع - بضم الياء - إذا جاء مسرعا فى غضب أو ضعف أو خوف .

أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا آباءهم مقيمين على الضلال ، فاقبلوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى طريق هلاكه .

فالأيتان الكريمتان توبيخ شديد لهؤلاء الكافرين ، لأنهم لم يكتفوا بتقليد آبائهم فى الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك إسراعا لا تمهل معه ولا تدبر .

ثم بين - سبحانه - أحوال السابقين عليهم فقال : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ .
أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك - أيها الرسول الكريم - أكثر الأقسام السابقين الذين أرسلنا إليهم رسلا لمدايتهم .

وفى التعبير بقوله : ﴿ أكثر ﴾ إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التى اتبعت الحق .

﴿ ولقد أرسلنا فيهم منذرين ﴾ أى : ولقد أرسلنا فى هؤلاء الأقسام السابقين أنبياء كثيرين ينذرونهم ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر هؤلاء الأقسام لم يستجيبوا للحق .

﴿ فانظر ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أى : فانظر وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت عاقبتهم أن ممرناهم تدميرا ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى : ممرنا هؤلاء الأقسام إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم لتثبيت قواد

النبي - ﷺ - وتسليته عما أصابه من قومه ، وابتدأ تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ
عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

وقصة نوح - عليه السلام - قد وردت في القرآن الكريم في سور متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون .

وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التي أنعم بها الله - تعالى - على نبيه نوح - عليه السلام - حيث أجاب له دعاءه ، ونجاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكذبين . واللام في قوله : ﴿ ولقد نادانا نوح ... ﴾ واقعة في جواب قسم محذوف والمراد بالنداء الدعاء الذي تضرع به نوح - عليه السلام - وطلب منا أن ننصره على قومه الكافرين فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن ، فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان .

أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان النبي - ﷺ - إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية ، قال : « صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعى ، وأقرب من يُغى - أى طُلب لإجابة الدعاء - فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت . ونعم المسئول أنت ربنا ونعم النصير »^(١) . والمراد بأهله في قوله - تعالى - : ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ الذين آمنوا

معه .

أى : ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه - بفضلنا وإحساننا - من الكرب العظيم ، الذي حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين .

﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ أى : وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقي نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله - تعالى - أهلك جميع الكافرين من قومه ، أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ : قال ابن عباس : لم تبق إلا ذرية نوح .

وقال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح .

وروى الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن سمرة عن النبى - ﷺ - فى قوله : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : « هم سام ، وحام ، ويافت » .

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن سمرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافت أبو الروم »^(١) .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ أى : وأبقينا عليه فى الأمم التى ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة ألا وهى قولهم : سلام على نوح فى العالمين ، أى : تحية وأمان وثناء جميل على نوح فى العالمين .

وقوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ تعليل لما منحه - سبحانه - لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء .

أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذى جازينا به نوحا - عليه السلام - نجازى كل من كان محسناً فى أقواله وأفعاله . وإن عبدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغوا درجة الكمال فى إيمانهم وإحسانهم .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى من الأمم هذه الكلمة ، وهى : « سلام على نوح » يعنى : يسلمون عليه تسليماً ويدعون له . فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿ فى العالمين ﴾ .

قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلمون عليه عن آخرهم .

علل - سبحانه - مجازاة نوح بتلك التكرمة السنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً ، بأنه كان عبداً مؤمناً ، ليريك جلالة

محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك في تحصيله وفي الازدياد منه^(١) .

ثم ختم - سبحانه - القصة بقوله : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أى : لقد أضفنا إلى تلك النعم التى أعطيناها لنبينا نوح - عليه السلام - أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته .
وتلك سنتنا لا تتخلف ، أننا ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين .

وجاءت بعد قصة نوح - عليه السلام - قصة إبراهيم - عليه السلام - وقد حكى الله - تعالى - ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى بعض النعم التى أنعمها - سبحانه - عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال - تعالى - :

﴿وَإِذْ مِنْ

شَيْعِنِهِ لَبِئْسَ لَهُمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ (٨٤) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٨٥) أَفَكَاءَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ
۝ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (٨٧) فَظَنَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝ (٨٨)
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ
فَقَالَ أَلَا تَأْتَا كُلُونَ ۝ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۝ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْيَمِينِ ۝ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ۝ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
۝ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ (٩٦) قَالُوا آبَاؤُنَا لَهُ بُنْيَانٌ فَأَلْقُوهُ
فِي الْجَحِيمِ ۝ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝ (٩٨)
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ۝ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ (١٠٠)

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩ .

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
يَبْنِيْٓ إِنِّيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّيْ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۖ قَالَ
يَتَابِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِبْهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَقَ الرَّبُّ بِمَا إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ
أَلْتَلُوا الْعَيْنِ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرْكَنَاهُ عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرْكَنَاهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

والضمير في قوله : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يعود على نوح - عليه السلام - وشيعة
الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم
شيعة ، والجمع شيع مثل سِدْرَة وسِدْر .

قال القرطبي : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشيع ، وهو الحطب الصغار الذي
يوقد مع الكبار حتى يستوقد .^(١)

والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليها السلام - لأنه تابعه في الدعوة إلى الدين
الحق ، وفي الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته .. وهكذا جميع
الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره في دعوته التي جاء
بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات ، فهي متحدة في الأصول
والأركان .

وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما : هود ، وصالح - عليهما السلام - والظرف في قوله - تعالى - : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والحديعة والرياء .

والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص قلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شيء يملكه في سبيل رضا ربه - عز وجل - .

فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث في كل ما يرضيه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلاً لذلك^(١) .

وقوله : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ شروع في حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هي ظرف لقوله ﴿ سليم ﴾ أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نقى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلاً لهم : أى شيء هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى - ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخاً آخر فقال لهم : ﴿ أنفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ ؟ . والإفك أسوأ الكذب . يقال أفك فلان يافك إفكا فهو أفوك .. إذا اشتد كذبه . وهو مفعول به لقوله ﴿ تريدون ﴾ وقوله ﴿ آلهة ﴾ بدل منه . وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة .

أى : أنريدون إفكا آلهة دون الله ؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم . ثم حذرهم من السير في طريق الشرك فقال : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ .

والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا في عبادتهم لغيره - تعالى - . أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره ؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حساباً عسيراً ، ويعذبكم عذاباً أليماً ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة . وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .

قال الألوسى : قوله : ﴿ فما ظنكم برب العالمين ﴾ أى : أى شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لكونه رباً للعالمين ؟ أشككنم فيه حتى تركتم عبادته - سبحانه - بالكلية ، أو أعلمتم أى شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه أو أى شيء ظنكم بعقابه - عز وجل - حتى أجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه^(٢) .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) راجع تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١١٠ .

وعلى أية حال فالآية تدل دلالة واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادة
غير الله - تعالى - وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل .

ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته . وتنتقل السورة للإشارة إلى ما أضمره
إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة فتقول : ﴿ فنظر نظرة في النجوم . فقال إني
سقيم . فتولوا عنه مدبرين ﴾ .

قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها في العالم .. وتصادف أن
حل أوان عيد لهم . فدعوه إلى الخروج معهم كما هي عادتهم في ذلك العيد .

فطلع إلى السماء ، وقلب نظره في نجومها ، ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم - ليخلوا
بالأصنام فيحطمها - : ﴿ إني سقيم ﴾ أى مريض مرضا يمنعني من مصاحبتكم . ﴿ فتولوا
عنه مدبرين ﴾ . أى : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى
عيدهم ، فإنه كان قد أظف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يحتل بألتهم ليكسرهما ، فقال
لهم كلاما هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين .

قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر في أمر : نظر في النجوم ، يعنى قتادة : أنه نظر في
السماء متفكرا فيما يليههم به فقال ﴿ إني سقيم ﴾ أى : ضعيف .

وقول النبى - ﷺ - لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله ، قوله :
« إني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله في سارة « هي أختي » .

ليس المراد بالكذب هنا الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ، وإنما أطلق الكذب
على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء في الحديث : إن
من المعارض لمدحوعة عن الكذب .

وقيل قوله « إني سقيم » أى : بالنسبة لما يستقبل ، يعنى مرض الموت .

وقيل : أراد بقوله : « إني سقيم » أى ، مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله -
تعالى - ...^(١) .

ويبدو لنا أى نظر إبراهيم - عليه السلام - في النجوم ، إنما هو نظر المؤمن المتأمل في
ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته ، وأنه إنما فعل ذلك أمامهم -

وهم قوم يعظمون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريد من تحطيم الأصنام .

كما يبدو لنا أن قوله : « إني سقيم » المقصود منه : إني سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة الأصنام . وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك الأصنام . فكلام إبراهيم حق في نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون .

ثم حكى - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد بها فقال : ﴿ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ﴾ .

وأصل الروغ : الميل إلى الشيء بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو فلان . إذا مال إليه لأمر يريد منه على سبيل الاحتيال .

أى : فذهب إبراهيم مسرعاً إلى الأصنام بعد أن تركها القوم وانصرفوا إلى عيدهم ، فقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التي قدمها لك الجاهلون على سبيل التبرك ؟

وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : « ألا تأكلون » ، لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة . وقوله : « مالكم لا تنطقون » زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، وفي إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها .

هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن في قوله : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ أى : فمال عليهم ضارباً بإيهام بيده اليمنى ، حتى حطمهم كما قال - تعالى - في آية أخرى : ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليهم يرجعون ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ ضرباً باليمين ﴾ الدلالة على أن إبراهيم - عليه السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل في تحطيمها أقوى جارحة يملكها وهى يده اليمنى . وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى حلفها حين قال : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ .

وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها ...

وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك القرآن هنا ما قالوه

لإبراهيم عندما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة لهم ، مكتفياً بإبراز حالهم فيقول : « فأقبلوا إليه يزفون » .

أى : فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة . أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطأ ولهم جلية وضوء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم .

يقال : زَفُ النعام يَزِفُ زَفًا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير .

ولم يأبه إبراهيم - عليه السلام - لهياج قومه ، وإقبالهم نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم رداً منطقياً سليماً ، فقال لهم : ﴿ أتعبدون ما تحتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

أى : قال لهم موبخاً ومؤنباً : أتعبدون أصناماً أنتم تحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، وتركون عبادة الله - تعالى - الذى خلقكم وخلق الذى تعملونه من الأصنام وغيرها .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ « ما » فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها . وقيل إن « ما » استفهام ، ومعناه : التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى أى : أنتم لا تعملون ذلك لكن الله خالقه والأحسن أن تكون « ما » مع الفعل مصدراً . والتقدير : والله خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة ، أن الأفعال خلق لله - عز وجل - واكتساب للعباد .

وروى أبو هريرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله خالق كل صانع وصنعه »^(١) .

ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ، لم يجد أذناً واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه - سبحانه - فى قوله : ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ أى قالوا فيما بينهم : ابنوا لإبراهيم بنيانا ، ثم املئوه بالنار المشتعلة ، ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلكه .

فالمراد بالجحيم : النار الشديدة التأجج . وكل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، وهذا اللفظ مأخوذ من الجحمة وهى شدة التأجج والاتقاد - يقال : جحم فلان النار - كمنع - إذا أوقدها وأشعلها ، واللام فيه عوض عن المضاف إليه - أى - ألقوه فى جحيم ذلك البنيان الملىء بالنار .

وبنوا البنيان ، وأضرموه بالنار ، وألقوا بإبراهيم فيها ، فإذا كانت النتيجة ؟

كانت كما قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى : شرا وهلاكاً عن طريق إحراقه بالنار ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ - بقدرتنا التى لا يعجزها شيء - الأسفلين أى : الأذلين المقهورين ، حيث أبطلنا كيدهم . وحولنا النار إلى برد وسلام على عبدنا إبراهيم - عليه السلام - .

وهكذا رعاية الله - تعالى - تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العقاب لهم على القوم الكافرين .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانباً آخر من قصة إبراهيم - عليه السلام - هذا الجانب يتمثل فى هجرته من أجل نشر دعوة الحق وفى تضارعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فتقول : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِين . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ .. ﴾ .

أى : قال إبراهيم بعد أن نجاه الله - تعالى - من كيد أعدائه ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ أى : إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل - سبحانه - بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى .

قال القرطبي : « هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار ﴿ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ أى : مهاجر من بلد قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه ﴿ سَيَّهْدِين ﴾ فيما نويت إلى الصواب^(١) .

قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة . إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام ..^(٢) .

والسين فى قوله ﴿ سَيَّهْدِين ﴾ لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء على شدة توكله ، وعظيم أمله فى تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته - سبحانه - .

ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له ، أملاً آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أى : وأسألك ياربى بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لى ولداً هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٩٧ .

وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك في قوله : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ .

أى : فاستجبنا لإبراهيم دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق .

قال صاحب الكشف : - وقد انطوت البشارة على ثلاثة : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً^(١) .

وهذا الغلام الذى بشره الله - تعالى - به . المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام - . والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام حتى بلغ السن التى في إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده في قضاء مصالحه .

قيل : كانت سن إسماعيل في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة .

﴿ قال يا بنى إني أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ .

أى : فلما بلغ الغلام مع أبيه هذه السن ، قال الأب لابنه : يا بنى إني رأيت في منامى أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى في شأن نفسك .

قال الآلوسى ما ملخصه : يحتمل أنه - عليه السلام - رأى في منامه أنه فعل ذلك .. ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك ، ولكنه لم يذكره وذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة : رأيت في المنام أنى ناج من هذه المحنة .

ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى في اليقظة ، وفي رواية أنه رأى ذلك في ليلة التروية فأخذ يفكر في أمره ، فسميت بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة فهم بنجره فسمى بيوم النحر .

ولعل السر في كونه مناماً لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص ..^(٢) .

وإنما شاوره بقوله : ﴿ فانظر ماذا ترى ﴾ مع أنه سينفذ ما أمره الله - تعالى - به في منامه سواء رضى إسماعيل أم لم يرض ، لأن في هذه المشاورة إعلاماً له بما رآه ، لكي يتقبله بثبات وصبر ، وليكون نزول الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٥٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٢٩ .

وقوله : ﴿ قال يا أبت أفعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ حكاية لما رد به إسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على علو كعبه في الثبات ، وفي احتمال البلاء ، وفي الاستسلام لقضاء الله وقدره .

أى : قال الابن لأبيه : يا أبت أفعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ولا تتردد في ذلك وستجدني إن شاء الله من الصابرين على قضائه .

وفي هذا الرد ما فيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به - سبحانه - في أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا الأنبياء - عليهم السلام - يلهمهم الله - تعالى - في جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم في أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى . والكمال الخلقى .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الابن وأبيه فقال : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ وأسلما : بمعنى استسلما وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلم الذبيح نفسه وسلم الأب ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .

وقوله ﴿ وتله ﴾ أى : صرعه وأسقطه ، وأصل التل : الرمى على التل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم في كل رمى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض . والجبين : أحد جانبي الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما .

أى : فلما استسلم الأب والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض ، واستعد الأب لذبح ابنه .. كان ما كان منا من رحمة بها . ومن إكرام لها ، ومن إعلاء لقدرها .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين « ونادينه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا » كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف من استبشارها واغتيابها ، وحمدها لله ، وشكرها على ما أنعم به عليها من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبها في تضاعيفه من الثواب ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب ..^(١) .

وقد ذكروا هنا آثارا منها أن إسماعيل - عليه السلام - لما هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شيء من دمي فتراه أمتي فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمتي فاقرأ

عليها السلام منى .. وكان ذلك عند الصخرة التى بنى ..^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ﴾ أى : وعندما صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلا لأمرنا .. نادينا إبراهيم بقولنا ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .

قال الجمل : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح ؟ قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادها لأمر الله^(٢) .

وجملة « إنا كذلك نجزي المحسنين » تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المحسنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف لهم الغم والغم عنهم .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ يعود إلى ما ابتلى الله - تعالى - نبيه إبراهيم وإسماعيل .

أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، هو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ والذبح بمعنى المذبوح فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كالطحن بمعنى المطحون . أى : وفدينا إسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم فى هيئته ، وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .

قيل : افتداه الله - تعالى - بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكرمنا لنبيينا إبراهيم - أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده ، وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، ومثل هذا

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٤٨ .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ١٣٠ .

الجزء نجزي المحسنين ، إنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين في إيمانهم .
ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال : ﴿ وبشرناه
بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه
مبين ﴾ .

أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا
من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا
الدنية والدنيوية ، بأن جعلنا عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلها .
ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن في قوله وعمله ، ومن هو
ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي ظلماً واضحاً بيناً ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو
عقاب .

هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :
١ - أن الرسل جميعاً قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد في أصوله ، وأن كل
واحد منهم قد سار على نهج سابقة في الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقد
بين - سبحانه - في مطلع هذه القصة ، أن إبراهيم كان من شيعة نوح - عليه السلام - أى :
من أتباعه الذين ساروا على سنته في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده .
وقد أمر - عز وجل - نبيه - ﷺ - أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال :
﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

٢ - أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه
السلام - لكى يقضى على الأصنام ، اعتذر لقومه عن الخروج معهم في يوم عيدهم ، وقال
لهم : إني سقيم - بعد أن نظر في النجوم .
وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختل بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه أنها لا تصلح
للألوهية .

٣ - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى - بفضل وكرمه - عباده المخلصين ،
وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء .

ونرى ذلك جلياً في هذه القصة ، فقد أضر الكافرون لإبراهيم الكيد والإهلاك . فأنجاه
الله - تعالى - من مكرهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

٤ - أن على المؤمن إذا لم يتمكن من نشر دعوة الحق في مكان معين أن ينتقل منه إلى مكان

آخر متى كان قادرا على ذلك .

وهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فقد قال لقومه بعد أن يش من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ .

٥ - أن الدعاء متى صدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى .. كان جديراً بالإجابة .

فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه .

كما حكى - سبحانه - ذلك في قوله : ﴿ رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ .

ثم قال - سبحانه - بعد ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

٦ - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد ضربا أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وفي الاستسلام لأمر الله - تعالى - وفي الرضاء بقضائه .

فكافأهما - عز وجل - على ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم .

قال - تعالى - : ﴿ وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

٧ - أن الذبيح الذى ورد ذكره في هذه القصة ، والذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهور العلماء ، ومن أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتي :

(أ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فبشره - سبحانه - ﴿ بغلام حليم ﴾ ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه في أعماله . قال له أبوه : ﴿ يا بنى إني أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ ثم افتدى الله - تعالى - هذا الغلام بذبح عظيم .

ثم قال - تعالى - بعد كل ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

وهذا يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق .

(ب) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلا في سورة

هود . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابس التي وردت هنا في سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطي فقال :

وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :

مرة في قوله - تعالى - ﴿ رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ... ﴾ .

فهذه الآية قاطعة في أن المبشر به هو الذبيح .

ومرة في قوله - في سورة هود - : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾ .

فقد صرح فيها بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ ، وكان ذلك في بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم في آخر عمره .

أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله ، فعلمنا بذلك أنها بشارتان في وقتين بغلامين ، أحدهما بغير سؤال ، وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح^(١) .

ج - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً .

ثم قال الإمام ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه « بكره » وفي لفظ « وحيد » ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم^(٢) .

ومن العلماء الذين فصلوا القول في هذه المسألة ، الإمام ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : « وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة - أيضاً - وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٧ .

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٥٣ .

ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ .

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ وقال - تعالى - : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى : يولد له فى حياتها ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل .

وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدها بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فيكف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ، وإسماعيل وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام ^(١) .

قال الآلوسى - رحمه الله - بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك بالتفصيل : « والذى أميل إليه أنه - أى الذبيح - إسماعيل - عليه السلام - ، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه ، وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب ^(٢) . »

هذه بعض الأحكام والآداب التى يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التى حكاها - سبحانه - عن نبيه إبراهيم - عليه السلام - فى هذه السورة الكريمة ، وهناك أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر فى هذه الآيات الكريمة .

ثم ذكر - سبحانه - جانباً من قصة موسى وهارون - عليهما السلام - وهما من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ

وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَازِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ

الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا

عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣ .

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٣ ص ١٣٦ .

﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

وموسى : هو ابن عمران بن بصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق ، وكانت ولادته فى حوالى القرن الثالث عشر ق م .

وهارون : أخو موسى ، قيل كان شقيقاً له ، وقيل كان أخاً له لأمه ..
والمعنى : لقد أنعمنا على موسى - وهارون - عليها السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم الأخرى .

والتي من بينها أننا نجيناها وقومها المؤمنين ، من استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم .
﴿ ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴾ أى : ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما . فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناه إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم .

﴿ وآتيناهما ﴾ بعد كل ذلك ﴿ الكتاب المستبين ﴾ أى : الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .

يقال : استبان الشيء ، إذا ظهر ووضح وضوحاً تاماً .
﴿ وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ ، أى : وهديناهما وأرشدناهما - بفضلنا وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه .
﴿ وتركنا عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون ﴾ أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل ، والذكر الحسن .

﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أى : مثل هذا التكريم نجازى عبادنا المحسنين ﴿ إنها من عبادنا المؤمنين ﴾ أى الذين صدقوا فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا .
ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة إلياس - عليه السلام - وهو أيضاً من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٢٣﴾

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَالَا تُنْقَوْنَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

وإلياس - عليه السلام - هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون - عليه السلام - فهو ينتهي نسبه - أيضا - إلى إبراهيم وإسحاق .

ويعرف إلياس في كتب الإسرائيليين باسم ﴿ إيليا ﴾ وقد أرسله الله - تعالى - إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت في عهد « آخاب » أحد ملوك بني إسرائيل في حوالى القرن العاشر ق م .

والمعنى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقوله : ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ شروع في بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه ألا تتقون الله . وتحشون عذابه ونقمته . والاستفهام للحض على تقوى الله - تعالى - واجتناب ما يفضيه .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره - سبحانه - فقال : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ﴾ .

والبعل : اسم للصنم الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلقكم ورزقكم .

ولفظ الجلالة في قوله : ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ بدل من ﴿ أحسن الخالقين ﴾ .

أى : تعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتندرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة ﴿ الله ﴾ - بالرفع - على أنه مبتدأ ، و ﴿ ربكم ﴾ خبره .

والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل - أيضاً - رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته .

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضاراً فيه ذلهم وهوانهم .

﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ فإنهم ناجون من الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريماً وإحساناً .

﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الآخرين ﴿ سلام على إلياسين ﴾ أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة لوط مع قومه . فقال - تعالى - :

وَإِنَّ لُوطًا

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٢﴾ إِذْ يَجْنِيهِ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٣﴾ إِلَّا عَجُوزًا

فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٤﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

مُصْبِحِينَ ﴿١٣٦﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٧﴾

ولوط - عليه السلام - هو ابن أخ لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ .

وقد أرسل الله - تعالى - لوطا إلى قرية سدوم - من قرى الشام - وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

أى : ﴿ وإن لوطا ﴾ - عليه السلام - ﴿ لمن المرسلين ﴾ الذين أرسلناهم لهداية الناس ، ﴿ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴾ أى : اذكر - أيها العاقل - وقت أن نجيناه وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا .

﴿ إلا عجوزا في الغابرين ﴾ والمراد بالعجوز : أمراته التي بقيت على كفرها وكانت تفشى أسرار زوجها . أى : نجينا لوطا والمؤمنين معه من أهله ، إلا عجوزا بقيت في العذاب مع القوم الغابرين أى : مع الباقين في العذاب .

﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقى على كفره من أهل لوط ، كأمراته التي أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين .

ثم وجه - سبحانه - الخطاب لمشركى قريش فقال : ﴿ وإنكم لتعمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ؟ .

أى : وإنكم يا أهل مكة لتعمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الصباح ، وتارة تمرون عليهم وأنتم داخلون في وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار .

وقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ معطوف على مقدر ، أى : اتشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحص على الاعتبار بأحوال الماضين .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصص ، يذكر جانب من قصة يونس - عليه السلام - فقال :

وَلَإِنْ يُّوسُفَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٧﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ

مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣٨﴾ فَالْقَمْعَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مِلِّمٌ ﴿١٣٩﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ

كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٠﴾ لَلَيْثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤١﴾

﴿فَبَذَلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ (١٤٦) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧)
﴿فَأَمَّا نُوا فَتَعَنَّا عَنْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (١٤٨)

ويونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفي حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فاتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشثوما ، فاقرعوا ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه في البحر ، فالتقمه الحوت .. (١) .

والمعنى : وإن يونس - عليه السلام - لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه - يقال : أبق العبد - كضرب ومنع - إذا هرب من سيده فهو أبق .

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى : هرب من قومه إلى الفلك المليء بالناس والأمتعة ﴿فَسَاهَمَ﴾ أى : فقارع من في السفينة بالسهم ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ .

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواء . يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

﴿ فالتقمه الحوت وهو ملیم ﴾ أى بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه فى البحر ، « فالتقمه الحوت » أى : ابتلعه بسرعة : يقال : لقم فلان الطعام - كسمع - والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقمه إذا ابتلعه على مهل .

وجملة « وهو ملیم » حالیه فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال ما يلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .
يقال : رجل ملیم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال ما يلام عليه ، وهو اسم فاعل من اللمّ الرجل ، إذا أتى ما يلام عليه .

﴿ فلولا أنه كان من المسیحین . للبت فى بطنه إلى يوم یبعثون ﴾ أى : فلولا أن یونس - علیه السلام - كان من المسیحین لله - تعالى - المداومین على ذكره . لولا هذا التسبیح للبت یونس فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله - تعالى - وتسبیحه .. سبب فى تفريج الكرب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفى الحديث الشریف : « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : « أخبر الله - عز وجل - أن یونس كان من المسیحین ، وأن تسبیحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح یرفع صاحبه إذا عثر .

وفى الحديث الشریف : « من استطاع منكم أن تكون له خبیثة من عمل صالح فلیفعل » فلیجتهد العبد ، ومحرص على خصلة من صالح عمله ، یخلص فیها بینة و بین ربه ، ویدخرها لیوم فاقته وفقره ، ویسترها عن خلق الله ، لکی یصل إلیه نفعها وهو أحوج ما یشعر إلیه^(١) .
فنبذناه بالعراء وهو سقیم ، والنبد : الطرح ، والعراء : الخلاء .

أى : أن یونس - علیه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبیحنا ومن دعائنا ، فاستجینا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .
وجملة « وهو سقیم » حالیه . أى : ألقیناه بالأرض الفضاء حالة كونه علیلا سقیما ، لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .

﴿ وأنبئتنا علیه شجرة من یقطین ﴾ أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من یقطین لکی تظلل علیه وتمنع عنه الحر .

واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .

وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمعتناهم إلى حين ﴾ أى : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم ، فآمنوا جميعا ﴿ فمعتناهم ﴾ بالحياة ﴿ إلى حين ﴾ انتهاء آجالهم .

قال الإمام ابن كثير : ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به . وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون^(١) .

هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله - تعالى - قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله - تعالى - توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء .

وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ وتأنيب ، عما قالوه فى شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم ردا يخرص ألسنتهم فقال - تعالى - :

فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْيَاكَ الْبَنَاتُ

وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ

شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ

اللَّهُ وَلِئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ

﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ

نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾
مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا
لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ
﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ ۖ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

وقوله - تعالى - ﴿ فاستفتهم .. ﴾ معطوف على قوله - تعالى - في أوائل السورة :
﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا .. ﴾ عطف جملة على جملة . والخطاب
للرسول - ﷺ - والاستفتاء : الاستخبار والاستفهام وطلب الفتيا من المفتي .

أى : أسأل - أيها الرسول - هؤلاء المشركين سؤال تقييد وتأنيب : ﴿ ألبك البنات ولهم
البنون ﴾ أى : أسألهم بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم
البنين ؟ إن قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة وفاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق فى أى عقل
أن يجعلوا لله - تعالى - الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم الجنس
الأعلى .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ ^(١) .
قال صاحب الكشاف : ﴿ فاستفتهم ﴾ معطوف على مثله فى أول السورة ، وإن تباعدت
بينهما المسافة ، أمر رسوله - ﷺ - باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا . ثم ساق
الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها ،
حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم الملائكة بنات الله ، مع كراهتهم الشديدة
لهن . ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :
أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .

والثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جعلوا أوضاع الجنسين له ، وأرفعها لهم .
والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم . ولو قيل لأقلهم
وأدناهم : فيك أنوثة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمر ، ولا نغلبت
حماليقه - أى : أجفان عينيه ^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾ ، تقرير آخر لهم على
جهالاتهم وسفاههم ، حيث أضرب - سبحانه - عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه في
التبكيث والتأنيب .

أى : إنهم زعموا أن لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا
الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث ؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ،
أشهدوا خلقهم ، سكتب شهدتهم ويسألون ﴾ ^(٢) .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم قال : ﴿ وهم شاهدون ﴾ فخص علم المشاهدة ؟
قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم وتجهيل .. وذلك لأنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ،
لم يعلموه بخلق علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر ^(٣) .

ثم أخبر - سبحانه - عن كذبهم فقال : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم
لكاذبون ﴾ والإفك : أشنع الكذب وأقبحه . يقال : إفك فلان كضرب وعلم - إفكاً وإفكاً ،
إذا كذب كذباً فاحشاً .

أى : ألا إن هؤلاء الكافرين . من شدة كذبهم ، وشناعة جهلهم ليقولون زوراً وبهتاناً :
﴿ ولد الله ﴾ أى : اتخذ الله ولداً ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فى ذلك كذباً ﴿ تكاد السموات
يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ .

وافتححت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » لتأكيد قولهم ، وإنهم كانوا مصرين على هذا
القول الذى لا نهاية لبطلانه .

ثم كرر - سبحانه - توبيخهم وتقريرهم فقال : ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾
والاصطفاء : الاختيار والانتقاء . والاستفهام للإنكار والنفي ، أى : هل اختار الله البنات على

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٦٣ .

(٢) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٣) تفسير الكشف ج ٤ ص ٦٣ .

البنين في زعمهم ؟ كلا إن الله - تعالى - لم : يفعل شيئا من ذلك لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ أى : أى شيء حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل .

وقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ . معطوف على كلام محذوف والتقدير : أتجهلون هذه الأمور الواضحة ، فلا تعقلون ولا تذكرون ولا تعتبرون .

وقوله - تعالى - : ﴿ أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم ، إلى تحديهم وإثبات كذبهم .

أى : بل ألكم حجة واضحة على صحة هذا القول الذى قلموه من أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت عندكم هذه الحجة فأتوا بها إن كنتم صادقين فيما زعمتم .

فالمقصود بالآيتين الكريميتين تعجيزهم وإثبات المزيد من جهالاتهم وأكاذيبهم .

ثم حكى - سبحانه - زعما آخر من زعمهم فى شأن الملائكة فقال : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾ .

والمراد بالجنة هنا : الملائكة . سمو بذلك لاجتماعهم واستتارهم عن الأعين .

أى : أن المشركين لم يكفوا بما قالوا فى الآيات السابقة ، بل أضافوا إلى ذلك جريمة أخرى ، وهى أنهم جعلوا بين الله - تعالى - وبين الملائكة نسبا ، ولقد علمت الجنة ، - أى الملائكة - ، « إنهم » أى القائلون لهذه المقالة الباطلة « لمحضرون » أى : إلى العذاب يوم القيامة . ليدوقوا سوء عاقبة كذبهم .

قال القرطبي : أكثر أهل التفسير أن الجنة هاهنا الملائكة . عن مجاهد قال : قالوا - يعنى كفار قريش - الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : مخدرات الجن ... ومعنى « نسبا » : مصاهرة . وقال قتادة : قالت اليهود إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهن .

وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جعلوه^(١) .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عما افتروه فقال : ﴿ سبحانه الله عما يصفون ﴾ أى : تنزه الله - تعالى - وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون .

وقوله : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من قوله ﴿ لمحضرون ﴾ وما بينها جملة معترضة لتنزيه الله - تعالى - وتقديسه .

أى : والله لقد علمت الملائكة أن المشركين القائلين بهذا القول الفاسد لمحضرون إلى النار ، ويُدْعَوْنَ إليها دعا ، لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة والطاعة ليسوا كذلك ، بل هم ناجون من عذاب جهنم ، لتنزيهم الخالق - عز وجل - عما لا يليق به .

ثم حقر - سبحانه - من شأن المشركين ، ومن شأن آلهتهم المزعومة فقال : ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ﴾ .

وهذا الكلام يجوز أن يكون حكاية لما رد به الملائكة على المشركين الذين قالوا الإفاك والزور قبل ذلك ، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من الله - تعالى - على سبيل الاستخفاف والتهكم بالمشركين وبآلهتهم .

والفاء في قوله ﴿ فإنكم ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر . و « الواو » في قوله ﴿ وما تعبدون ﴾ للعطف على اسم إن ، أو بمعنى مع . و « ما » موصولة أومصدرية . و « ما » في قوله : ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ نافية والضمير في « عليه » يعود على الله - عز وجل - والجار والمجرور متعلق « بفاتنين » . والمراد بالفتن : هنا الإفساد ، من قولهم : فلان فتن على فلان خادمه . إذا أفسده . وجملة « ما أنتم عليه بفاتنين » خبر إن .

و « صال » - بكسر اللام - اسم فاعل منقوص - كقاض - مضاف إلى ما بعده . وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .

والمعنى : إذا أدركتم - أيها المشركون - ما قلناه لكم . فثقوا أنكم أنتم وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله - تعالى - لكنكم تستطيعون أن تضلوا من كان من أهل الجحيم مثلكم .

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، الاستخفاف بالمشركين وبآلهتهم ، وبيان أن من هداه الله ، تعالى - لا سلطان لهم عليه في إغوائه أو إضلاله .

قال صاحب الكشف : والضمير في « عليه » لله - تعالى - ومعناه : فإنكم ومعبودكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .

فإن قلت : كيف يفتنهم على الله ؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم .

من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها وخيبتها عليه ..^(١) .
ثم بين - سبحانه - أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله - تعالى - وبمداومتهم
على عبادته وتسبيحه فقال : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن
المسبحون ﴾ .

أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة لله - تعالى - وقالوا : وما منا أحد إلا له مقام
معلوم في عبادة الله - تعالى - وطاعته ، وإنا لنحن الصافون أنفسنا في مواقف العبودية
والطاعة لله - عز وجل - وإنا لنحن المسبحون والمنزهون له - تعالى - عن كل مالا
يليق به .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله - ﷺ - قال يوما
لجلسائه : « أظت السماء وحق لها أن تتط - أى سمع لها صوت شديد - ليس فيها موضع قدم
إلا عليه ملك راكم أو ساجد ، ثم قرأ : ﴿ وإنا لنحن الصافون : وإنا لنحن
المسبحون ﴾^(٢) .

ثم أخبر - سبحانه - عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله - ﷺ - فقال :
﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكننا عباد الله المخلصين . فكفروا به
فسوف يعلمون ﴾ .

و « إن » في قوله ﴿ وإن كانوا .. ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف .
والقاتلون هم كفار مكة ، والفاء في قوله ﴿ فكفروا به ﴾ وهى الفصيحة الدالة على محذوف
مقدر .

والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم ، أنهم كانوا يقولون قبل مجيء الرسول - ﷺ -
إليهم « لو أن عندنا ذكرا من الأولين » أى : لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين كالنوراة
والإنجيل . لكننا عباد الله المخلصين أى : لكننا بسبب وجود هذا الكتاب من عباد الله الذين
يخلصون له العبادة والطاعة .

فجاءهم محمد - ﷺ - بالكتاب المبين كما تمنوا وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ،
فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر ، ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ،
ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾^(٣) .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٨ .

(٣) سورة الصنكيوت الآية ٥٥ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره ، وبتسليية النبي - ﷺ - عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ
جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِزَّازِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ
صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

والمراد بكلمتنا في قوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا .. ﴾ ما وعد الله - تعالى - به رسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم .

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ^(١) وقوله - سبحانه - ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ^(٢) .

أى : والله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ . على أعدائهم ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ لمن عاداهم وناوَاهم .

وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم في بعض المواطن - كيوم أحد مثلا - لأن هذه الهزيمة إنما هي لون من الابتلاء الذي اقتضته حكمة الله - تعالى - ليميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر في النهاية فهو للمؤمنين وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، بعد أن جاهد النبي - ﷺ - وأصحابه وهزموا

(١) سورة غافر آية ٥١ .

(٢) سورة المجادلة آية ٢١ .

الكافرين ، ولم يفارق الرسول - ﷺ - هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالإعراض عن المشركين ، وبالصبر على أذاهم ، فقال : ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أى : فأعرض عنهم إلى الوقت الذى يأذن الله لك فيه بقتالهم ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ أى : وانظر إليهم وراقبهم عندما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون هم ذلك فى دنياهم وفى آخرتهم .

والأمر بمشاهدة ذلك : إشعار بأن نصره - ﷺ - عليهم ، آت لا ريب فيه حتى لكأنه واقع بين يديه ، مشاهد أمامه .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ للتوبيخ والتأنيب .
أى أبلغ الجهل وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا .
عن ابن عباس - رضى الله عنها - أن المشركين قالوا للنبي - ﷺ - : يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به ، فنزلت هذه الآية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم هذا العذاب الذى استعجلوا نزوله فقال ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ .
والساحة فى الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكونون فيها والمخصوص بالذم محذوف .

أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين . فبئس الصباح صباحهم . ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة ، وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه فى الغالب .

أخرج الشيخان عن أنس ، رضى الله عنه . قال : صبح رسول الله - ﷺ - - خير ، فلما خرجوا بفتوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا يقولون : محمد والله ، محمد والخميس -
أى : والجيش فقال - ﷺ - : « الله أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

ثم كرر - سبحانه - تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتبرون فقال : ﴿ وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ أى : وأعرض عنهم حتى حين ، وأبصر ما توعدناهم به من عذاب أليم ، فسوف يبصرون هم ذلك .

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ أى . تنزه وتقدس ربك - أيها الرسول الكريم - عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته .

وقوله ﴿ رب العزة ﴾ بدل من ربك : أى هو صاحب العزة والغلبة والقوة التى لا يقف أمام قوتها شىء والتى لا يملكها أحد سواه .

﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أى : وسلام وأمان وتحية منا على المرسلين ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أى : والثناء الكامل لله - تعالى - رب العالمين جميعا وخالقهم ورازقهم ، ومحبيهم ومحبتهم .

وبعد فهذا تفسير لسورة الصافات ، نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفور ربه
د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر
الأربعاء : ٢٠ من ذى القعدة ١٤٠٥ هـ
٧ / ٨ / ١٩٨٥ م

نفسیر سُورَةُ صَّٰمٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة « ص » هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد سورة « القمر » وهي من السور المكية الخالصة . ويقال لها سورة « داود » .

قال الآلوسی : هي مكية - كما روى عن ابن عباس وغيره - وهي ثمان وثمانون آية في المصحف الكوفي . وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي ... وهي كالمتمة لسورة الصافات التي قبلها ، من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء ، كداود وسليمان ... «^(١)» .

٢ - وقد افتتحت سورة « ص » بقسم من الله - تعالى - بالقرآن الكريم ، على صدق الرسول - ﷺ - ، فيما يبلغه عن ربه .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المشركون فيما بينهم ، لإنكار نبوة النبي - ﷺ - ، ولإنكار يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، ورد عليهم بما يثبت جهلهم وغفلتهم واستكبارهم عن قبول الحق ..

قال - تعالى - : ﴿ وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب . أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب . أم لهم ملك السموات والأرض وما بينها فليرتقوا في الأسباب ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى تسليية الرسول - ﷺ - عما لحقه منهم من أذى وكيد ، فحكى له أن أقوام الرسل السابقين قد قابلوا رسلهم بالكذب ، وأمرته بالصبر على جهالاتهم ، وسأقت جانباً من قصة داود - عليه السلام - فذكرت بعض النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه ، كما ذكرت ما دار بينه وبين الخصوم الذين تسوروا عليه المحراب . قال - تعالى - : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط

(١) تفسير الآلوسی ج ٢٣ ص ١٦٠ .

وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق . وقالوا ربنا عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب . اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ...

٤ - وبعد هذا الحديث الذى فيه شيء من التفصيل عن وجوه النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عبده داود ، وعن لون من ألوان الامتحانات التى امتحنه - تعالى - بها ، وعن الإرشادات الحكيمة التى أرشده الله - عز وجل - إليها ...

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - أنواعًا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، وبين أن حكمته قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والفجار .

قال - تعالى - : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

٥ - ثم أتى - سبحانه - بعد ذلك على نبيه سليمان - عليه السلام - وبين بعض النعم التى منحها له ، كما بين موقفه مما اختبره - تعالى - به ...

قال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص ﴾ .

٦ - ثم مدح - سبحانه - نبيه أيوب - عليه السلام - على صبره ، وعلى كثرة تضرعه إلى ربه ، وكيف أنه - تعالى - قد كافأه على ذلك بما يستحقه .

قال - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحث ، إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب ﴾ .

٧ - ثم أتى - سبحانه - على أنبيائه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل واليسع وذا الكفل ، وبين ما أعد لهم ولأمثالهم من عباده الأخيار ، كما بين ما توعد به الفجار من عذاب أليم ..

قال - تعالى - : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب . جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاق . هذا ، وإن للطاغين لشر مآب ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن قصة آدم وإبليس وكيف أن الملائكة جميعاً سجدوا لآدم إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله - تعالى - .

٩ - ومن هذا العرض المجلل لسورة « ص » نرى أنها قد اهتمت اهتماماً واضحاً ، بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وعلى صدق النبي - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن يوم القيامة حق ، كما اهتمت بحكاية شبهات المشركين ثم الرد عليها ، كما ذكرت جانباً من قصص بعض الأنبياء ليعتبر بقصصهم كل ذى عقل سليم ، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

الخميس ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ٨ / ٨ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②
 كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ ذَاوِلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَعِجِبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ④
 أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّا هَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ ⑤ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ
 مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ⑦ أَمْ نَزَّلَ
 عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ
 ⑧ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُمْ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑩
 جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ⑪

سورة « ص » من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن بينا بشيء من التفصيل آراء العلماء في هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسور البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك ، أو في الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله . فعبزوا وانقلبوا خاسرين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

والواو في قوله - تعالى - : ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ للقسم . والمقسم به القرآن الكريم . وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .

والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أى : صاحب شرف ونباهة . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لِقَوْمَك ﴾ .

ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس في دينهم ودنياهم .

وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن الكريم ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف العظيم ، وذى التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم .. إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق في كل ما تبلغه عن ربك ولم يصدر منك إطلاقا ما يخالف الحق الذى أمرناك بتبليغه للناس .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا في تعيين الشيء الذى أقسم الله - تعالى - عليه في قوله : ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ .

فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أو قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أو قوله - تعالى - : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ ..

والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .

وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا في تقديره ، فقال صاحب الكشاف : التقدير : « وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ » إنه لمعجز . وقدره ابن عطية فقال : والتقدير : وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ليس الأمر كما يقول الكفار..^(١) .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٨ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .

والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن اتباع الحق ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ ^(١) .
وليس المراد بها القهر والغلبة كما في قوله - تعالى - : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ^(٢) .

وأصل الشقاق : المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منها في شق غير الذي فيه الآخر . والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبي - ﷺ - .
والمعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف وسمو القدر . إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن ربك ، ولست كما يقول أعداؤك في شأنك . بل الحق أن هؤلاء الكافرين في حمية واستكبار عن قبول الهداية التي جنتهم بها من عند ربك ، وفي مخالفة ومعارضة لكل مالا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام ، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة .
والتعبير بفي في قوله ﴿ في عزة وشقاق ﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق ، قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظرف بالمظروف .

ثم خوفهم - سبحانه - بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون مصيرهم كمصير المكذابين السابقين فقال : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ .

« وكم » هنا خبرية . ومعناها : الإخبار عن عدد كثير . وهي في محل نصب على أنها مفعول به لأهلكنا .

وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم . و« من » في قوله ﴿ من قبلهم ﴾ لا ابتداء الغاية ، وفي قوله : ﴿ من قرن ﴾ مميزة لَكُمْ . والقرن : يطلق على الزمان الذي يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته - على الراجح - مائة سنة والمراد به هنا أهل الزمان .
والمراد بالنداء في قوله - تعالى - : ﴿ فنادوا ﴾ الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب .

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٦ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٨ .

﴿لات﴾ هي لا المشبهة بليس - وهذا رأى سيبويه - فهي حرف نفى زيدت فيه التاء لتأكيد هذا النفي .

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس ، وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة ، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف المرفوع منها وإثبات المنصوب .

والحين : ظرف مبهم يتخصص بالإضافة .

وقوله : ﴿مناص﴾ مصدر ميمي بمعنى الفرار والخلاص . يقال : ناص فلان من عدوه - من باب قال - فهو ينوص نوصا ومناصا ، إذا فر منه ، وهرب من لقائه . أو بمعنى النجاة والفوت . يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه .

والمراد بقوله - تعالى - : ﴿أهلكنا﴾ الشروع في الإهلاك بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿فنادوا﴾ إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى .

والمعنى : إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا ، قد علموا أننا أهلكنا كثيرا من السابقين أمثالهم ، وأن هؤلاء السابقين عندما رأوا أمارات العذاب ومقدماته ، جأروا إلينا بالدعاء أن نكشفه عنهم ، واستغاثوا استغاثة جاءت في غير وقتها ، ولقد قلنا لهم عندما استغاثوا بنا عند فوات الأوان : ﴿ولات حين مناص﴾ .

أى : ليس الوقت الذى استغثتم بنا فيه وقت نجاة وفرار من العقاب ، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم ، بعد أن تماديتم في كفركم ، وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ..﴾^(١) .

وقوله - سبحانه - : ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾^(٢) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من أكاذيب المشركين الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال : ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾ ..

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ - ٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤ - ٦٥ .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من قريش اجتمعوا في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب ، لنكلمه في شأن ابن أخيه ... فلما دخلوا على أبي طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكيف عن شتم أهلكنا ، و ندعه وإلهه .

فقال أبو طالب للنبي - ﷺ - يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم أهلكنا ويدعوك وإلهك .

فقال - ﷺ - : « ياعم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم . »

فقال أبو جهل من بين القوم : ما هى وأبيك ؟ لنعطيناك لك عشرة أمثالها ، فقال - ﷺ - : « تقولون : لا إله إلا الله . »

فنفر أبو جهل وقال : سلنا غير هذا .

فقال - ﷺ - : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ، ما سألتكم غيرها . » فقاموا غضابا . وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ وعجبوا ... ﴾ مأخوذ من العجب ، وهو تغير في النفس من أمر لا ترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجيء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك . ويأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده .

﴿ وقال ﴾ هؤلاء ﴿ الكافرون ﴾ عندما دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الدين الحق . ﴿ هذا ساحر كذاب ﴾ أى : قالوا : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .

وقال - سبحانه - : ﴿ وقال الكافرون ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم . وللايدان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول - ﷺ - بما هو منزّه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها في البطلان والفساد . فقالوا - كما حكى القرآن - : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ .

والاستفهام للإنكار . أى : أجعل محمد - ﷺ - الآلهة المتعددة ، إلهًا واحدًا .. وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة ؟ .

﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ أى : إن هذا الذى طلبه منا ، ودعانا إليه ، لشيء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجازة ما يقبله العقل .

﴿ عجاب ﴾ أبلغ من عجيب . لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد العقول فى الطول : هذا رجل طوال . فلفظ ﴿ عجاب ﴾ صيغة مبالغة سباعية ، وقد حكاها - سبحانه - عنهم للإشعار بأنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول - ؛ - هو شيء قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة .

واسم الإشارة يعود إلى جعله - ﷺ - الآلهة إلهًا واحدًا ، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام . وما كان مخالفًا لما ورثوه عن آبائهم فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب .

ثم صور - سبحانه - حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق . تصويرًا بديعًا ، فقال : ﴿ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ .

أى : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد أن سمعوا من الرسول - ﷺ - ما أغضبهم وخيب آمالهم .

انطلقوا يقولون : أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آبؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هوّن محمد - ﷺ - من شأنها ، ومهما نهى عن عبادتها .

﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ أى : إن هذا الذى يدعونا إليه محمد - ﷺ - من عبادة الله تعالى - وحده وترك عبادة آلهتنا لشيء يراد من جهته هو ، وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا . وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبى - ﷺ - من عبادة الله وحده .

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين الذى نحن عليه لشيء يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، ومادام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرهنا فيه محمد - ﷺ - .

قال الألوسى : قوله : ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى

ما وقع وشاهدوه من أمر النبي - ﷺ - وتصلبه في أمر التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ..
 أى : إن هذا لشيء عظيم يراد من جهته - ﷺ - إمضاؤه وتنفيذه . فاقطعوا أطباعكم
 عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم . وقيل : إن هذا الأمر لشيء من
 نواب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر .

وقيل : إن هذا - أى : دينكم - يُطلب لينتزع منكم وي طرح ويراد إبطاله ..^(١) .
 ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ... ﴾ أى : ما سمعنا بهذا
 الدين الذى يدعوننا إليه محمد - ﷺ - في ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا ، أو ما سمعنا
 بهذا الذى يقوله محمد - ﷺ - في الملة الآخرة ، وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن
 أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .
 وعلى هذين القولين يكون قوله ﴿ في الملة الآخرة ﴾ متعلق بسمعنا .

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد - ﷺ - كائنا في الملة التى
 تكون في آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان وأهل الكتاب .
 وعلى هذا الرأى يكون قوله ﴿ في الملة الآخرة ﴾ حالا من اسم الإشارة وليس متعلقا
 بسمعنا .

ثم أكدوا نفيتهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول - ﷺ - بقولهم : ﴿ إن هذا إلا
 اختلاق ﴾ . أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخبرص اختلقه من
 عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .
 يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن
 يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا في نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد
 والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله من بينهم بالرسالة ، فقالوا - كما حكى القرآن
 عنهم - : ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ؟! ... ﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى . أى : كيف يدعى محمد - ﷺ - أنه قد أنزل عليه القرآن
 من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا في ذلك ؟ إنا ننكر وننفى دعواه النبوة
 من بيننا .

قال صاحب الكشف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه

الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلّ به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم^(١) .

ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبي - ﷺ - في آيات كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ... ﴾^(٢) .

ولقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبي - ﷺ - فعندما سأله سائل ، أظن محمداً على حق أم على باطل ؟ كان جوابه : إن محمداً لعلّى حق ولكن متى كنا لبني هاشم تبعاً . أى : متى كانت أسرتنا تابعة لبني هاشم !!

وفي رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل هم في شك من ذكرى ﴾ إضراب عن كلام يفهم من السياق . وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى .

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى في شأنك - أيها الرسول الكريم - وفي شأن ما جنتهم به ، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم في شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة . فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم ، وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لا يحوم حوله حق .

وفي التعبير بقوله ﴿ لما ﴾ إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول . ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه - ﷺ - للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : ﴿ أم عندهم خزائن ربك

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤

العزیز الوهاب ﴿ ١ 〉 . أى : أنهم لم يملکوا خزائن رحمة ربک - أيا الرسول الکریم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويرفعوا بها عنک .. وإنا المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزیز الذی لا یغلبه غالب - الوهاب ، أى : الکتیر العطاء لعباده .

والمراد بالعندية فی قوله ﴿ عندهم ﴾ : الملك والتصرف . وتقديم الظرف « عند » لأنه محل الإنکار . وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمیر العائد إلى النبى - ﷺ - تشریف وتکریم له - ﷺ -

وجىء بصفة « العزیز » للرد على ما كانوا یزعمونه لأنفسهم وألهتهم من ترفع وتکبر . كما جىء بصفة « الوهاب » للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن یختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث یجعل رسالته .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أم لهم ملک السموات والأرض وما بینها ... ﴾ تأکید لما أفادته الآية السابقة من عدم ملکیتهم لشیء من خزائن الله - تعالى - . أى : أن هؤلاء الکافرين لیست عندهم خزائن ربک - أيا الرسول الکریم - ولیسوا بالکین شیئا - أى شیء - من هذه العوالم العلویة أو السفلیة ، وإنا هم خلق صغیر من خلقنا العظیم الکتیر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فلیرتقوا فی الأسباب ﴾ تعجیز لهم ، وتهکم بهم ، واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو کل ما یتوصل به إلى غیره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف . والتقدير : إن کان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شیء من ملک السموات والأرض وما بینها ، فلیصعدوا فی الطرق التى توصلهم إلى ما نلکته حتى یتولوا علیه ، ویدبروا أمره ، ینزلوا الوحى على من یختارونه للنبوة من أشrafهم وصناديدهم .

فالمجملة الکریمة قد اشتملت على نهاية التعجیز لهم ، والتهکم بهم وبأقوالهم ، حیث بین - سبحانه - أنهم أذعیاء فیما یزعمون ، وأنهم یرفون بما لا یرفون .. ثم بشر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بالنصر علیهم فقال : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

ولفظ « جند » خبر لمبتدأ محذوف . و « ما » مزیدة للتقلیل والتحقیق ، نحو قولک : أکلت شیئا ما . أى : شیئا قلیلا ، وقیل : هى للتکثیر والتهویل کقولهم : لأمر ما جدع قصیر أنفه .

أى : لأمر عظيم .. وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله - تعالى - .
 « هنالك » صفة لجند ، أو ظرف لمهزوم . وهو إشارة إلى المكان البعيد .
 « مهزوم » خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل المهزَم : غَمَزُ الشيء اليابس حتى يتحطم ويُنكسر .

يقال : تهزمت القرية ، بمعنى يبيست . وتكسرت . وهُزِمَ الجيش بمعنى غلب وكُسِر .
 والمعنى : هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم - لا تهتم بأمرهم ، ولا تكثر بجمعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التي لا يقف أمامها شيء ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومقلوبون أمام قوة المؤمنين في مواطن متعددة .
 فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكثر لما به يهزون ، و« ما » مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام ... إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم . ﴿ هنالك ﴾ إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك^(١) .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت أقوال المشركين ، وردت عليها ردا يكتبهم ويزهق باطلهم ، و ختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

ثم ساق - سبحانه - جانباً مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكي يعتبر المشركون المعاصرون للنبي - ﷺ - ولكي يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ

نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ۝١٢۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ

لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣۝ إِن كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ

فَحَقَّ عِقَابُ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُهُمْ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِيْحَةٌ وَاحِدَةٌ مَّا لَهَا
مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ... ﴾ استئناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة .
ولوعد المؤمنين بالنصر . وتأنيت قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة .
أى : ليس قومك - يا محمد - هم أول المكذبين لرسولهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب
قوم نوح ، فكانت عاقبتهم الإغراق بالطوفان .

وسبقهم - أيضا - إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هودا ، فكانت عاقبتهم
الإهلاك بالريح العقيم . التى ما أتت على شىء إلا جعلته كالرميم .
وقوله : ﴿ وفرعون ذو الأوتاد ﴾ معطوف على ما قبله أى : وكذب - أيضا - فرعون
رسولنا موسى - عليه السلام - .

وقوله : ﴿ ذو الأوتاد ﴾ صفة لفرعون . والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يندق فى الأرض
لثبتي الشىء وتقويته .

والمراد بها هنا : المباني الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذين يثبتون ملكه كما ثبتت الأوتاد
البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد .

قال الآلوسى ما ملخصه : والأصل إطلاق ذى الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها ،
فشبه هنا فرعون فى ثبات ملكه .. ببيت ثابت ذى عماد وأوتاد ..

أو المراد بالأوتاد الجنود : لأنهم يقوون ملكه كما يقوى الود الشىء . أو المراد بها المباني
العظيمة الثابتة .

ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها فقد قيل إنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد
متعددة ، ويتركه مشدودا فيها حتى يموت ..^(١) .

أى : وفرعون صاحب المباني العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك الوطيد ... كذب رسولنا
موسى - عليه السلام - ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه ومن معه جميعا من جنوده
الكافرين .

وكذب - أيضا - قوم ثمود نبيهم صالحا ، وقوم لوط نبيهم لوطا ، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب . كذبوه كذلك - فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك هؤلاء المكذبين - كما قال تعالى - : ﴿ فكللا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ^(١) .

والإشارة في قوله - تعالى - : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ تعود إلى هؤلاء الأقوام المكذبين لرسولهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسولهم ، وانضم بعضهم إلى بعض في تكذيبهم ، ووقفوا جميعا موقف المحارب هؤلاء الرسل الكرام .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسولهم ، وبيان للأسباب التي أدت إلى عقاب المكذبين .

و « إن » هنا نافية ، ولا عمل لها لاتنقاض النفي بإلا . و « إلا » أداة استثناء مفرغ من أعم الصفات أو الأحكام : وجملة « كذب الرسل » في محل رفع خبر « كل » .

أى : ليس هؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن حل بهم عقابي وثبت عليهم عذابي . الذى دمرهم تدميرا .

والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب لجميع الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود تكذيب كل حزب لرسوله .

وقد جاء تكذيبهم في الآية السابقة بالجملة الفعلية « كذبت قبلهم ... » وجاء في هذه الآية بالجملة الاسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومدامتهم عليه ، وإعراضهم عن دعوة الرسل لهم إعراضا تاما .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ . بيان للعذاب المعد للمشركين المعاصرين للنبي - ﷺ - بعد بيان العقاب الذى حل بالسابقين .

والمراد بالصيحة هنا : النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور ، فىقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء .

وقيل المراد بها النفخة الأولى ، وضعف هذا القول بأنهم لن يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوا بها ..

وينظرون هنا بمعنى ينتظرون . وجعلهم - سبحانه - منتظرين للعقاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة للإشعار بتحقيق وقوعه ، وأنهم بصدد لقائه ، فهم لذلك في حكم المنتظرين له .

أى : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين من قبلهم ، ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ أى : نفخة واحدة ينفخها إسرافيل ﴿ فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ، وهذه النفخة ﴿ ماها من فواق ﴾ أى : ليس لها من توقف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق ناقة وهو الزمن الذى يكون بين الحلبتين ، أو الزمن الذى يكون فيه رجوع اللبن في الضرع بعد الحلب .

والمقصود ببيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شيء يتعلق بالبعث والجزاء .

قال الجمل في حاشيته ما ملخصه : قوله : ﴿ ماها من فواق ﴾ يجوز أن يكون قوله ﴿ لها ﴾ رافعا لقوله : ﴿ من فواق ﴾ على الفاعلية لاعتداده على النفى .
وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لصيحة ، ومن مزيدة ..

والفواق - بفتح الفاء وضمها - الزمان الذى بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع - والمعنى : ماها من توقف قدر فواق ناقة . وفى الحديث : « العيادة قدر فواق ناقة »..^(١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم ، فقال - تعالى - : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ .

والقط : النصيب والقطعة من الشيء . مأخوذ من قط الشيء إذا قطعه وفصله عن غيره . فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم .

أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون ياربنا ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أى عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب .

وتصدير دعائهم بنداء الله - تعالى - بصفة الربوبية ، يشعر بشدة استهزائهم بهذا العذاب الذى توعدهم الله - تعالى - به على لسان رسوله - ﷺ - .

ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا مع أن القائل هو النضر بن الحارث ، أو أبو جهل .. لأنهم قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله .

وقيل المراد بقوله - تعالى - : ﴿ عجل لنا قطنا .. ﴾ أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التى وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب فى الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه .

وعلى جميع الأقوال ، فالمراد ببيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه ، حيث استهزؤا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم فى الدنيا ، بعد أن سمعوا من الرسول - ﷺ - أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة ..

قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ^(١) .

وقال - سبحانه - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ ^(٢) .

ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها للرسول - ﷺ - حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له - بشيء من التفصيل - قصص بعض الأنبياء - عليهم السلام - وبدأت بقصة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الملك والنبوة قال - تعالى - :

أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ وَأَوَّابٌ ۝
إِنَّا مَخْرَجْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ ۝ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهُ وَأَوَّابٌ ۝ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثِنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ۝ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ

(١) سورة الأنفال الآية ٢٣ .

(٢) سورة الحج الآية ٤٧ .

خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٤﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنْ كَثِيرٌ أَمِنْ الْخَاطِئِ لِيَسْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
﴿٢٥﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ
﴿٢٦﴾ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سُواؤُا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

والخطاب في قوله - تعالى - : ﴿ اصبر على ما يقولون ... ﴾ للنبي - ﷺ - .
أي : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعداؤك فيك وفي دعوتك لقد قالوا
عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر .. وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين ..
وقالوا في شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن
هذا إلا اختلاق ﴾ ..

وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك - أيها الرسول الكريم -
أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذي سلكه
كل نبي من قبلك ..

وقال - سبحانه - : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ بصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة
الماضية . وللإشعار بأن ما قالوه في الماضي سيجددونه في الحاضر وفي المستقبل فعليه أن يعد

نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل ، بينه وبينهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ معطوف على جملة « اصبر » ..

وداود - عليه السلام - : هو ابن يسي من سبط « يهوذا » بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكانت ولادة داود في حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وقد منحه الله - تعالى - النبوة والملك .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذا الأيد ﴾ صفة لداود ، والأيد : القوة . يقال : آد الرجل يئيد أيّداً وإيادا ، إذا قوى واشتد عوده ، فهو أيّد . ومنه قولهم في الدعاء : أيدك الله . أى : قواك و﴿ أواب ﴾ صيغة مبالغة من آب إذا رجع .

أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم واذكر - لتزداد ثباتا وثقة - قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة في عبادتنا وطاعتنا وفي دحر أعدائنا .. ﴿ إنه أواب ﴾ أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود - عليه السلام - فقال : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق ... ﴾ .

والعشى : الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح . والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى ..

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس . وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه في أوقات العشى والإشراق .

وقال - سبحانه - ﴿ معه ﴾ للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به في ذلك .

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله - تعالى - ويقدسه وينزهه ، رددت معه ما يقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله - تعالى - إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - عز وجل - بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾^(١) .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمر منها : المخالفة لظاهر ما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بكونه بالعشى والإشراق . وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منها في كل وقت ، ولا يختص بكونه في هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتي العشى والإشراق بالذكر . للإشارة إلى مزيد شرفها ، وسمو درجة العبادة فيها .

وقوله - تعالى - : ﴿ والطير محشورة... ﴾ معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة . وهى حال من الطير . والعامل قوله ﴿ سخرنا ﴾ .

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبيح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجعلناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتعبير بقوله ﴿ محشورة ﴾ يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لفرض التسبيح معه ، حتى لكنائها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة « كل له أبواب » مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام في « له » للتعليل ، والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .

أى : كل من الجبال والطير . من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح . ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ أى : قويتنا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هبة ونصرة وقوة ..

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين

الصواب والخطأ ، ووقفناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالحرز الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾ .

والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس .

والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس ..

والخصم : أى المتخاصمين أو الخصماء . وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى المخاصمة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه فى الأصل مصدراً صح إطلاقه على المفرد والمتنّى والجمع ، والمذكر والمؤنث .. قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر .

أى : بجانبه ..

والظرف فى قوله : ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ متعلق بمحذوف . والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعّل تفيد العلو والتصعد . كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذ علا فوق سنامه .

والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبّد وذكر الله - تعالى - .

والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلّقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالساً فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدمهم ..

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فهذا نحن نقصه عليك . وقوله : ﴿ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ... ﴾ بديل مما قبله . والفزع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته .

ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة .

قال القرطبي : فإن قيل : لم فزع داود وهو نبي ، وقد قويت نفسه بالنبوة واطمأنت بالوحي ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذى ، ومنها كان يخاف .

ألا ترى إلى موسى وهارون - عليهما السلام - كيف قالوا : ﴿ إتنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ - أى : فرعون - ، فقال الله لهما : ﴿ لا تخافا إني معكما أسمع وأرى .. ﴾^(١) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٧٠ .

ثم بين - سبحانه - ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفرع ، فقال : ﴿ قالوا لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ ..

والبغى : الجور والظلم ... وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .
والشطط : مجاوزة الحد في كل شيء . يقال : شط فلان على فلان في الحكم واشتط .. إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : ﴿ خصمان ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان . والجملة استئناف معلل للنهي في قولهم : « لا تخف » . أى : قالوا لداود : لا تخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوز به إلى غيره ، ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة الى الموصوف .
ثم أخذنا في شرح قضيتيها فقال أحدهما : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى في الخطاب » .
والمراد بالأخوة هنا : الأخوة في الدين أو في النسب ، أو فيها وفي غيرها كالصحبة والشركة .

والنعجة : الأنتى من الضأن . وتطلق على أنتى البقر .
وقوله : ﴿ أكفلنيها ﴾ أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكىتى كبقية النعاج التى عندى ، لئتم عددها مائة .

وقوله : ﴿ وعزنى في الخطاب ﴾ أى : غلبنى في المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى منى .. يقال : فلان عز فلانا في الخطاب ، إذا غلبه . ومنه قولهم في المثل : من عزَّ بَرٌّ . أى : من غلب غيره سلبه حقه . أى : قال أحدهما لداود - عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى . وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعبتى وقال لى : « أكفلنيها » أى : ملكنيها وتنازل عنها « وعزنى في الخطاب » .

أى : وغلبنى في مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى .
وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ،

وعدم اعتراضه على قوله .. أمام كل ذلك . لم يلبث أن قال داود في حكمه : ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .. ﴾ .

واللام في قوله : ﴿ لقد ... ﴾ جواب لقسم محذوف .

وإضافة « سؤال » إلى « نعجتك » من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والفاعل محذوف .
أى : بسؤاله ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ لا يسأمن الإنسان من دعاء الخير ﴾ أى : من دعائه .

وقوله ﴿ نعاجه ﴾ متعلق بسؤال على تضمينه معنى الضم .

أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما ادعاه - والله إن كان ما تقوله حقا - أيها المدعى - فإن أخاك في هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

ولما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضى لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف في كل الشرائع ، وحذف ما هو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود - عليه السلام - وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب - أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : ﴿ وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ... ﴾ .

أى : قال داود للمشتكى - على سبيل التسليه له - : وإن كثيرا من الخلطاء ، أى الشركاء - جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .

﴿ ليبغى بعضهم على بعض ﴾ أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل مالا يرضى خالقهم . فالجملة الكريمة منصوبة المحل على الاستثناء ، لأن الكلام قبلها تام موجب .

وقوله : ﴿ وقليل ما هم ﴾ بيان لقلّة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم .

ولفظ « قليل » خبر مقدم و « ما » مزيدة للإيهام وللتعجب من قلتهم . و « هم » مبتدأ مؤخر .

فكانه - سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذي حق حقه ، والجملة الكريمة اعتراض تذييل .
وهذا نرى أن داود - عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ثم بين - سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ﴿ وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب ﴾ .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتاه : بمعنى امتحنه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .
أى : وظن داود - عليه السلام - أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه . وأن ذلك لون من ابتلاء الله - تعالى - له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينها بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، « وخر راكعا » أى : ساجدا لله - تعالى - وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منها انحناء وخضوع لله - عز وجل - « وأتاب » أى : ورجع داود إلى الله - تعالى - بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ فغفرنا له ذلك .. ﴾ يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنها حضرا إليه فى خصومة بينها ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله - تعالى - له .

فقوله : - تعالى - : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه .. ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أى : لقربة منا ومكانة سامية ﴿ وحسن مآب ﴾ أى : وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنة .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القويمة ، التى وجهها - سبحانه - إلى كل حاكم فى شخص داود - عليه السلام - فقال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض .. ﴾ . والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه . فهو فعيل بمعنى

فاعل . والتاء فيه للمبالغة . أى : يا داود إنا جعلناك - بفضلنا ومننتنا - خليفة ونائبنا عنا في الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدكم إلى الصراط المستقيم .

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها . أى : فغفرنا له ذلك وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض . ويصح أن تكون مستأنفة لبيان مظاهر الزلفى والمكانة الحسنة التى وهبها - سبحانه - لداود ؟ حيث جعله خليفة في الأرض .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ... ﴾ للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر . والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .
أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك فاحكم - يا داود - بين الناس بالحق الذى أرشدك الله - تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أماراة بالسوء .

وقوله - سبحانه - ﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ بيان للمصير السيئ الذى يؤدى إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

وقوله ﴿ فيضلك ﴾ منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، على أنه جواب للنهى السابق . أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق الحق ، وعن مخالفة شرع الله - تعالى - ودينه .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ .

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - سمو منزلة داود - عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يتذكر ما حدث لأخيه داود . ليكون هذا التذكير تسليية له عما أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف - سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه - سبحانه - قد وهبه نعمًا عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - حيث قال

- سبحانه - : ﴿ وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَزَلْفَى وَحَسَنَ مَأْبٌ ﴾ . وببيان أنه - تعالى - قد جعله خليفة في الأرض .

ومن الأحاديث التي وردت في فضله - عليه السلام - ما أخرجه البخاري في تاريخه أن رسول الله - ﷺ - كان إذا ذكر داود ، وحدث عنه قال : « كان أعبد البشر » . وأخرجه الديلمي عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - « لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود » .

٢ - أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس في شأن غنم لها ، وأنها حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التي حكاها القرآن الكريم ، فزع منها داود - عليه السلام - وظن أنها يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث .

فلما تبين لداود بعد ذلك أن الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه في مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله - تعالى - له ..

والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا في تأييد هذا المعنى . قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : والذى أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يقتالونه ، إذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ... وأن ما ظنه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه ، وخر ساجدا منيبا إلى الله - تعالى - فغفر الله له ذلك الظن ، ولذلك أشار بقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم في شيء منها ، ضرورة أننا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نتق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله - تعالى - في كتابه . ير على ما أراده - تعالى - ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة ، طرخناه ..^(١) .

٢ - ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبي حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ، ومع ثناء الله - تعالى - عليه وتكريمه له .

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا في نهاية النكارة ، وأقوالا في غاية البطلان والفساد .

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكنوبة ملخصها : « أن داود - عليه السلام - كان يصلى في محرابه .. ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه « أوريا » وأنه خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء .. فأمر داود - عليه السلام - قائد الجيش أن يجعله في المقدمة لكي يكون عرضة للقتل .. وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة ..^(١) »

ونرى صاحب الكشف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله : « فهذا ونحوه مما يقيح أن يُحدَّث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء .. » نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل « أوريا » وإنما سألته أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها .. أو أنه خطبها بعد أن خطبها « أوريا » . فأثر أهلها داود على « أوريا » .

قال صاحب الكشف : كان أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها .. فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له « أوريا » . فأحبها ، فسألته النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان - عليه السلام - .. وقيل : خطبها « أوريا » ثم خطبها داود فأثر أهلها داود على أوريا..^(٢) .

والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها ..

ينكرها النقل : لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكنوبة .

قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ..^(٣) .

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٣ ص ٩٣ ، وتفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٦١ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ٨٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٥١ .

وقال السيوطي : القصة التي يحكونها في شأن المرأة وأنها أعجبتة ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفي إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف - عن ابن صخر ، عن زيد الرقاشي ، وهو ضعيف ..

وقال البقاعي : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود - وقد أخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجلوا سبيلا إلى الطعن فيه ^(١) .

إذا فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن روايتها معروفون بالضعف . وبالنقل عن الإسرائيليات :

ويروى أن الإمام عليا - رضى الله عنه - قال : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة ، وهو حد القرية على الأنبياء » ^(٢) .

وهي غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح في أول الآيات وفي آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق . أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء . هو داود - عليه السلام - . الذي مدحه الله - تعالى - بالقوة في دينه . وبكثرة الرجوع إلى ما رضى الله - تعالى - ، وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب . وبأن له عند ربه « زلفى وحسن مأب » .

والخلاصة : أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة . لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل . بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا . لأنه يتناقى مع عصمة الأنبياء . الذين صانهم الله - تعالى - من ارتكاب ما يخذش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : « ما حكاه الله - تعالى - عن داود قول صادق صحيح . لا يدل على شيء مما قاله المستهزون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذلك الخصم قوما من بني آدم بلاشك . مختصمين في نجاج من الغنم .

(١) راجع تفسير القاسمي ج ١٤ ص ٥٠٨ .

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨١ .

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء . فقد كذب على الله - تعالى - ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه .. لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ فقال هو : لم يكونوا خصمين . ولا بغى بعضهم على بعض . ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعمة . ولا كان للآخر نعمة واحدة ولا قال له : ﴿ أكفلنيها ... ﴾^(١) .

٤ - هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات . منها : أن استغفار داود - عليه السلام - إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة التي جعلت داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .. » فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الخصم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل^(٢) .

والذي نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود - عليه السلام - الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأوليائه ، أن لا يحكم القاضي بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهما جميعاً ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه ؟ .

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم . ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا . وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ..^(٣) .

ومنهم من يرى ، أن استغفار داود - عليه السلام - كان سببه : أن قوماً من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه القصد قتله وجدوا عنده أقواماً . فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام

(١) راجع تفسير القاسمي جـ ١٤ ص ٥٠٨٩ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي جـ ٧ ص ١٨٢ .

(٣) تفسير الكشف جـ ٤ ص ٨٧ .

منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه مما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام^(١) .

وهذا القول - وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا أن الرأى الذى سقناه سابقا ، والذى ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات . وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر ، واستغفار داود - عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولايذاته ، وأن هذا ابتلاء من الله - تعالى - ابتلاء به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقتضى بينهم في خصومة ، فاستغفر ربه من ذلك الظن . فغفر الله - تعالى - له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، في تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين اختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته . وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - لتدبير آياته ، والعمل بتوجيهاته فقال - تعالى - :

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

والمراد بالباطل في قوله - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ... ﴾ العيث واللغو واللعب وما يخالف الحق ، والجمله الكريمة مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل . وقوله ﴿ باطلا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله . أى : وما خلقنا - بقدرتنا التي لا يعجزها شيء - السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ... ما خلقنا ذلك خلقا باطلا لا حكمة فيه ، أو ما خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل والصواب .

وإنما خلقنا هذا الكون خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ، وعلى المصالح الجمعة والأسرار البليغة ، والمنافع التي لا يحصيها العد ، والهيئات والكيفيات التي تهدي من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ... ﴾ يعود إلى ما نفاه - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما بينهما على سبيل اللغو والعيث .
أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة .. ولكن الذين كفروا هم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا هذه الكائنات من أجل الباطل واللغو واللعب .. وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم ، كفرهم بالحق ، وجحودهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وإعراضهم عما جاءهم به الرسول - ﷺ - من هدايات وإرشادات .

وقوله - تعالى - : ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ بيان للعاقبة السيئة التي حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد .. فالفاء : للتفريع على ظنهم الباطل والويل : الهلاك والدمار .
﴿ من ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية .

أى : القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة ، هو ظن واعتقاد الذين كفروا وحدهم ، ومادام هذا مظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار التي نسلطها عليهم فتحرق أجسادهم ، وتجعلهم يذوقون العذاب المهيّن .

وقال - سبحانه - ﴿ فويل للذين كفروا ... ﴾ بالإظهار في مقام الإضمار ، للإشعار بعلية صلة الموصول للحكم أى : أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم .

وقال - سبحانه - : ﴿ فويل للذين كفروا ﴾ ولم يقل للذين ظنوا للإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا ، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت استحالة المساواة بين الأخيار والفجار ، فقال

- تعالى - : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .

و « أم » في الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى . والإضراب هنا انتقالى من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثا إلى تقرير استحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين .

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك اقتضت حكمتنا وعدالتنا .. استحالة المساواة - أيضا - بين المتقين والفجار .

وذلك لأن المؤمنين المتقين ، قد قدموا لنا في دنياهم ما يرضينا ، فكافأناهم على ذلك بما يرضيهم ، ويسعدهم ويشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة خالدين في جنات النعيم . أما المفسدون الفجار ، فقد قدموا في دنياهم ما يفضينا ويسخطنا عليهم ، فجازيناهم على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير .

وربك - أيها العاقل - « لا يضيع أجر من أحسن عملا » « ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

فالمقصود بالآية الكريمة إعلان استحالة التسوية في الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، لأن التسوية بينها ظلم ، وهو محال عليه - تعالى - ، وما كان البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ومن الآيات التى تشبه في معناها هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون ﴾ (١) .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله - ﷺ - وبين حكمة إنزاله ، فقال : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ . وقوله : ﴿ كتاب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف . والمقصود به القرآن الكريم .

أى : هذا كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ بقدرتنا ورحمتنا - أيها الرسول الكريم ، ومن صفاته أنه ﴿ مبارك ﴾ أى : كثير الخيرات والبركات ..

وجعلناه كذلك ﴿ ليدبروا آياته ﴾ أى ليتفكروا فيها اشتملت عليه آياته من أحكام

حكيمة ، وأداب قويمه ، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ..
 ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ أى : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما جاء فيه من قصص
 وعبر عن السابقين ، كما قال - سبحانه - : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب
 ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفضيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم
 يؤمنون ﴾ (١) .

ثم ذكر - سبحانه - جانبا من قصة سليمان - عليه السلام - فمدحه لكثرة رجوعه إلى
 الله ، وذكر بعض النعم التي منحها إياه ، كما ذكر اختباره له . وكيف أن سليمان - عليه
 السلام - طلب من ربه المغفرة والملك ، فأعطاه - سبحانه - ما طلبه . قال - تعالى - :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ
 ﴿٢٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَيَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾
 رُدُّوهُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
 سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَاءَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
 لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾
 فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرٍ مِنَّا حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ
 كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٢٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا
 عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنُ

مَنَابٍ ﴿٤٠﴾

في هذه الايات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيها كلاما غير مقبول .
 أما المسألة الأولى فهي مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به .

وأما المسألة الثانية فهي مسألة المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان .. ﴾ .

وسنسير في تفسير هذه الآيات على الرأي الذى تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التى قيلت في هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منه ، فنقول - وبالله التوفيق - :

المخصوص بالمدح في قوله - تعالى - : ﴿ نعم العبد ﴾ محذوف ، والمقصود به سليمان - عليه السلام - . أى : ووهبنا - بفضلنا وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليها السلام - ونعم العبد سليمان في دينه وفي خلقه وفي شكره لخالقه - تعالى - .

وجملة « إنه أواب » تعليل لهذا المدح من الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - أى : إنه رجاع إلى ما يرضى الله - تعالى - مأخوذ من أب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها . و « إذ » في قوله : ﴿ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ﴾ منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و « عليه » متعلق بعرض و « العشى » يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار . وقيل إلى مطلع الفجر .

والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذى يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .

والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جُودةً فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر .. أى : اذكر - أيها العاقل - ما كان من سليمان - عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل . السريعة العدو ..

قال صاحب الكشف : فإن قلت . ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون لا يكاد يوجد في الهجن ، وإنما هو في - الخيل - العرب الخالص وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها ..^(١)

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه ، فقال - تعالى - : ﴿ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ .

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ . والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لتعلق الخير بها ، روى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ».

﴿ عن ﴾ هنا تعليلية . والمراد بـ ﴿ ذكر ربى ﴾ طاعته وعبادته والضمير في قوله ﴿ حتى تواتر ﴾ يعود إلى الخيل الصافنات الجياد ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إني أحببت استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال في سبيل الله ، حتى تواتر واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية ﴿ ردوها على ﴾ أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد على مرة أخرى ، لأزدد معرفة بها ، وفيها لأحوالها .. والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق . و « طفق » فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان . و « مسحاً » مفعول مطلق لفعل محذوف . والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد على ، فردوها عليه ، فأخذ في مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هى عليه من قوة هو في حاجة إليها للجهاد في سبيل الله - تعالى - .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان - عليه السلام - جلس يوما يستعرض خياله ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ في ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قرابة الله - تعالى - .

فهم يرون أن الضمير في قوله - تعالى - ﴿ حتى تواتر بالحجاب ﴾ يعود إلى الشمس . أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله - تعالى - ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ الشروع في ضرب

سوق الخيل وأعتاقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

قال الجمل : ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعتاق ﴾ أى : جعل يضرب سوقها وأعتاقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين^(١) .

ولم يرتض الإمام الرازى - رحمه الله - هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين ، وإنما ارتضى أن الضمير فى ﴿ توارت ﴾ يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعتاق ﴾ الإعجاب بها والمسح عليها بيده حباً لها ..

فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان - عليه السلام - احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها . وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله : ﴿ عن ذكر ربى ﴾ . ثم إنه - عليه السلام - أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعتاقها . والغرض من ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو ... وإظهار أنه خير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعتاقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ..^(٢) .

وقال بعض العلماء نقلاً عن ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة .. قد جمعت أفانين من القول ؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها . وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل . ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها ..

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابتها .

ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها وأعتاقها بيده ، براها ، وإكراماً لها ، هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكره من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة ..^(٣) .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٩٢ فقد أفاض وأجاد فى تفسيره للآيات .

(٣) راجع تفسير القاسمى جـ ١٤ ص ٥١٠١ .

والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر ، وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها .. لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم ..

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازي والإمام ابن حزم ، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى - : ﴿ فطلق مسحا بالهوق والأعناق ﴾ إنما هو تكريمها ..

وأن الضمير في قوله : ﴿ حتى توارت ﴾ يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور . ثم تحدث الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب .. ﴾ .

وقوله : ﴿ فتنا ﴾ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اخترته لتعلم جودته ..

قال الألوسي : وأظهر ما قيل في فتنة سليمان - عليه السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله . فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرها عن أبي هريرة مرفوعا ، وفيه : « فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا » .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين . وأن الملك قال له : قل إن شاء الله ، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ..

والمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولدته له . ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه ليراه^(١) .

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : « تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله » على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة في سبيل الله .

ومعنى « فلم يقل » أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه ، إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك « رب اغفر لى ... » .

وقوله : « لأطوفن الليلة ... » كناية عن الجماع . قالوا : ولعل المقصود . طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بين عدة ليال .
وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هي تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه .

وهذا الرأي في تقديرنا هو الرأي الصواب في تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت في الصحيحين وفي غيرها ، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان الذي لا يترتب عليه ترك شيء من التكاليف التي كلفهم الله - تعالى - بها جائز عليهم .

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ أن الوحي مكث فترة لم ينزل على رسول الله - ﷺ - لأنه نسي أن يقول - عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيئكم على ما سألتُموني عنه غدا .^(١)

ومن العلماء من أثار عدم تعيين الفتنة التي اختبر الله - تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .
ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان ، كما يتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم . ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع . وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء ..^(٢)

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأي السابق لاستناده في استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا . وهناك أقوال أخرى ذكروها في المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذي ألقاه الله على كرسی سليمان ، وهي أقوال ساقطة ، تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم السلام - .

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذي ألقى على كرسی سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له في صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه . وقعد

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص ٤٩٨ .

(٢) راجع تفسير في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٠٠ .

ذلك الشيطان على كرسى سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .
وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال
أيها الذى قتله سليمان فى إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هى وجوارها أربعين
ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه وُلِدَ له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر
السحاب بحفظه وتغذيته . ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه
لأنه لم يعتمد عليه فى حفظ ابنه . إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التى تتنافى مع
عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . وتتنافى - أيضا - مع كل عقل سليم ، ولا
مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصص الذين يأتون بقصص ما أنزل الله بها من
سلطان^(١) .

قال أبو حيان - رحمه الله - : نقل المفسرون فى هذه الفتنة وفى إلقاء الجسد أقوالا يجب
براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من أوضاع
اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ما هى ، ولا الجسد الذى ألقاه على
كرسى سليمان .

وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال فيه : لأطوفن
الليلة على سبعين امرأة .. والجسد الملقى هو المولود شق رجل ..^(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ... ﴾
بيان لما قاله سليمان . - عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .
أى : قال سليمان - عليه السلام - يارب اغفر لى ما فرط منى من ذنوب وزلات ..
﴿ وهب لى ملكا ﴾ عظيما ﴿ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ أى : لا يحصل مثله لأحد من
الناس من بعدى ﴿ إنك أنت ﴾ يا إلهى ﴿ الوهاب ﴾ أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .
وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هى الأهم
عنده .

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على
مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية تدل على أن

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٣ ص ١٠١ . والآلوسى ج ٢٣ ص ٢٠٠ وغيرها .

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٧ ص ٣٩٧ .

طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانتتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ، ثم توسل به إلى طلب المملكة^(١) .

ولا يقال كيف طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتها إلى جانب الآخرة وما فيها من نعيم دائم ؛ لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله في الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج . وتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو البغى .. وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله - تعالى - في الأرض .

ولقد وضع الإمام القرطبي هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله - تعالى - ... ؟

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده . والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ... وحوشى سليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا . لأنه هو والأنبياء ، أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله . كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله ﴿ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ أى : أن يسأله . فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة ..^(٢) .

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده . والتسخير : التذليل والانقياد . أى : دعانا - سليمان - عليه السلام - والتمس منا أن نعطيه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه . وذللتنا له الريح ، وجعلناها متقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينت ، إلى حيث يريد أن تجرى .

وقوله : ﴿ تجرى ﴾ حال من الريح . وقوله ﴿ بأمره ﴾ من إضافة المصدر لفاعله . أى : بأمره إياها . ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - في آية أخرى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ... ﴾^(٣) لأن المقصود من الآيتين بيان أن

(٣) سورة الأنبياء الآية ٨١

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٩٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٤ .

الريح تجرى بأمر سليمان ، فهي تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفي كلتا الحالتين هي تسير بأمره ورغبته .

وقوله : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره .. وسخرنا له الشياطين . بأن جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المباني العظيمة التي يطلبها سليمان منهم . ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التي اشتملت عليها البحار .
وقوله - سبحانه - : ﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ معطوف على كل بناء ، داخل معه في حكم البذل من الشياطين .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البنّاءون ، وكان منهم الغواصون ، وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .
فمعنى « مقرنين » : مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود . والأصفاد : جمع صَفَد وهو ما يوثق به الأسير من قيد وغُلّ .

ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف في هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان - عليه السلام - وقلنا له : هذا عطاؤنا لك ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أى : فأعط من شئت منه . وأمسك عن شئت . فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ولا على المنع .

ثم بين - سبحانه - ما أعدّه لسليمان - عليه السلام - في الآخرة ، فقال : ﴿ وإن له عندنا ﴾ أى في الآخرة ﴿ لزلفى ﴾ لقربى وكرامة ﴿ وحسن مآب ﴾ أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أيوب - عليه السلام - فذكرت ندائه لربه ، واستجابة الله - تعالى - له وما وهبه من نعم جزاء صبره ، فقال - تعالى - :

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾

وَحْذِيْدِكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهٖ وَلَا تَحْنُثْ اِنَّا وَجَدْنٰهُ صَابِرًا

نَعَمْ الْعَبْدُ اِنَّهٗ دَاوَابٌ ﴿٤٤﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن قصة أيوب هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا من أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان من خصه الله بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار .

فكان الله - تعالى - يقول لنبيه - ﷺ - : اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكروه .. (١) .

وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص بن يرزاح ، وينتهي نسبه إلى إسحاق بن ابراهيم - عليهما السلام - وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف - عليهما السلام - . وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد .. فابتلى في ماله وولده وجسده ، وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافأه الله - تعالى - على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ واذكر عبدنا أيوب ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ واذكر عبدنا داود ... ﴾ .

و « النَّصَب » - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع - بضم النون والصاد : - التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبني الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه . والعذاب : الآلام الشديدة التي يحس بها الإنسان في بدنه . أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام - حين دعا ربه - تعالى - فقال : يارب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التي حلت بجسدى فجعلتنى في نهاية التعب والمرض .

وجمع - سبحانه - في بيان ما أصابه بين لفظي النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التي كانت بين يديه ، وهو

ما يشير إليه لفظ « النصب » والألم الكثير الذى حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ،
والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ « العذاب » ..

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأديبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن
ينسب الشر إليه - سبحانه - ، وإن كان الكل من خلق الله - تعالى - .

وفى هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ اكتفى فى تضرعه بشرح
حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئا معينا ، أو يطلب
شيئا معينا .

قال صاحب الكشف : ألفت أيوب - عليه السلام - فى السؤال حيث ذكر نفسه بما
يوجب الرحمة .. ولم يصرح بالمللوب .

ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مشيت
جرذان - أى فئران - يبيتى على العصا !! فقال لها : ألفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلها شب
وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا^(١) ..

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى
الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن
أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد
تمزق^(٢) .

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله - تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المتفرة ، التى
تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية ..

والذى يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى
مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر ، فكانت عاقبة
صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ حكاية لما قيل له بعد
ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله ﴿ نادى ﴾ .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) راجع على سبيل المثال تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ٣٠٦ ، والقرطبى ج ١٥ ص ٢٠٨ .

وقوله : ﴿ اركض ﴾ بمعنى الدفع والتحريك للشيء . يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .

والمغتسل : اسم للمكان الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .
وقوله : ﴿ هذا مفتسل ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه الى الدواء ، بأن قلنا له : « اركض برجلك » أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء ، فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء .

ثم بين - سبحانه - أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى - : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله . ووهبنا له ﴿ مثلهم معهم ﴾ أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفافه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله ﴿ رحمة منا ﴾ أى من أجل رحمتنا به ﴿ وذكرى لأولى الألباب ﴾ أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجأوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ الجمهور على أنه - تعالى - أحياء له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم ، وقيل - وإليه أميل - وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا^(١) .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على عبده أيوب فقال : ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ اركض ﴾ أو على ﴿ وهبنا ﴾ بتقدير :
وقلنا له .

والضغث في اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس . وقيل : هي قبضة
من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .
والحنث : يطلق على الإثم وعلى الخلف في اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب
يؤدى إلى حنثه في يمينه ، أى : إلى عدم وفائه فيما حلفه عليه ، فنهاه الله - تعالى - عن الحنث
في يمينه ، وأوجد له المخرج الذى يترتب عليه البر في يمينه دون أن يتأذى المضروب بأذى
يؤله .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى الصواب ،
أن أيوب أرسل امرأته في حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برىء من مرضه ليضربها
مائة ضربة ، وبعد شفائه رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهى المعبر عنها بالضغث -
وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين
الرحمة بزوجته التى كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام .
والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة
صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، وبذلك
تكون غير حاث في يمينك .

هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة . أهى خاصة بأيوب ، أم هى عامة للناس ؟ .
فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير
شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذى جاء فى الآية ؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا .
وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن
الخطاب إليه وحده . ولأن الله - تعالى - لم يبين لنا فى الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه
الضرب^(١) .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما يرضيه
- تعالى - فقال : ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

أى : إنا وجدنا عبداً أيوب صابراً على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو . إنه كثير الرجوع إلينا في كل أحواله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقَتْ لنا جانباً من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .
وبعد أن عرض - سبحانه - قصص داود وسليمان وأيوب بشيء من التفصيل . أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال - تعالى - :

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمُمْ عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ
إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ، ويعقوب . أصحاب القوة في الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية في أمور الدين .

فالأيدي مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة على سبيل المجاز - أيضاً - ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ أى : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر الأيدي من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر ، لأن عن طريقها تكون العلوم النافعة .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ يريد : أُولَى الْأَعْمَالِ وَالْفِكْرِ ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في الله ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء في حكم الزمى - أى المرضى - الذين لا يقدرّون على إعمال جوارحهم . والمسلوب العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين في دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع كونهم متمكنين منها^(١) ..

ثم بين - سبحانه - أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ... ﴾ .

ومعنى : ﴿ أخلصناهم ﴾ خالصين لطاعتنا وعبادتنا . والباء في قوله ﴿ بخالصة ﴾ للسببية . وخالصة اسم فاعل . والتتوين فيها للتفخيم ، وهى صفة لمحذوف .

﴿ ذكرى الدار ﴾ بيان لها بعد إيهامها للتفخيم . أو محلها النصب بإظهار أعنى .. أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هى .

﴿ ذكرى ﴾ مصدر مضاف لمفعوله ، وتعريف الدار للعهد . أى : الدار الآخرة . والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد - وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب - خالصين لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهيها ، لا تصافهم بخصلة خالصة من كل مالا يرضينا ، وهى تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

وقرأ نافع ﴿ بخالصة ﴾ بدون تنوين على الإضافة لذكرى . من إضافة الصفة إلى الموصوف . أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعاقبة .
أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

ثم أتى عليهم - سبحانه - بثناء آخر فقال : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ .
أى : وإن هؤلاء العباد ، لهم عندنا ممن اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، واخترناهم لتبليغ دعوتنا . ومن العباد الأخيار . أى : الذين يفضلون على غيرهم فى المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة . جمع خير - يأسكان الياء - أفعل تفضيل .

ثم أتى - سبحانه - على عدد آخر من عباده الصالحين فقال : ﴿ واذكر إسماعيل وإسحاق وإذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

وإسماعيل هو ابن إبراهيم - عليهما السلام - ، ولم يذكر فيما سبق مع أبيه ومع أخيه إسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اعتناء بشأنه ، وللإشارة إلى عراقة فى الصبر وفى تحمل الشدائد .

واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه الله - تعالى - النبوة . وكانت وفاته فى حوالى سنة ٨٤٠ ق . م ودفن بالسامرة .

وذا الكفل : هو ابن أيوب . بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقبياً بالشام . والأكثرُونَ على أنه نبي لذكره معهم .

وقيل : هو رجل صالح من بني اسرائيل . ولم يكن نبيا ، وسمى بذلك لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوقى بذلك .

والتنوين في قوله - تعالى - : ﴿ وكل من الأخيار ﴾ عوض عن المضاف إليه . أى : وكل هؤلاء العباد الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل والصلاح والصبر على الأذى . ثم عقت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرت جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات .. فقال - تعالى - :

هَذَا ذِكْرُ

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمْ الْأَبْوَابُ

﴿٥٠﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾

﴿٥٢﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أُنْزِلُ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ

الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا أُولَٰئِكَ

لِلطَّاغِينَ لَشَرِّ مَآبٍ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ هَذَا

فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَاءَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاءَ لَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسِفُ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذَتْهُمْ

سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ

النَّارِ ﴿٦٤﴾

قال الألوسي : « هذا » إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بحاسنهم « ذكر » أى : شرف لهم ... والمراد أن فى ذكر قصصهم ... شرف عظيم لهم .

أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو القرآن ، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر .

ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر : هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر فى مثل ذلك كثيرا ، وعليه ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب .. ﴾^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ بيان لما أعدده لهم - سبحانه - فى الآخرة من عطاء جزيل ، وثواب عظيم .

والمآب : اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع ، والمراد بالمتقين : كل من تحققت فيه صفة التقوى والخوف من الله - تعالى - وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لتبليغ رسالته . أى : وإن للمتقين فى الآخرة لمنزل كريم يرجعون إليه فى الآخرة . فيجدون فيه مالا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ هذا ذكر ﴾ يعود إلى ما ذكره - سبحانه - فى الآيات السابقة ، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم . والذكر : الشرف والفضل . أى : هذا الذى ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم ، وذكر جميل يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم فصل - سبحانه - ما أعدده لهم فى الآخرة من تكريم فقال : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ .

والعدن فى اللغة : الإقامة الدائمة فى المكان . يقال : عدن فلان بمكان كذا ، إذا أقام به إقامة دائمة . وجنات : بدل اشتغال من قوله : ﴿ حسن مآب ﴾ .

أى : هؤلاء المتقون أكرمناهم فى الدنيا بالذكر الحسن . ونكرمهم فى الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم . والحفاوة بمقدمهم .

﴿ متكئين فيها .. ﴾ أى : فى تلك الجنات . وانتصب لفظ « متكئين » على الحال من ضمير « لهم » والفاعل فيه قوله ﴿ مفتحة ﴾ .

وقوله : ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ استئناف لبيان حالهم فى الجنات ، أو حال - أيضا - من ضمير « لهم » .

أى : أن المتكئين لهم جنات عظيمة . فافحة لهم أبوابها على سبيل التكريم ويجلسون فيها جلسة الأمن المطمئن المنعم ، حيث يتكئون ويستندون على الآرائك ، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة ، ومن الشراب الطيب ، فيلبى طلبهم فى الحال .

ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب ، ما بينه - سبحانه - فى قوله : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ . أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياة ، قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم . لشدة محبتهم لهم . وهن متساويات فى السن والجمال والأخلاق الكريمة .

فمعنى أتراب : أنهن متساويات فى السن والجمال والشباب . مأخوذ من التراب . لأن التراب يسهن فى وقت واحد لاحتداد مولدهن : أو من الترائب وهى عظام الصدر المتناثرة .

ثم بين - سبحانه - أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح فى الدنيا فقال : ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ليوم ﴾ للتعليل . أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعيم الجنات . هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب .

ثم ختم - سبحانه - جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لا يتقطع ولا يتقص فقال : ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .

أى : إن هذا الذى ذكرناه لكم - أيها المتقون - من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم ، هو رزقنا الدائم لكم . وليس له من نفاد أو انقطاع أو انتقاص . يقال نفذ الشيء نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ ^(١) . أى غير مقطوع .

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم . جاء الحديث عن

الكافرين وسوء مصيرهم - كما هي عادة القرآن الكريم في قرن الترغيب بالترهيب فقال - تعالى - : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ .

واسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف . أى الأمر هذا ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى : هذا للمؤمنين .

وجملة « وإن للطاغين لشر مآب » معطوفة على جملة « هذا » على التقديرين .
أى : الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - بالنسبة للمتقين ، أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود في الكفر والجحود والإعراض عن الحق ، فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنات التى فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بسعيرها ولهبها فيلقون فيها ويفترشون نارها ، وبئس هى فراشاً ومهاداً .

﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ واسم الإشارة هنا مرفوع على الابتداء ، وخبره قوله ﴿ حميم وغساق ﴾ ، وما بينها اعتراض .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية في الحرارة . والغساق : صديد يسيل من أجساد أهل النار . مأخوذ من قولهم غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقنا إذا سال منه الصديد وما يشبهه .
أى : هذا هو عذابنا الذى أعدناه لهم ، يتمثل في ماء بلغ الغاية في الحرارة ، وفي قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء كفرهم وجحودهم .

﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أى : ليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه في شكلها وفي فظاعتها وفي شدتها ، الحميم والغساق .
فقوله ﴿ وآخر ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ من شكله ﴾ صفة ، وقوله : ﴿ أزواج ﴾ خبره .
والآية الكريمة معطوفة على الآية التى قبلها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل الندم والتحسر والتقرع . فقال : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ .

والفوج : الجمع الكثير من الناس ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . يقال : قحم فلان نفسه في الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية .

أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقي في النار معهم ، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التقرع والتأنيب : ﴿ هذا فوج ﴾ أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم في

الضلال . ﴿ مقتحم معكم ﴾ أى داخل معكم النار وعلى غير اختيار منه . وإنما يساق إليها سوقاً في ذلة ومهانة .

وهنا يقول زعماء الكفر : ﴿ لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ أى : لا مرحباً ولا أهلاً هؤلاء الداخلين في النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيها مثلنا ، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئاً من حرها عنا ...

فقوله ﴿ مرحباً ﴾ مفعول به لفعل محذوف وجوبا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحباً بهم . والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكاناً رحباً بل ضيقاً ، وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : ﴿ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم .. ﴾ .
أى : قال الداخلون في النار وهم الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحباً بكم ، وإنما الضيق والمهلك لكم .

﴿ أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ أى : لا مرحباً بكم لأنكم أنتم أيا الزعماء الذين تسببتم لنا دخول النار معكم ، إذ دعوتونا في الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم .

فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار ، ويقولها الأتباع على سبيل التشفى منهم . ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ .
أى : ياربنا من كان سبباً في نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذاباً مضاعفاً في النار ، لأننا لولا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير الأليم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ (٣) .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر ، عندما يدورون بأعينهم في النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا فقال : ﴿ وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار .. ﴾ . أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون في النار مالنا لا نرى معنا في جهنم رجالاً من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم في الدنيا من الأراذل الأخساء ، لسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم .

قال القرطبي : قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد - ﷺ - يقول أبو جهل : أين

بلال ؟ أين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ، وأعجبا لأبي جهل ! مسكين أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه . وكفر هو . قال : ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلى منه أسود مظلم^(١) ثم حكى القرآن ما سألته هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما تلفتوا في النار ، فلم يجدوا أحداً من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم من الأشرار فقال : ﴿ اتخذناهم سخرى ، أم زأغت عنهم الأبصار ﴾ .

أى : إنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا ، فقالوا فيما بينهم : ما بالنا لا ترى الرجال الذين كنا نسخر منهم في الدنيا ، ألم يدخلوا معنا النار ؟ ألم دخلوها ولكن أبصارنا لا نراهم وزأغت عنهم ؟ . فهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم في النار ، وليس معهم من كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم فقراء المؤمنين .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ اتخذناهم سخرى ﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لقوله ﴿ رجالا ﴾ مثل قوله ﴿ كنا نعدهم من الأشرار ﴾ . وقرئ بهجزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسغار منهم .

وقوله : ﴿ أم زأغت عنهم الأبصار ﴾ له وجهان من الاتصال : أحدهما : أن يتصل بقوله : ﴿ مالنا ﴾ . أى : مالنا لا نراهم في النار ؟ كأنهم ليسوا فيها ، بل أزأغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها ؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنهم خفى عليهم مكانهم .

الوجه الثاني : أن يتصل بقوله : ﴿ اتخذناهم سخرى .. ﴾ على معنى أى الفعلين فعلنا بهم : الاستسغار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم ... «^(٢)» .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ يعود إلى التخاصم الذى حكى عنهم .

وقوله : ﴿ لحق ﴾ خبر إن . وقوله : ﴿ تخاصم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة بيان لاسم الإشارة ، وفي الإيهام أولاً والتبيين ثانياً مزيد تقرير له .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٤ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٠٢ .

أى : إن ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من نخاصم أهل النار فيما بينهم وتلاعنهم .. حق لا شك فيه ، وثابت ثبوتاً لا يختلف عليه عاقلان .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقَت بأبلغ بيان ما أعدّه الله - تعالى - للمتقين من ثواب ، وما أعدّه للطاغين من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلقين رسوله - ﷺ - الرد الذى يرد به على المشركين المعترضين على دعوته ، وبيان موقف إبليس من أمر الله - تعالى - له بالسجود لآدم ، وبيان ما أعدّه - سبحانه - لإبليس وجنده من عذاب . فقال - تعالى - :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِّنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَهِ أَنَّكَ أَنْذِرُ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٥﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين : إنما وظيفتي الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتي .
واقصر على الإنذار مع أنه مبشر - أيضا - لأنه المناسب لردهم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه كاهن .. إلخ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ نفى لكل شريك مع الله - تعالى - في ذاته ، أو صفاته ، أو في خلقه لهذا الكون . أي : ليس هناك من إله سوى الله - تعالى - في هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد الأحد ، القاهر فوق عباده ، الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شيء ، الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف ذاته في هاتين الآيتين بخمس صفات : تليق بذاته وبيبان أن الشرك به - سبحانه - في العبادة أو الطاعة ظلم عظيم وجهل فاضح .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يبين لهم أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بعقل أن يعرض عنه فقال : ﴿ قل هو نبي عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾ .
أي : قل - يا محمد - هؤلاء المشركين : إن ما جئتكم به من عند ربي من قرآن كريم ، ومن هدايات بها تسعدون في دنياكم وآخرتكم ، هو خير عظيم ، يجب أن تلقوا إليه أسعاكم ، وأن تهتثوا نفوسكم لقبوله .. ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود ، لفرط غفلتكم ، وشدة جهالتكم ، وقاديتكم في كفركم .

فالآية الأولى دعوة هامة لهم لكي يقلعوا عن شركهم ، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم .

ثم نفى - ﷺ - عن نفسه أن يكون عنده علم بشيء من أخبار الملائكة الأعلى ، إلا عن طريق الوحي فقال - كما حكى القرآن عنه : ﴿ ما كان لي من علم بالملائكة الأعلى إذ

يختصمون ﴿ . والمراد بالملأ الأعلى : عالم السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

قال القرطبي : الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدى . اختصموا في أمر آدم حين خلق ، فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. ﴾ وقال إبليس : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

وفي هذا بيان أن محمدًا - ﷺ - أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي ... »^(١)

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ أى : لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى . يعنى في شأن آدم ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه .. ؟^(٢) . فالآية تنفى عن الرسول - ﷺ - علم شيء من أخبار الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحي .

وجملة « إن يوحى إلى إلا أنا نذير مبين » معترضة بين إيراد اختصاصهم على سبيل الإجمال ، ثم إيراده في الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل .

و « إن » نافية . ونائب فاعل « يوحى » ضمير تقديره هو يعود على المفهوم مما سبق . وهو شأن الملأ الأعلى ، و « أنا » بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل .

أى : ليس لي من علم بما يدور في الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحي ، وهذا الوحي لا ينزل على إلا من أجل أنى رسول من عند الله - تعالى - أنذركم بما يكلفني به إنذارا واضحا بينا .

ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك في قوله : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ ، فقال : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

و « إذ » في قوله ﴿ إذ قال ربك ... ﴾ بدل من قوله ﴿ إذ يختصمون ﴾ ، لاشتغال ما في حيزها على تفصيل تلك الخصومة . وقيل : هى منصوبة بتقدير اذكر .

قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، ما يشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعاً امتثلوا لأمر الله - تعالى - ماعدا إبليس .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٠ .

والمراد بالبشر : آدم - عليه السلام - مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرية ، أى الجلد والهيئة . أى : لم يكن لى من علم بالملا الأعلى وقت اختصاصهم ، حين قال الله - تعالى - للملائكة ومعهم إبليس : ﴿ إني خالق بشرًا من طين ﴾ هو آدم - عليه السلام . فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التى هى من أمرى - ولا علم لأحد بها سوى ، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم .

ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين وصفه فى آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن المادة التى خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة .

وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته ، للإشعار بأن هذه الروح لا يملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾^(١) .

والفاء فى قوله : ﴿ فقعوا له ... ﴾ جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أى : فاسقطوا وخرّوا له حالة كونكم ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة لا يكون لغير الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - ما كان بعد ذلك فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

أى : امتثل الملائكة لأمر الله - تعالى - فسجدوا جميعاً لآدم فى وقت واحد ، إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته ، وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله - تعالى - .

قال صاحب الكشف : ولفظ « كل » للاحاطة و « أجمعون » : للاجتماع ، فأفاداً معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ، مابقى منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعاً فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات .

فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذى لا يسوغ هو السجود لغير الله على

وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم الله تعالى فيه نفسة فينهى عنه^(١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ... ﴾ .

ومذهب السلف في مثل هذا التعبير ، أن اليد - مفردة أو غير مفردة - إذا وصف الله تعالى بها ذاته ، فهي ثابتة له ، على الوجه الذى يليق بكماله ، مع تنزهه - سبحانه - عن مشابته للحوادث .

ومذهب المخلف : تأويل اليد بالقدرة أو النعمة . والتثنية في يدي ، للتأكيد الدال على مزيد القدرة في خلقه . أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع : يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدي ؟

﴿ أستكبرت أم كنت من العالين ﴾ . أى : أمتنع من السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق ؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار . ﴿ قال أنا خير منه ﴾ أى : قال إبليس فى الجواب على ربه - تعالى - : أنا خير من آدم .

﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فهو - لعنه الله - يرى أن النار أفضل من الطين ، ولا يصح سجود الفاضل للمفضول .

ولاشك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب ، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى ، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل ، إذ النار يطفئها الطين ..

وقد رد - سبحانه - على هذا التناول من إبليس بقوله : ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ .

والقاء فى قوله ﴿ فاخرج ﴾ لترتيب الأمر بالطرد على ما حدث منه . والضمير فى « منها » يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيها .

أى : قال - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر : مادمت يا إبليس قد عصيت أمرى ، فاخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تكريم لك ، فإنك رجيم ، أى : مطرود من رحمتى . وإن عليك لعنتى وغضبى إلى يوم القيامة ، فإذا ما جاء هذا اليوم ازدادت لعنتى عليك .

﴿ قال رب فأنظرنى ﴾ أى : فأمهلىنى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى : فأخرنى ولا تمتنى إلى يوم البعث ، لأتمكن من إغواء ذرية آدم .

﴿ قال فإنك من المنظرين . الى يوم الوقت المعلوم ﴾ أى : قال - سبحانه - قد أجبت لك ما تقتضيه حكمى ، وهو أنى سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذى حددته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذى طلبه إبليس .

﴿ قال ﴾ أى : إبليس ﴿ فبعزتك ﴾ أى : فيحق سلطانك وقهرك ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ أى : لأغوين بنى آدم جميعا بالمعاصى ، ولأضلهم ولأمنينهم ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فلا يتأثرون بإغوائى ، لأنى لا قدرة لى عليهم .

﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ .
وقوله ﴿ فالحق ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى : فالحق قسمى لأملأن .. وقوله : ﴿ والحق أقول ﴾ لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقول ، قدم عليه لإفادة الحصر .

والجملة من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والمقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية . أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويبنى - ولا أقول إلا الحق - لأملأن جهنم من جنسك يا إبليس ، ومن تبعك من الناس جميعا ، لأن هذا جزء من عصافى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر رسوله - ﷺ - أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أعراض الدنيا فقال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين وغيرهم : إني لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله وصادق فيما أبلغه عنه .

وما هذا القرآن الذى جئتكم به من عند ربى ، إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف عظيم لهما فى اتباع أوامره ونواهيه .

لتعلمن - أيها الناس - صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت محدد فى علم الله - تعالى - .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « ص » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟ .

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر -

صباح الثلاثاء ٤ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ الموافق ١٩٨٥/٨/٢٠ م

نفسير
سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة «الزمر» هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثامنة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة سبأ . وقد ذكر صاحب الإتيقان أنها تسمى - أيضا - سورة « الغر » ، لقوله - تعالى - : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾ .

٢ - ويرى المحققون أن السورة بكاملها مكية .

قال الألوسی : عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ولم يستثن ، وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشى قاتل حمزة ، وهي قوله - تعالى - : ﴿ قل يا عباده الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

٣ - وآياتها خمس وسبعون آية في المصحف الكوفي ، وثلاث وسبعون في المصحف الشامي ، واثنان وسبعون في غيرهما^(١) .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - الذى أنزل القرآن بالحق على نبيه محمد - ﷺ - والذى خلق السموات والأرض بالحق والذى خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، قال - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا الله الدين الخالص .. ﴾ .

٥ - ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن حالة الإنسان عندما ينزل به الضر ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده - سبحانه - للصابرين ، وعن العقاب الأليم الذى أعده للخاسرين .

﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله

أعبد مخلصا له ديني . فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ﴿ ٦ ﴾ .

٦ - ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته في هذا الكون عن طريق إنزاله الماء من السماء ، وعن طريق إنزاله أحسن الحديث . كتابا متشابها مثنى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم . قال - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب ﴾ .

٧ - ثم دعا - سبحانه - الناس بعد ذلك إلى تدبر آيات القرآن ، المشتمل على الهدايات والإرشادات والأمثال ، وإلى اتباع الرسول - ﷺ - الذي جاءهم بالصدق ، لأن هذا اتباع يؤدي إلى تكفير سيئاتهم ، ورفع درجاتهم عند ربهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرأنا عريبا غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ .

٨ - وبعد أن عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - في قبضه للأرواح ، وفي كشفه الضر عن خلقه .. أتبع ذلك بمحاجة المشركين ، وبيان ما هم عليه من ضلال ، وبيان أحوالهم عندما يذكر الله - تعالى - وحده ، وبيان سوء عاقبتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

٩ - ثم ساق - سبحانه - لعباده ما يدل على سعة رحمته بهم ، ودعاهم إلى الإنابة إليه ، من قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه الندم .

قال - تعالى - : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

١٠ - ثم تحدثت السورة في أواخرها عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، وعن أهوال هذا اليوم .

قال - تعالى - : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وختمت ببيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من شديد العقاب ، وما أعده للمتقين من كريم الثواب .

قال - تعالى - : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

١١ - هذا ، والم تأمل في سورة « الزمر » بعد هذا العرض المجلل لها . يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتي :

(أ) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، تارة عن طريق خلق السموات والأرض ، وتكوين الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، وخلق الناس جميعاً من نفس واحدة ... وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد ، وتارة عن طريق توفى الأنفس حين موتها ، وتارة عن طريق ضرب الأمثال ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل ، هل يستويان مثلاً . الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(ب) تذكير الناس بأحوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب . وبعث ونشور ، وفرح يعلو وجوه المتقين ، وكآبة تجلج وجوه الكافرين .

نرى ذلك في مثل قوله - تعالى - : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقوا بمغافرتهم ، لا يسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

وفي مثل قوله - تعالى - : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

(ج) تلقين الرسول - ﷺ - الحجج والإجابات التي يرد بها على شبهات المشركين ، وعلى دعاوهم الباطلة ، فقد تكرر لفظ « قل » في هذه السورة كثيراً ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ .. ﴿ ... قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضمه ... ﴾ .

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكاتكم إلى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ . ﴿ قل أظنر الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

﴿ قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ .

(د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكارى ، الذى حذف فيه الخبر للعلم به من سياق الكلام .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ آمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ أظن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ أظن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أظن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ .

هذه بعض المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يدركها القارئ لهذه السورة الكريمة بتدبر وتفكر .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وأنس نفوسنا . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر

صباح الجمعة ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
 الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا
 لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
 مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
 فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
 كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا
 يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

افتتحت سورة « الزمر » بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان مصدره ، قال - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم . قد نزل عليك - يا محمد - من لدن الله - تعالى - ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب على كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ فى كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولاً مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .

والذى يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسماؤه الحسنى ، المتضمنة لصفاته الجليلة .

ففى أول سورة غافر نجد قوله - تعالى - : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ .

وفي أول سورة الجاثية نجد قوله - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وفي أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .

وفي أول سورة فصلت نجد قوله - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ .

وفي صدر سورة « يس » نجد قوله - سبحانه - : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم .. ﴾ .

ولا يخفى أن ذكره - سبحانه - لبعض أسمائه الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله - ﷺ - فيه ما فيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله - تعالى - وحده ، الذي له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا الكتاب ، وإلى العمل بهدياته ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ... ﴾ .

أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله - تعالى - الغالب على كل شيء . والحكيم فى أقواله وأفعاله . وقد أنزله - سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ بيان لكونه نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد ... أو شروع فى بيان المنزل إليه ، وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل .. والباء متعلقة بالإنزال ، وهى للسببية ، أى : أنزلناه بسبب الحق . أى : إثباته وإظهاره . أو بحذوف وقع حالا من المفعول وهى للملابسة . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .

والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتيا^(١) .

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والعبادة : أقصى درجات التذلل والخضوع للمعبود - عز وجل - والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم بعبادته وقوله وعمله وجه الله - تعالى - .

أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - هذا الكتاب بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك أن تخلص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصاً تاماً ، لا يحوم حوله

رياء أو تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله - تعالى - وحده .
قال الشوكاني : وفي الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها من الشوائب لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في الأقوال والأفعال النية ، كما في حديث : « إنما الأعمال بالنيات » وحديث : « لا قول ولا عمل إلا بنية »^(١) .

وجملة ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ مؤكدة ومقررة لمضمون ما قبلها من وجوب إفراد العبادة والطاعة لله - تعالى - : وزادها تأكيداً وتقريراً لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ واشتغالها على أسلوب القصر .

أى : ألا إن لله - تعالى - وحده - وليس لأحد سواه - الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء . والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته التي لا يعجزها شيء .

ثم بين - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم ... ﴾ .

فالمراد بالموصول المشركون ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ وجملة ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل . والزلفى : اسم أقيم مقام المصدر الذى يتلاقى معه فى المعنى ، والمأخوذ من قوله ﴿ ليقربونا ﴾ .

أى : الله - تعالى - وحده الدين الخالص ، والمشركون الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد على من ينهاهم عن ذلك : إننا ما نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا البلاء والمحن .

﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أى : بين هؤلاء المشركين وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ من أمر التوحيد والشرك ، بأن يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لا يهدى ﴾ أى : لا يوفق للاهتداء للحق ﴿ من هو كاذب كفار ﴾ .

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٤٨ .

أى : من كان دائم الكذب على دين الله ، شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه .

ثم أبطل - سبحانه - كل تصور للشرك والشركاء ، بأن نزه - تعالى - ذاته عن اتخاذ الولد فقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

أى : لو أراد الله - تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - أن يتخذ ولدا ، لاختار من خلقه ما يريده هو ، لا ما يريده الضالون ، لكنه - سبحانه - لم يختَر أحدا ليكون ولدا له ، فدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيزاً ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله .

﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ أى : تنزه - عز وجل - عن شىء من ذلك ، فإنه هو الله الواحد فى ذاته وفى صفاته ، القهار لكل مخلوقاته .

قال الإمام ابن كثير : بين - تعالى - فى هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة ، والمعادنون من اليهود والنصارى فى العزيز وعيسى فقال : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أى . لكان الأمر على خلاف ما يزعمون .

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ وكما قال : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ .

كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم ^(١) . وقال بعض العلماء ما ملخصه : إرادة اتخاذ الولد هنا ممتنعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات ، واتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القطعى فتستحيل إرادته . وجعلها فى الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لا يقتضى إمكانها فضلا عن وقوعها ، وقد عرف فى فصيح الكلام : تعليق المحال على المحال جوازا ووقوعا .

على أن الوالدية تقتضى التجانس بين الوالد والولد . إذ هو قطعة منه . وقد ثبت أن كل ماعداه - سبحانه - مخلوق له . فيلزم بموجب التجانس أن يكون المخلوق من جنس الخالق ، وهو يستلزم حدوث الخالق ، أو قدم المخلوق ، وكلاهما محال ^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٧٥ .

(٢) صفوة البيان ج ٢ ص ٢٤٩ لفضية الشيخ محمد حسين مخلوف .

ثم أقام - سبحانه - المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التأمل في ملكوت السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق بني آدم من نفس واحدة ... فقال - تعالى - :

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۚ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ تفصيل لبعض أفعاله الدالة على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

أى : الله وحده هو الذى أوجد هذه السموات وتلك الأرض ، إيجادا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة التى تعود عليكم - أيها الناس - بالخير والمنفعة ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد .

ثم ساق - سبحانه - دليلا ثانيا على وحدانيته فقال : ﴿ يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ﴾ .

والتكوير في اللغة : طرح الشيء بعضه على بعض . يقال : كور فلان المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة . أى : انضمام بعض أجزائها على بعض .
والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يَكُرُّ على الآخر فيذهبه ويحل محله ، بطريقة متناسقة محكمة لا اختلال معها ولا اضطراب .

قال صاحب الكشف : « والتكوير : اللف واللى . يقال : كَارَ العمامة على رأسه وكَوَّرَهَا . وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويأتى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف اللباس على اللابس .
ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لِف عليه ما غيبيه عن مطامح الأبصار .
ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعاً ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض »^(١) .

قال بعض العلماء ما ملخصه : « والتعبير بقوله « يكور .. » تعبير عجيب ، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكورا ، والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا في حركة دائبة « يكور - سبحانه - الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية »^(٢) .

ثم ذكر - سبحانه - دليلا ثالثا على وحدانيته وقدرته فقال : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١١٣ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٢٣ ص ١٢٢ .

والتسخير : التذليل والانقياد والطاعة التامة . أى : وجعل - سبحانه - الشمس والقمر منقادين لأمره انقيادا تاما وكلاهما يجرى فى مداره إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لنهاية دورانه ، وانقطاع حركته .

وهما فى جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ، ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾ . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ . وفى تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿ ألا ﴾ إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونها ، وإلى وجوب التدبر فيها اشتملت عليه .

أى : ألا إن الله - تعالى - : وحده هو الخالق لكل تلك المخلوقات ، وهو وحده المتصرف فيها ، والمهيمن عليها ، وهو وحده ﴿ العزيز ﴾ الغالب على كل ما سواه ، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه توبة نصوحا .

ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته فقال : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ .

أى خلقكم - سبحانه - من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة ، زوجها وهى أمكم حواء .

قال الشوكانى : والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم . للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم ، أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة ؛ لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه ، وخلق حواء على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه - تعالى - لم يخلق أنثى من ضلع رجل غيرها^(١) .

وقال الجمل : فإن قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه ؟ أجب بأن ثم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد . أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة ، فثم عاطفة عليه لا على خلقكم ، فمعناها : خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ، ثم شفعت بزوجة . أو هو معطوف على خلقكم ، لكن المراد بخلقهم ، خلقهم يوم أخذ الميثاق دفعة لا على هذا الخلق ، الذى هم فيه الآن بالتوالد والتناسل^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ بيان لبعض آخر من

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٥٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩٠ .

أفعاله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته . والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهي قوله : ﴿ خلقكم ﴾ .

أى : وأنزل لكم من كل من الإبل والبقر والغنم والمعر زوجين : ذكرا وأنثى يتم بها التناسل وبقاء النوع .

قالوا : وعبر - سبحانه - عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه - تعالى - خلق هذه الأنواع في الجنة ثم أنزلها . فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة .

أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازلة من السماء ، لأن سبب سببها منزل منها .. أو أن « أنزل » هنا بمعنى أنشأ وأوجد . أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء .

وقوله - تعالى - ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ بيان لكيفية خلق ما خلقه الله من الأناسى والأنعام بتلك الطريقة العجيبة .

أى أنه - تعالى - يخلقكم - أيها الناس - بقدرته في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نقطة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام مكسوة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر ، وهذه المراحل كلها تتم وأنتم في ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التي بداخل البطون وظلمات الغشاء الذي بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورعايته لخلقه .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾^(١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ يعود إليه - سبحانه - باعتبار أفعاله السابقة . وتصرفون : من الصرف بمعنى الابتعاد عن الشيء إلى غيره .

أى : ذلكم العظيم الشأن الذى ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله ربكم الذى له ملك كل شيء ، والذى لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا ... مع توفر الأدلة على بطلان ذلك .

والتأمل في هاتين الآيتين يراهما قد ذكرنا ألوانا من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كخلق السموات والأرض بالحق ، وتكوين الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ، ورعايتهم بلطفه

وإحسانه في مراحل حياتهم ، وإيجاد الأنعام التي تنفعهم في شئونهم المختلفة .

ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء إليه فقال : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ .

أى : إن تكفروا - أيها الناس - بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد الكفر ، فإن الله - تعالى - غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق أجمعين .

ومع ذلك فإنه - سبحانه - لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده الكفر ، أى : لا يحبه منهم ولا يحمده لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التي يجازى بها المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم .

وإن تشكروا الله على نعمه - أيها الناس - بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة . بأن يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره .

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى : ولا تحمل نفس يوم القيامة حمل أخرى ، وإنما كل نفس تجازى على حسب أعمالها في الدنيا .

﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يوم القيامة ﴿ فينبئكم ﴾ أى : فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ في دنياكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسن .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ أى : عليم بما تخفيه الصدور من أسرار ، وبما تضره القلوب من أقوال وأفعال ... لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال الجمل في حاشيته : قوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضى ، بأن يأذن فيه ويقر عليه ، ويشيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، وينذم عليه ، ويعاقب مرتكبه وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شيء عنها .

أو المعنى : ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله - تعالى - في شأنهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ فيكون الكلام عاما في اللفظ خاصا في المعنى ، كقوله - تعالى - : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾ أى بعض العباد^(١) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٩١ .

وبذلك ترى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته ، وعلى أن من شكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن عاقبة هذا الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل ، أما من جحد نعم الله - تعالى - وأشرك معه في العبادة غيره ، فإن عاقبة هذا الجحود ، تعود على الجاحد بالشر الويل ، وبالشقاء في الدنيا والآخرة . وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته ، أتبع ذلك بالحديث عن طبيعة الإنسان في حالتي السراء والضراء ، ونفى - سبحانه - المساواة بين المؤمنين والكافرين ، والعلماء والجهلاء فقال - تعالى - :

❖ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾

والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، بدليل قوله - تعالى - ❖ وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ❖ .

والمراد بالضر : ما يصيب الإنسان من مصائب في نفسه أو ماله أو أهله .
أى : وإذا نزل بالإنسان ضر من مرض أو غيره من المكار ❖ دعا ربه منيبا إليه ❖ أى : أسرع إلى الله - تعالى - بالدعاء والإنابة والتضرع ، وترك الآلهة التي كان يدعوها في حالة الرخاء .

كما قال - تعالى - : ❖ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون حالتشركون ❖ .

وقوله - تعالى - : ❖ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل .. ❖ بيان لحالة هذا الإنسان بعد أن كشف الله - تعالى - عنه الضر .

وخوله من التخويل بمعنى الإعطاء مرة بعد أخرى ،ومنه الحديث الشريف : كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا أى : يتعهدنا بها وقتا بعد وقت .
و ﴿ ما ﴾ فى قوله ﴿ نسى ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ موصولة مراداً بها الضر ، أو مراداً بها البارى - عز وجل - .

أى : هذا هو حال ذلك الإنسان عند نزول الضرّ به ، فإذا ما كشفنا عنه ضره ، وأعطيناه نعماً عظيمة على سبيل التفضل منا .. نسى الضر الذى كان يتضرع إلينا من قبل لنزله عنه ، أو نسى الخالق - عز وجل - الذى كشف عنه بقدرته ذلك الضر .

ولم يكف بهذا النسيان ، بل جعل لله - تعالى - أندادا أى : أمثالا وأشباها ونظائر يعبدونها من دونه .

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ للتعليل . أى فعل ما فعل من جعله شركاء لله - تعالى - فى العبادة ، ليضل الناس بذلك الفعل عن سبيل الله وعن دينه الذى ارتضاه لعباده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليضل ﴾ بفتح الياء . أى : ليزداد ضلالا على ضلاله .
وقوله - تعالى - : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ ، بيان لسوء عاقبة هذا الإنسان المشرك .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهذا الإنسان الذى جعل لله شركاء فى العبادة ... قل له تمتع بكفرك تمتعا قليلا ، أو زمانا قليلا إنك من أصحاب النار الملازمين لها ، والخالدين فيها .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هذا الإنسان المشرك وبين الإنسان الملازم لطاعة ربه فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. ﴾ .
وكلمة « أمن » أصلها « أم » التى بمعنى بل وهمزة الاستفهام . و « من » التى هى اسم موصول وهى هنا مبتدأ وخبره محذوف . والقانت : من القنوت بمعنى ملازمة الطاعة والمواظبة عليها بخشوع وإخلاص .

وآناء الليل : ساعاته : والاستفهام للإنكار والنفى .

أى : بل أمن هو قانت ساعات الليل لعبادة الله - ساجدا وقائماً يحذر عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، كمن هو جاعل لله - تعالى - شركاء فى العبادة ؟

عما لا شك أنها لا يستويان فى عرف أى عاقل ، وفى نظر أى ناظر .

ويصح أن تكون « أم » متصلة . وقد حذف معادها ثقة بدلالة الكلام عليه ، فيكون المعنى :

أهذا الكافر الذى جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله أحسن حالا ، أم الذى هو ملازم للطاعات آتاء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟

ووصف القنوت بأنه فى آتاء الليل ، لأن العبادة فى تلك الأوقات أقرب إلى القبول وقدم السجود على القيام ، لأن السجود أدخل فى معنى العبادة .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى عثمان بن عفان ، وقيل فى عمار بن ياسر .. والظاهر أن المراد المتصف بذلك من غير تعيين ، ولا يمنع من ذلك نزولها فىمن علمت ، وفيها دليل على فضل الخوف والرجاء .

وقد أخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله - ﷺ - على رجل وهو فى الموت ، فقال له : كيف تجحدك ؟

قال : أرجو وأخاف . فقال - ﷺ - : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذى يرجو ، وأمنه الذى يخاف »^(١) .

ثم نفى - سبحانه - أيضاً المساواة بين العالم والجاهل فقال : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادا : إنه لا يستوى عند الله - تعالى - المشرك والمؤمن ، ولا يستوى عنده - أيضا - الذين يعلمون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم ، والذين لا يعلمونه ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم ، ويعرضون عن كل من يدعوهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ أى : إنما يعتبر ويتعظ بهذه التوجيهات والإرشادات ، أصحاب العقول السليمة والمدارك القوية .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يذكر المؤمنين بأن يواظبوا على إخلاص العبادة لله - تعالى - وأن يهاجروا إلى الأرض التى يتمكنون فيها من نشر دينه وإعلاء كلمته ، وأن ينزروا المشركين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وضلالهم .. فقال - تعالى - :

قُلْ يَٰعِبَادِ اللَّهِ
 ءَامِنُوا أَنْتُمْ وَأَرْبَابُكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
 وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا
 ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
 وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَٰعِبَادِ فَاذْكُرُونِ ﴿١٦﴾

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادي المؤمنين الصادقين : داوموا على الخوف من ربكم ، وعلى صيانة أنفسكم من كل ما يفضيه .

وفي التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا ﴾ دون قوله : قل لعبادي الذين آمنوا .. تكريم وتشريف لهم ، لأنه - سبحانه - أمر رسوله - ﷺ - أن يناديهم بهذا النداء الذي فيه ما فيه من التكريم لهم ، حيث أضافهم إلى ذاته - تعالى - وجعل وظيفة الرسول - ﷺ - إنما هي التبليغ عنه - عز وجل - .

قال الآلوسی : قوله - تعالى - : ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا ﴾ : أمر رسول الله - ﷺ - أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة ، إثر تخصيص التذکر بأولی الألباب ، وفيه إيذان بأنهم هم .

أى : قل لهم قولى هذا بعينه ، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن الأمور به ، فإن نقل عين أمر الله - تعالى - أدخل فى إيجاب الامتثال به ^(١) .

وجملة ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ تعليل لوجوب الامتثال لما أمروا به من تقوى الله - تعالى - والاستجابة لإرشاداته .

وقوله ﴿ للذين أحسنوا ﴾ متعلق بمحنوف خبر مقدم ، وقوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق بقوله : أحسنوا ، وقوله ﴿ حسنة ﴾ مبتدأ مؤخر .

أى : للذين أحسنوا في هذه الدنيا أقوالهم وأعمالهم .. حسنة عظيمة في الآخرة ، ألا وهى جنة عرضها السموات والأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ جملة معترضة لإزاحة ما عسى أن يتعللوا به من أعذار ، إذا ما حملهم البقاء في أوطانهم على التفريط في أداء حقوق الله .

قال صاحب الكشف : ومعنى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان ألبتة ، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان ، وصرف الهمم إليه قيل لهم : فإن أرض الله واسعة ، وبلاده كثيرة ، فلا تجتمعوا مع العجز ، وتحولوا إلى بلاد آخر ، واقتنوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم^(١) .

ومن الآيات التى وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الصابرين فقال : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أى : إنما يوفى الصابرون على مفارقة الأوطان ، وعلى تحمل الشدائد والمصائب في سبيل إعلاء كلمة الله ... يوفون أجرهم العظيم على كل ذلك بغير حساب من الحاسبين . لأنهم لا يستطيعون معرفة ما أعدّه - سبحانه - لهؤلاء الصابرين من عطاء جزيل ، ومن ثواب عظيم ، وإنما الذى يعرف ذلك هو الله - تعالى - وحده .

قال الإمام الشوكاني : أى : يوفيههم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسابه حاسب .

والحاصل أن الآية تدل على أن ثواب الصابرين وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شىء يدخل تحت الحساب فهو متناه ، وما كان لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناه . وهى فضيلة عظيمة ومثوبة جلييلة ، تقتضى أن على كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيها عنده من الخير ، أن يتوفر

على الصبر ، ويزم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يرد قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيرا قد سلب ، ولا يدفع مكروها قد وقع ..^(١) .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يبين للناس ما أمره به خالقه فقال : ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد إني أمرت من قبل الله - عز وجل - أن أعبد عبادة خالصة لا مجال معها للشرك أو الرياء ، أو غير ذلك مما يتنافى مع الطاعة التامة الخالقة - سبحانه - .
﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ أى : أمرنى ربى بأن أخلص له العبادة إخلاصا تاما وكاملا ، لكى أكون على رأس المسلمين وجوهم لهم ، حتى يقتدى بى الناس فى إخلاصى وطاعتى له - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ بيان لسوء عاقبة الشرك والمشركين .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إني أخاف إن عصيت ربي ، فلم أخلص له العبادة والطاعة ، عذاب يوم عظيم الأهوال : شديد الحساب ، وهو يوم القيامة ، ولذلك فأنا لشدة خوفى من عذاب خالقى ، أكثرهم إخلاصا له - عز وجل - وامتثالا لأمره ، ومحافظة على طاعته .

﴿ قل الله أعبد مخلصا له دينى ﴾ أى . وقل لهم - أيضا - : الله - تعالى - وحده هو الذى أعبد عبادة لا يحوم حولها شرك ، ولا يخالطها شىء من الرياء أو التكلف .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - ﷺ - أن يعلن للناس بأساليب متنوعة ، أنه لن يتراجع عن طاعته التامة لربه ، وأن عليهم أن يتأسوا به فى ذلك .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أولا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها . وثانيا : بأن يخبرهم بأنه مأمور بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم . وثالثا : بأن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان . ورابعا : بأن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله - تعالى - وأخلص له الدين على أبلغ وجه وأكده ، إظهارا لتصلبه فى

(١) تفسير فتح القدير ج ٤ ص ٤٥٤ .

الدين ، وحسباً لأطباعهم الفارغة ، وتهيدا لتهديدهم بقوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ... ﴾ ^(١) .

فالأمر في قوله - تعالى - : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ... ﴾ للتهديد والتفريع والقاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى . إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها المشركون - من أنى أول المسلمين وجوههم لله - تعالى - وحده ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه - عز وجل - فسترون عما قريب سوء عاقبة شرككم وجحودكم لنعم الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ بيان لسوء عاقبة من أعرض عن دعوة الحق ، وقوله : ﴿ الذين خسروا .. ﴾ خبر إن .

أى : قل يا محمد هؤلاء المشركين : ليس الخاسرون هم الذين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - وحده - كما زعمتم - وإنما الخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بسبب إلقائهم في النار ، وحرمانهم من النعيم الذين أعدّه الله - تعالى - لعباده المؤمنين .

وقال - سبحانه - خسروا أنفسهم وأهليهم للإشعار بأن هؤلاء المشركين لم يخسروا أنفسهم فقط بسبب دخولهم النار ، وإنما خسروا فوق ذلك أهليهم لأنهم حيل بينهم وبين أهليهم ، لأن أهلهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .

وجملة : ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه ، للإشعار بأن هذا الخسران الذى حل بهم قد بلغ الغاية والنهاية فى بابه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ... ﴾ تفصيل لهذا الخسران بعد تهويله عن طريق الإيهام والإجمال .

والظلل : جمع ظلة ، وأصلها السحابة التى تظل ماتحتها ، والمراد بها هنا طبقات النار التى تكون من فوقهم ومن تحتهم . وأطلق عليها هذا الاسم من باب التهكم بهم ، إذ الأصل فى الظلل أنها تقى من الحر ، بينما الظلل التى فوق المشركين وتحتهم محرقة .

أى : هؤلاء المشركين طبقات من النار من فوقهم ، وطبقات أخرى من النار من تحتهم ، فهم محاطون بها من كل جانب ، ولا يستطيعون التفلت منها .

قال الجمل في حاشيته : « فإن قلت : الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمي ماتحته بالظلة ؟ .

قلت : فيه وجوه : الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر . الثاني : أن الذى تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته فى النار لأنها دركات . الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة الفوقانية فى الإيذاء والحرارة ، سميت باسمها لأجل المماثلة والمشابهة »^(١) .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك الذى يخوف الله به عباده ... ﴾ يعود إلى العذاب الشديد الذى أعده - سبحانه - لأولئك المشركين .

أى : ذلك العذاب الشديد يخوف الله - تعالى - به عباده ، حتى يحذروا ما يوصل إليه ، ويجتنبوا كل قول أو فعل من شأنه أن يفضى إلى النار .

وقوله - تعالى - : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ نداء منه - تعالى - للناس يدل على رحمته بهم ، وفضله عليهم ، أى : عليكم يا عبادى أن تلتزموا طاعتي ، وتجتنبوا معصيتي ، لكى تنالوا رضائى وجنتى ، وتبتعدوا عن سخطى ونارى .

وإلى هنا نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت الصابرين بالعطاء الذى لا يعلم مقدار فضله إلا الله - تعالى - ، وأمرت بإخلاص العبادة لله - سبحانه - بأساليب متنوعة ، وحذرت المشركين من سوء المصير إذا ما استمروا فى شركهم وكفرهم .

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده للخاسرين من عذاب أليم ، أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى^٤
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ^٥
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رِيحَهُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرِفُوا مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

الطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله - تعالى - كالشيطان والأصنام وما يشبههما ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في كل شيء . ويستعمل في الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

والاسم الموصول مبتدأ . وجملة « أن يعبدوها » بدل اشتغال من الطاغوت ، وجملة « لهم البشرى » هي الخبر .

والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير الله - تعالى - أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده - عز وجل - .

أولئك الذين يفعلون ذلك « لهم البشرى » العظيمة في حياتهم ، وعند مماتهم ، وحين يقفون بين يدي الله - تعالى - : ﴿ فبشر عباد ﴾ أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - عبادى الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم ...

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ... ﴾ .

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بالقول الذى يتبعون أحسنه . ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة .

والمراد بالأحسن الواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن .

فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل ، كما قال - تعالى - ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ... ﴾ .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا ...

ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أ كانت طيبة أم غير طيبة . فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره .

قال صاحب الكشف ماملخصه : قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ هم الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ... وأراد أن يكونوا نقادا في الدين ، يميزون بين الحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب ... فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثواباً عند الله . .

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها . نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء . .

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عما سواه ^(١) .

ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنها - هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ ثناء آخر من الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة .

أى : أولئك الذين هداهم الله - تعالى - إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القوية ، والقلوب الطاهرة النقية ..

قال الألوسى : وفى الآية دلالة على حظ قدر التقليد المحض ، ولذا قيل : شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل غير قيد فأنقادا

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله - تعالى - وقبول النفس لها ... ^(٢) .

ثم بين - سبحانه - أن من أحاطت به خطيئته ، لن يستطيع أحد إنقاذه من العذاب . فقال - تعالى - ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تنقذ من فى النار ﴾ .

والاستفهام للنفى ، والتقدير : أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية ، أفستطيع أنت - أيها الرسول الكريم - أن تنقذه من هذا المصير الأليم ؟ لا - أيها الرسول الكريم - إنك لا تستطيع ذلك . لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار ، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٢١ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٣ ص ٢٥٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ لَكِن الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ ... ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم كلمة العذاب . .
والغرف جمع غرفة ، وتطلق على الحجرة التي تكون مرتفعة عن الأرض .
أى : هذا حال الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ فيختلف اختلافا تاما عن غيرهم ، فإن الله - تعالى - قد أعد لهم - على سبيل التكريم والتشريف - غرفا من فوقها غرف أخرى مبنية . .
ووصفت بذلك للإشارة إلى أنها معدة ومهيأة لنزولهم فيها ، قبل أن يقدموا عليها ، زيادة في تكريمهم وحسن لقائهم .
وهذه الغرف جميعها « تجري من تحتها الأنهار » ليكون ذلك أدعى إلى زيادة سرورهم .
وقوله - تعالى - ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ تذييل مؤكد لمضمون ما قبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية . ولفظ « وعد » مصدر منصوب بفعل مقدر .
أى : وعدهم - تعالى - بذلك وعدا لا يخلفه ، لأنه - سبحانه - ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذى يعده لعباده .
وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام »^(١) .
وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها ، وتوعدت المصرين على كفرهم وفجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار .
ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا ، وقرب اضمحلال بهجتها . كما بين حال من شرح الله صدره للإسلام فقال - تعالى - : .

الْمَرَّةِ

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُ

يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾
 أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
 لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ... ﴾ للتقرير .
 والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذى يكون في باطن الأرض ، والذي يحمل
 الكثير من المياه الجارية أو المخزونة في جوف الأرض .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - أنزل من السحب المرتفعة في جو
 السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته في عيون ومسارب في الأرض ، هذه العيون والمسارب تارة
 تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون في باطنها ، وكل ذلك من أعظم الأدلة على قدرة
 الله - تعالى - ورحمته بعباده .

ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر قدرته فقال : ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفا
 ألوانه ... ﴾ .

أى : هذا الماء الذى أنزله - سبحانه - بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع في الأرض ،
 ثم يخرج بسبب هذا الماء زرعا مختلفا في ألوانه وفي أشكاله ، فمنه ما هو أخضر ومنه ما هو
 أصفر ، ومنه ما ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم يهيئ فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ﴾ بيان لمظهر ثالث من
 مظاهر قدرته - عز وجل - .

والفعل « يهيئ » مأخوذ من الهيج بمعنى اللبس والجفاف . يقال : هاج النبات هيجاً
 وهياجاً ، إذا بيس وأصفر . أو مأخوذ من الهيج بمعنى شدة الحركة . يقال : هاج الشيء يهيج ،
 إذا ثار لمشقة أو ضرر ، ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس .

أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد
 اخضراره ونضارته ، ثم يجعله - سبحانه - « حطاما » أى : فثاتا متكسرا . يقال : حَطَمَ
 الشيء حطما - من باب تعب - إذا تكسر وتفتت وتحطم .

﴿ إن في ذلك ﴾ الذى ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلكه ينابيع في الأرض ،
 ومن إخراج النبات المختلف الألوان بسببه ﴿ لذكرى ﴾ عظيمة ﴿ لأولى الألباب ﴾ .

أى : لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القوية .

والمقصود من هذه الآية الكريمة ، التحذير من الانهك في الحياة الدنيا ومتعتها ، حيث شبهها - سبحانه - في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبدو مخضراً وناضراً ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال .

وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيأ تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ (١) .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال فقال : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .. ﴾ .

أى : أفمن شرح الله - تعالى - صدره للإسلام ، وجعله مستعداً لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظ ، وأصبح أسيراً للظلمات والأوهام ..

لاشك أنها لا يستويان فى عقل أى عاقل .

فالاستفهام للإنكار والنفى ، و « من » اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قوله - تعالى - ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ عليه .

أى : فهلاك وخزى لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى - ، الذى من شأنه أن تلين له القلوب ، ولكن هؤلاء الكافرين إذا ما ذكر الله - تعالى - ، اشمأزت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطباس بصائرهم . واستحواذ الشيطان عليهم . ومنهم من جعل « من » فى قوله ﴿ من ذكر الله ﴾ بمعنى عن . أى : فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ من ذكر الله ﴾ أى : من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله - تعالى - : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقرئ : عن ذكر الله .

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن فى هذا ؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه . وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ

عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاء من العَيْمَةِ . أى : من أجل عطشه . وسقاه عن العَيْمَةِ ، إذا أرواه حتى أبعدته عن العطش^(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم فقال : ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلال واضح عن الصراط المستقيم .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾^(٢) .

ثم مدح - سبحانه - كتابه مدحاً يليق به ، وبين حال المؤمنين الصادقين عند سماعه ، وسلى نبيه - ﷺ - عما أصابه من أعدائه . فقال - تعالى - :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا فِي فَتَقِشْرِ مَنَّهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهَهُ سُوَّةَ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ
﴿١٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٢ « والعَيْمَةُ - يفتح فسكون - شدة العطش » .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

وقوله - تعالى - : « مثنى » جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرار والإعادة ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثاني ، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة .

أى : الله - تعالى - نزل بفضلته ورحمته عليك - يا محمد - أحسن الحديث « كتابا متشابها » أى : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، وفى نظمه وإعجازه ، وفى صحة معانيه وأحكامه ، وفى صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ...

« مثنى » أى : تتنّى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، كما تتنّى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد ، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة .

وسمى - سبحانه - كتابه حديثا ، لأن النبى - ﷺ - كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه . فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم . ولفظ « كتابا » بدل من قوله ﴿ أحسن الحديث ﴾ . وقوله : ﴿ متشابها مثنى ﴾ صفتان للكتاب .

ووصف بهما وهو مفرد وكلمة « مثنى » جمع ، باعتبار اشتغاله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام ..

أى : الله - تعالى - أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ .. التى يشبه بعضها فى الإعجاز ... والتى تتنّى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار ..

ورحم الله صاحب الكشف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : « وإيقاع اسم الله مبتدأ ، وبناء « نزل » عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيده لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مبين لسائر الأحاديث .

فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هى جملة لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا عن بدله لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله - ﷺ - أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات ، ليركزه فى قلوبهم ، كي يفرسه فى صدورهم ...^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ... ﴾ .

استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم في نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه في ذاته .

وقوله « تقشعر » من الاقشعرار ، وهو الانقباض الشديد للبدن . يقال : اقشعر جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز ... وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله - تعالى - .
 أى : أن هذا الكتاب العظيم عندما يقرأه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر . ثم تلتن جلودهم وقلوبهم إذا ماقرأوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة .

قال الجمل : « فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت القلوب بها ثانياً ؟ . قلت : ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر ، فإذا ذكروا الله - تعالى - وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لنا في جلودهم ..^(١) .

والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف والرجاء ، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء في رحمته ومغفرته ، إذ أن اقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح ، وعدى الفعل « تلتن » بإلى لتضمينه معنى تسكن وتطمئن .
 ومفعول « ذكر الله » محذوف للعلم به ، أى : ثم تلتن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله رحمته وثوابه وجنته .

قال ابن كثير ما ملخصه : هؤلاء المؤمنون يخالفون غيرهم من وجوه :
 أحدها : أن سماع هؤلاء تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغبات الأبيات .
 الثانى : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ، بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، ولم يكونوا - كغيرهم - متشاغلين لاهين عنها .
 الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ولم يكونوا يتصارخون ويتكفون ما ليس فيهم .

قال قتادة عند قراءته لهذه الآية : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأنهم تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع . وهذا من الشيطان ...^(١) .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فماله من هاد ﴾ يعود إلى الكتاب الذي مرت أوصافه ، وأوصاف القارئ له والمستمعين إليه . أى : ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات وأحكمها ، هدى الله الذى يهدي بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم ، ومن يضلله - سبحانه - عن طريق الحق ، فماله من هاد يهديه إلى هذا الطريق القويم .

ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم ، وبين غيرهم ممن قست قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ .

والاستفهام : للنفي والإنكار ، و « من » اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : أفمن كان يوم القيامة مصيره إلى النار المحرقة التى يتقىها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ، كمن يأتى يوم القيامة آمناً مطمئناً بعيداً عن النار وسعيرها ؟ .

وفى الآية الكريمة ما فيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت عادة الإنسان أن يتقى الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا ما اتقاها بوجهه الذى هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلاً على أن ما نزل به فى نهاية الفظاعة والشدة .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ سوء العذاب ﴾ مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء ، فإذا ما وصف بعد ذلك بالسوء ، كان أشد فى الفظاعة والإهانة والألم .

وجملة : « وقيل للظالمين ... » عطف على « يتقى ... » أى : هذا هو مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التى هى أشرف أعضائهم ، وهذا الاتقاء لن يفيدهم شيئاً ، بل ستغشاهم النار بلهبها ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال قبيحة .

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ من أمم الكفر والضلال ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدر لكل أمة من أمم الكفر .

﴿ من حيث لا يشعرون ﴾ أى : من الجهة التى لا تخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم منها ، فيكون وقعه عليهم أشد وأفظع .

﴿ فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ﴾ أى : العذاب الذى يذلمهم ويخزيهم فى الحياة الدنيا ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ . المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ كيفاً وكماً ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى العذاب المهين .

ثم كرر - سبحانه - مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلاً للمشارك الذى يعبد آلهة كثيرة ، وللمؤمن الذى يعبد إلهاً واحداً ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت . وأنهم جميعاً سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال - تعالى - : .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي

هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ

شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ ﴿٣١﴾

واللام فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد ضربنا للناس ... ﴾ موطئة للقسم .

أى : والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة فى هذا القرآن العظيم ، من كل مثل يحتاج إليه الناس فى أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به فى دنياهم ودينهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ تعليل لضرب المثل . أى فعلنا ذلك فى كتابنا الذى هو أحسن الحديث ، كى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه . فلعل هنا بمعنى كى التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج ... ﴾ ثناء آخر منه - تعالى - على كتابه الكريم .

والجملة الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : ﴿ هذا القرآن ... ﴾ .

أى : هذا القرآن قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ قرآنا عربيا ﴾ حال مؤكدة كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا ، وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿ غير ذى عوج ﴾ أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف .

فإن قلت : فهلا قيل مستقيما ، أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان :

إحداها : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ .

والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان ... وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب^(١)

وقوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ علة أخرى لا شتال القرآن على الأمثال المتكررة المتنوعة .

أى : كررنا الأمثال النافعة فى هذا القرآن للناس ، كي يتقوا الله - تعالى - ويخشوا عقابه .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن ، فقال : ﴿ ضرب الله مثلا ، رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ... ﴾ .

وقوله ﴿ مثلا ﴾ مفعول ثان لضرب ، و ﴿ رجلا ﴾ مفعوله الأول . وآخر عن المفعول الثانى للتشويق إليه ، وليتصل به ما هو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن .

وقوله ﴿ متشاكسون ﴾ من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق ، يقال : رجل شَكَسَ وشَكِسَ - بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرهما وفعله من باب كرم - إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق .

وقوله سلما « بفتح السين واللام - مصدر وصف به على سبيل المبالغة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « سلما » : أى خالسا لسيده دون أن ينازعه فيه منازع .

والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين

متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم ، وهذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثاني يطلب منه شيئا يباين ما طلبه الأول ، والثالث يطلب منه ما يتناقض مع ما طلبه الأول والثاني ... وهو حائر بينهم جميعا ، لا يدري أ يطيع ما أمره به الأول أم الثاني أم الثالث ... ؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التي تمزق أفكاره وقواه .

هذا هو مثل المشرك في حيرته وضلاله وانتكاس حاله .

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليه ، وفي راحة تامة من الحيرة والمتاعب التي انغمس فيها ذلك العبد الذي يملكه الشركاء المتشاكسون .

فالمقصود بهذين المثليين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق ، وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان .

واختار - سبحانه - الرجل لضرب المثليين ، لأنه أتم معرفة من غيره لما يتعبه ولما يريحه ولما يسعده ولما يشقيه .

قال صاحب الكشف - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : واضرب - يا محمد - لقومك مثلا وقل لهم : ماتقولون في رجل من الممالك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع . كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجادبون ، ويتعاورونه في مهن شتى ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير في أمره ، قد تشعبت المعلوم قلبه ، وتوزعت أفكاره ، لا يدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته .

وفي آخر : قد سلم للملك واحد وخلص له ، فهو معتق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع ، أي هذين العبدتين أحسن وأجمل شأنًا ؟ .

والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى .. ويبقى متحيرا ضائعا لا يدري أيهم يعبد ، ومن يطلب رزقه ؟ فهمه شعاع - بفتح الشين أي : متفرق - ، وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه في عاجله ، مؤمل للثواب في آجله ، ^(١) .

والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ للإنكار والاستبعاد .
أي : لا يستوي الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون ، والرجل الذي سلم لرجل آخر ،

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٢٦ .

في رأى أى ناظر ، وفي عقل أى عاقل ، فالأول في حيرة من أمره ، والثاني على بينة من شأنه .

وساق - سبحانه - هذا المعنى في صورة الاستفهام ، للإشعار بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذى عقل سليم .

وانتصب لفظ « مثلاً » على التمييز المحول عن الفاعل ، لأن الأصل هل يستوى مثلها وحالها ؟ .

وجملة ﴿ الحمد لله ﴾ تقرير وتأکید لما قبلها من نفى الاستواء واستيعاده ، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص في العبودية لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - عز وجل - حيث وفقهم لذلك .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذى عينين يبصرهما ، وعقل يعقل به .

ثم أخبر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن الموت سينزل به كما سينزل بأعدائه الذين يترصبون به رب المنون ، ولكن في الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - فقال - : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - سيلحقك الموت ، كما أنه سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجل الموت الذى سيعم الخلق جميعا . وجاء الحديث عن حلول الموت به - ﷺ - وبأعدائه ، بأسلوب التأكيد ، للإيدان بأنه لا معنى لاستبطانهم لموته - ﷺ - ولا للشهامة به - ﷺ - إذا ما نزل به الموت ، إذ لا يشمت الفانى في الفانى مثله .

ثم بين - سبحانه - ما يكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

أى : ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالقكم تختصمون وتحتكمون ، فتقيم عليهم - أيها الرسول الكريم - الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وهم يعتذرون بالأباطيل والتعليلات الكاذبة ، والأقوال الفاسدة ، وسينتقم ربك من الظالم للمظلوم ، ومن المبطل للمحق .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال

ما ملخصه : ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يارسول الله أكرر علينا الخصومة ؟ قال : نعم . قلت : إن الأمر إذا لشديد . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - : « والذي نفسى بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا » .

وقال ابن عباس : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهدى الضال ، والضعيف المستكبر^(١) .

ثم بين - سبحانه - أنه لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله - تعالى - وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأن من صفات المتقين أنهم يؤمنون بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه - سبحانه - سيكفر عنهم سيئاتهم ... فقال - تعالى - : .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ^{٢٢} أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ^{٢٣} وَالَّذِي
جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ^{٢٤} أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^{٢٥}
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ^{٢٦} عِنْدَ رَبِّهِمْ^{٢٧} ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ^{٢٨}
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^{٢٩} أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُ^{٣٠} وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ^{٣١} وَمَنْ يَضِلَّ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٨٧ .

(*) أول الجزء الرابع والعشرون .

اللَّهُ فَمَالِ الْمُؤْمِنِ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ كَذِبٍ عَلَى اللَّهِ ... ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفي .

أى مادام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أنك ستموت وهم سيموتون ، وأنكم جميعا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء .. فلا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن عبدوا من دونه آلهة أخرى ، ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالأمر الصدق وقت أن جنتهم به من عند ربك .

والتعبير بقوله : ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ يدل على أنهم بادروا بتكذيب ما جاءهم به الرسول - ﷺ - من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه . وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ما جاءهم به الرسول - ﷺ - .

والاستفهام في قوله - تعالى - ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ للتقرير . والمثوى : المكان مأخوذ من قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به . يقال : ثوى يثوى ثواء ، كمضى يمضى مضاء ..

أى : أليس في جهنم مكانا يكفى لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم ؟ بل إن فيها لمكانا يذلم وينوقون فيه سوء العذاب .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ .

والمراد بالذى جاء بالصدق : رسول الله - ﷺ - والمراد بالذى صدق به : ما يشمل الرسول - ﷺ - ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبي بكر الصديق وغيره من الصحابة .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله - ﷺ - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ... والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند في قولك : نزل الأمير موضع كذا ...

والجمع في قوله - تعالى - : ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ باعتبار دخول الأتباع تبعاً :
ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله - ﷺ - أعلاها ... ^(١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعدّه لهؤلاء المتقين من نعيم فقال ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ... ﴾ .

أى : لهؤلاء المتقين كل ما يشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم ، بسبب تصديقهم للحق ،
واتباعهم لما جاءهم به رسولهم - ﷺ - .

وفي قوله : « عند ربهم » تكريم وتشريف لهم .

وقوله : ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ أى : ذلك الذى ذكرناه من حصولهم على ما يشتهونه ،
جزاء من أحسنوا في أقوالهم وأفعالهم .

ثم بين - سبحانه - جانباً مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم فقال : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ
الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ .

واللام في قوله : « ليكفر .. » متعلقة بمحذوف ، أى : أعطاهم - سبحانه - ما أعطاهم من
فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التى عملوها ، كالكفر قبل الإسلام ، بأن يغفر لهم ذلك
ولا يؤاخذهم عليه .

وإذا غفر الله - تعالى - لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم - بفضلته ورحمته ما هو دونه
بالطريق الأولى .

« ويجزيهم أجرهم » أى : يعطيهم ثواب أعمالهم « بأحسن الذى كانوا يعملون » أى :
يعطيهم في مقابل عملهم الصالح في الدنيا جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر .

وعلى هذا التفسير يكون قوله - تعالى - : أسوأ وأحسن ، أفعال تفضيل حيث كفر
- سبحانه - عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو الجنة .
وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله - تعالى - لعباده المتقين ، حيث عاملهم بالفضل ولم
يعاملهم بالعدل .

ومنهم من يرى أن قوله : أسوأ وأحسن ، بمعنى السيئ والحسن ، فيكون أفعال التفضيل
ليس على بابيه ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشف بقوله : مامعنى إضافة الأسوأ والأحسن
إلى الذى عملوا ؟ وما معنى التفضيل فيها ؟ .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٤ ص ٢ .

قلت : أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل . كقولك : الأشج أعدل بنى مروان .

وأما التفضيل فايدان بأن السيئ الذي يفرط منهم من الصفات والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن ؛ لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ ، وحسنهم بالأحسن ^(١) .

ثم بين - سبحانه - عصمته لنبيه - ﷺ - بأبلغ وجه وأتمه فقال ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

وقراءة الجمهور : ﴿ عبده ﴾ بالإفراد وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ عباده ﴾ ، والاستفهام للتقرير .

قال القرطبي : وذلك أنهم خوفوا النبي - ﷺ - مضرة الأوثان فقالوا له : أتسب آلهتنا لئن لم تنته عن ذكرها لتصيبينك بالسوء .

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرهما بالفأس ، فقال له سادها : احذرک منها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء . فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها ، وتخويفهم لخالد تخويف للنبي - ﷺ - لأنه هو الذي أرسله . ويدخل في الآية تخويفهم النبي - ﷺ - بكثرة جمعهم وقوتهم .. ^(٢) .

والمعنى : أليس الله - تعالى - بكاف عبده محمدا - ﷺ - من كل سوء ؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من أعدائهم ؟ بلى إنه - سبحانه - لعاصم نبيه - ﷺ - من أعدائه ، ولناصر عباده المتقين على من ناوهم .

والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك - أيها الرسول الكريم - من أصنامهم التي يعبدونها من دونه - تعالى - ، مع أن هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن تدافع عن نفسها فضلا عن غيرها .

﴿ ومن يضل الله ﴾ أى : من يضلله الله - تعالى - ﴿ فما له من هاد ﴾ يهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ ومن يهد الله ﴾ أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق والصواب .

﴿ فما له من مضل ﴾ أى : فما له من أحد كائننا من كان يستطيع إضلاله .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٥٨ .

﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ بلى إنه - سبحانه - لعزیز إذ لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه مانع ، ولا ينازعه منازع . ولذو انتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع انتقامه منهم .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم . وأمر النبي - ﷺ - أن يهدمهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم ... فقال - تعالى -

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ
أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ
اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمِ أَعْمَلُوا
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
فَلَٰنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي
لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ
وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ
قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

والمعنى : ولئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين : من الذى خلق هذه السموات التى ترونها بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التى فوقها تعيشون ..
لئن سألتهم هذا السؤال ، لا يملكون فى الإجابة عليه إلا أن يقولوا : خلقهم الله ، فلفظ الله فاعل لفعل محذوف .

وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم مع أنفسهم . لأنهم يعترفون بأن الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ..

ولذا أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يقول لهم مبكنا وموبخا : ﴿ قل أفرايتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره . أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ ؟ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا الكون هو الله ، فأخبرونى عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - سبحانه - : أستطيع أن تدفع ضرا أرادته الله - تعالى - بى ؟ أم أستطيع أن تمنع رحمة أو خيرا أعطاه الله لى ؟ كلا إنها لا تستطيع شيئا من ذلك ، وعبادتكم لها إنما هى نوع من السفه والحماقة . وقال - سبحانه - : ﴿ هل هن .. ﴾ بالتأنيث على سبيل التحقير لتلك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث ، كالكالات ، والعزى ، ومناة . الخ .

وقدم الضر لأن دفعه أهم ، وعلق - سبحانه - إرادة الضر والرحمة بذاته - ﷻ - فقال : ﴿ إن أرادنى الله بضر ... ﴾ ليرد عليهم ردا يخرس ألسنتهم ، حيث خوفوه - ﷻ - منها وزعموا أنه لو استمر فى تحقيرها فإنها ستؤذيه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم فرض المسألة فى نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوفوه معرفة الأوثان وتخيلها ، فأمر بأن يقرهم - أولا - بأن خالق العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذى أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل ، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوها . هل هؤلاء اللاتى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم ، حتى لا يبحروا بينت شفة قال : ﴿ حسبى الله ﴾ كافياً لمرة أو ثانكم ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ وفيه تهكم .

ويروى أنه - ﷺ - سألهم فسكتوا ، فنزل : ﴿ قل حسبي الله ... ﴾^(١) .
 أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد عليهم وفى السخرية من آلهتم : الله - تعالى - الخالق لكل شيء ، كافى فى جميع أمورى ، وعاصمى من كيدكم وكيد من توهمون كيده ، وعليه وحده لا على غيره يتوكل المتوكلون ، لعلمهم أن كل ماسواه تحت ملكوته وقدرته .

ثم أمره - سبحانه - مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهدهم فقال : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ . أى : وقل لهم للمرة الثالثة : اعملوا ماشتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بأهنتكم .

والمكانة مصدر مكن - ككرم - ، يقال : مكن فلان من الشيء مكانة ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن .

أى : اعملوا ما فى إمكانكم عمله معى . والأمر للتهديد والوعيد .
 ﴿ إني عامل ﴾ أى : إني سأقابل عملكم السيئ بعمل أحسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق .

﴿ فسوف تعلمون ﴾ من منا الذى سينجح فى عمله ، ومن منا سيأتيه عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة . فالمراد بالعذاب المخزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة .

ولقد تحقق ماتوعدهم - سبحانه - به ، حيث أنزل عليهم عقابه فى بدر وفى غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه منهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ... ﴾ .

أى : إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - القرآن لأجل منفعة الناس ومصلحتهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

﴿ فمن اهتدى ﴾ إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق المبين فهدايته تعود إلى نفسه ﴿ ومن ضل ﴾ عن الطريق المستقيم ، فإثم ضلاله . إنما يعود على نفسه وحدها .

﴿ وما أنت عليهم ﴾ يا محمد ﴿ بوكيل ﴾ أى : بمكلف بهدايتهم ، وبإجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته فقال - تعالى - : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ... ﴾

أى : الله - بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين انتهاء آجالها بأن يقطع تعلقها بالأجسام قطعاً كلياً ، ويسلب هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها ، بأن تصير أجساماً هامدة لا إدراك لها . ولا حركة فيها .

وقوله - تعالى - : ﴿ والتي لم تمت في منامها ﴾ معطوف على الأنفس ، أى : يسلب الحياة عن الأنفس التى انتهى أجلها سلباً ظاهراً وباطناً ، ويسلب الحياة عنها سلباً ظاهراً فقط فى حال نومها . إذ أنها فى حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم التمييز والتصرف .

فالأية الكريمة تشير إلى أن التوفى للأنفس أعم من الموت ، إذ أن هناك وفاتين . وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن طريق النوم . كما قال - تعالى - ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل .. ﴾ أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى انقطاع الإدراك والإحساس ..

وقوله - تعالى - : ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ بيان لحالة الأنفس التى انتهى أجلها ، والتى لم ينته أجلها بعد .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين الموت ، وحين النوم ، أما الأنفس التى انتهت أجلها فيمسك - سبحانه - أرواحها إمساكاً تاماً بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن وقت موتها ، فإن الله - تعالى - يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها ، وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه - تعالى - فإذا ما انتهى أجلها الذى حدده - سبحانه - لها ، خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تاماً ، كما هو الشأن فى الحالة الأولى .

ولاشك أن الله - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر أيضاً - على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة .

فالأية الكريمة مسوقة لبيان كمال قدرة الله - تعالى - وليبين أن البعث حق ، وأنه يسير على قدرة الله التى لا يعجزها شيء .

ولا منافاة بين هذه الآية التى صرحت بأن الله - تعالى - هو الذى يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله - تعالى - : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت .. ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ حقى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ... ﴾ لأن المتوفى فى الحقيقة هو الله - تعالى - وملك الموت

إنما يقبض الأرواح بإذنه - سبحانه - ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله - عز وجل - .

قال القرطبي: « فإذا قبض الله الروح في حاليْن : في حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبس عنه التصرف فكأنه شيء مقبوض . وما يقبضه في حال الموت فهو يسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة .

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وانفراده بالآلوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيي ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه ^(١) .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يعود إلى المذكور من التوفي والإمساك والإرسال .

أى : إن في ذلك الذى ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه وأخبرناهم به .

ثم نعى - سبحانه - على الكفار غفلتهم وعدم تفكيرهم فقال : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ﴾ .

و « أم » هنا بمعنى بل والهزمة ، والاستفهام للإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التى زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة .

والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكير والتدبر في دلائل وحدانيته وقدرته - سبحانه - ولم يلتفتوا إلى ما ينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - مرشدا ومنبها : أتفعلون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها ؟

ثم أمر - سبحانه - رسوله ﷺ - أن يبين لهم أن الله - تعالى - هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا .. ﴾ .

أى : قل لهم : الله - تعالى - هو المالك للشفاعة كلها ، وأهلتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك ، بل أنتم وأهلتكم - أيها المشركون - ستكونون وقودا لنار جهنم .

وهو سبحانه - : ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ملكا تاما لا تصرف لأحد في شيء منها معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه .

﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازي الذين أساءوا بما عملوا ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المشركين ، عندما يذكر - سبحانه - وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا في هذا اليوم ما في الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموه فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة .. فقال - تعالى - :

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
 قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ
 دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
 فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فِدَاءَ لَهُ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
 وَبَدَأَهُم سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ
 نِعْمَةٌ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِن
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
 وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا

وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ اشمازت .. ﴾ أى : نفرت وانقبضت وذعرت ، مأخوذ من الشَّمَز ، وهو نفور النفس مما تكرهه .

قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين وهو أنك إذا ذكرت الله وحده .. ظهرت آثار النفرة في وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح .. وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادة ، وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات .. «^(١)» .

أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إذا ذكرت الله - تعالى - وحده ، ونسبت إليه ما يليق به - سبحانه - من وحدانيته وقدرته .. دون أن تذكر معه الأصنام اشمازت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجاهلاء ، أما إذا ذكرت آلهتهم سواء أذكرت الله - تعالى - معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويبتهجون ..

والتعبير بالاشمئزاز والاستيثار ، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية في الأمرين ، فهم عند ذكر الله - تعالى - تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها غما وهما وانقباضا وذعرا . وعند ذكر أصنامهم تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها - أيضا - بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم .. وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية - أيضا - في الجهالة والسفاهة والغفلة .. وهذا الذى ذكرته الآية الكريمة من اشمئزاز الكافرين عند ذكر الله - تعالى - واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس ..

فكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله - تعالى - وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه .. انقبضت نفوسهم ، واكفهرت وجوههم ، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك .

أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات والنظم التى هى من صنع البشر - استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم ..

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفورا ﴾^(٢) .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٦ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٢٥٨ .

قال الآلوسی : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله - تعالى - بها المشركين ، همشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم .. وينقبضون من ذكر الله - تعالى - وحده - ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه - عز وجل - وسرد ما يدل على مزيد عظمتة وجلاله . وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره .. «^(١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يلتجئ إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين ، وأن يفوض أمره إليه ، فقال - تعالى - ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .
ولفظ : ﴿ اللهم ﴾ أصله يا الله . فلما استعمل دون حرف النداء . عوض عنه بالميم المشددة التي في آخره .

ولفظ « فاطر ، وعالم » منصوبان على النداء .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء المشركون من جهل وسفه ، يا الله ، يا خالق السموات والأرض ويا عالم الغائب والمشاهد . والحفي والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذي تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا ، فتجازي كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فاهدني إلى صراطك المستقيم ، وجنبي الشرك والمشركين . فالمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - ﷺ - عما فعله المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم . وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله - تعالى - وحده - لدفع كيد أعدائه عنهم .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة : بأي شيء كان رسول الله - ﷺ - يفتح صلاته إذا قام من الليل ؟

قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .. »^(٢) .

(١) راجع تفسير الآلوسی ج ٢٤ ص ٦٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٦٦ .

وقال صاحب الكشف : « بعل - بكسر العين - أى : دهش وفزع رسول الله - ﷺ - من شدة شكيمتهم في الكفر ، فقيل له : « ادع الله بأسمائته الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم ». وفيه وصف لحالم ، وإعذار لرسول الله - ﷺ - وتسلية له ، ووعد لهم ..^(١) .

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - بين - سبحانه - هؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمازت قلوبهم .. بين لهم ما لهم من سوء المصير فقال : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه ، لاقتلوا به من سوء العذاب يوم القيامة .. ﴾ .
أى : أن العذاب المعد هؤلاء المشركين شيء رهيب ، ولو أن لهم جميع ما أعد في الأرض من خيرات ، ولهم - أيضا - مثل ذلك منضيا إليه ، لقدموه فداء لأنفسهم ، أملا في النجاة من سوء العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .

فالأية الكريمة وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتنبئ لهم من النجاة ليس بعده تنبئ . ومن الآيات الكثيرة التى وردت في هذا المعنى قوله - تعالى - ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم ﴾^(٢) .
ثم هددهم - سبحانه - بتهديد آخر فقال : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ .

أى : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا في الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن واردا في حسابهم .

قال صاحب الكشف : وقوله - تعالى - ﴿ وبدا لهم من الله .. ﴾ وعيد لهم بعذاب مادروا كنهه لفظاعته وشدته ، وهو نظير قوله - تعالى - في الوعد : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .. ﴾ .

والمعنى : وظهر من سخط الله وعذابه ، ما لم يكن قط في حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم .

وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هى سيئات .

وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء . ويل لأهل الرياء .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٣٢ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

وجزع بعض الصالحين عند موته ، فسئل عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسبه ، ثم قرأ هذه الآية «^(١)» .

ثم تهديد ثالث يتمثل فى قوله - تعالى - : ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التى اكتسبوها فى دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم . و « ما » موصولة أو مصدرية .

أى : وظهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم يوم القيامة ، الذى عملوه واكتسبوه فى الدنيا من رذائل ﴿ وحاق بهم ﴾ أى : وأحاط ونزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى حياتهم ويتهاكمون بمن كان يحذرهم منه فى الدنيا .

وبعد هذا التصوير الرهيب لمصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تناقضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عن خلق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقها هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره وتشتتمز قلوبهم عند ذكره وحده .

وهم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك فهم عند نزول الشدائد بهم ، ينسون تلك الآلهة ويتجهون إلى الله - تعالى - وحده بالدعاء .

لنستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى أحوالهم فى السراء والضراء فتقول : ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ... ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا هو جنس الكفار ، بدليل سياق ، الآيات وسباقها ويصح أن يراد به جنس الإنسان عموماً ، ويدخل فيه الكفار دخولاً أولياً .

أى : فإذا أصاب الإنسان ضر ، من مرض أو فقر أو نحوهما ، دعانا قاعداً أو قائماً . لكى نكشف عنه ما نزل به من بلاء .

﴿ ثم إذا حولناه نعمة منا .. ﴾ أى : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضر وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره إلى غنى .

﴿ قال ﴾ هذا الإنسان الظلوم الكفار ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ منى بوجوه المكاسب ، أو على علم منى بأن سأعطى هذه النعمة ، بسبب استعدادى واجتهادى وتفوقى فى مباشرة

الأسباب التي توصل إلى الغنى والجاه .

وقال - سبحانه - : ﴿ خولناه ﴾ لأن التحويل معناه العطاء بدون مقابل ، مع تكراره مرة بعد مرة .

وجاء الضمير في قوله ﴿ أوتيته ﴾ مذكرا مع أنه يعود إلى النعمة . لأنها بمعنى الإنعام .
أى : إذا خولناه شيئا من الإنعام الذى تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم ونبوغ عندى .

وقوله - تعالى - ﴿ بل هى فتنة ﴾ رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد عما تفوه به .
أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه - كما زعم - وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا عليه ، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له ، ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد .
﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يفتن إليها إلا من استنارت بصيرته ، وطهرت سريره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة من قوله . ﴿ إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ . على معنى أنهم يشمئزون من ذكر الله ، ويستبشرون بذكر الآلهة . فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينها من الآى اعتراض ..^(١) .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ للجاحدين السابقين ليعتبر بهم اللاحقون فقال : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ قالها ﴾ يعود إلى ما حكاه - سبحانه - عن هذا الإنسان الجاحد من قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ .

فهذه الكلمة قد قالها قارون عندما نصحه الناصحون ، فقد رد عليهم بقوله ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ فكانت نهايته أن خسف الله به وبداره الأرض .

أى : قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك .
والذين يشبهونهم فى البطر والكند ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئا ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٤ .

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا .. ﴾ أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذى يستحقونه بسبب سيئاتهم التى اكتسبوها واقتروها فى دنياهم .

فالكلام على حذف مضاف . أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم بأن أنزل الله - تعالى - بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى .

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - .

﴿ سيصيبهم ﴾ - أيضا - سيئات ما كسبوا ، كما أصاب الذين من قبلهم .

﴿ وما هم بمعجزين ﴾ أى : وما هم بفاتنين أو هاربين من عذابنا .

﴿ أولم يروا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى : أعموا عن التفكير والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مشيئته وحكمته - سبحانه - إذ سعة الرزق ليست دليلا على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلا على غضبه .

﴿ إن فى ذلك ﴾ الذى ذكرناه ﴿ لآيات ﴾ واضحات ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ بالحق ويستجييون له ، وينتفعون بالهدايات التى نسوقها لهم .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكمل تصوير ، كما بينت ما أعد لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق . ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفرته ، وأمرهم أن يتوبوا إليه توبة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت والحساب ، فقال - تعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ

بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتَىٰ

عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾
 أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
 أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَءٍ إِلَيْنَا فَكَذَّبْتَ بِهَا
 وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . روايات منها : ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة . تواعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضأة بنى غفار - أى : غدير بنى غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله - عز وجل - وأمنوا برسوله - ﷺ - ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم - أيضاً - يقولون هذا في أنفسهم . فأنزل الله - عز وجل - في كتابه : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم .. ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ .

قال ابن عمر : فكبتها بيدي ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله - ﷺ - (١) .

والأمر في قوله - تعالى - : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ موجه إلى الرسول - ﷺ - وإضافة العباد إلى الله - تعالى - للتشريف والتكريم .

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، وأشهر ما يكون استعمالاً في الإنفاق ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ يا بني آدم خفوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٦٨ ، تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٥ .

والمراد بالإسراف هنا : الإسراف في إقتراف المعاصي والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين . وعلى الفعل « أسرفوا » يعلى ، لتضمنه معنى الجنائية ، أى جنوا على أنفسهم . والقنوط : اليأس ، وقطعه من بابى ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشيء ، أى يائس من ذلك ولا أمل له في تحقيق ما يريده .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لمبادئ المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم بارتكابهم للمعاصي ، قل لهم : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم .

وجملة « إن الله يغفر الذنوب جميعا » تعليلية . أى : لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - لأنه هو الذى تفضل بمحو الذنوب جميعها . لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة .

﴿ إنه ﴾ - سبحانه - ﴿ هو الغفور الرحيم ﴾ أى : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضلا منه وكرما ، وإن ما توا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيتته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضلهم وكرمه .

أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا في الإسلام ، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام لأن الإسلام يحبب ما قبله .

وإن ما توا على كفرهم فلن يغفر الله - تعالى - لهم ، لقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

قال الإمام الشوكاني : واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لا شتاها على أعظم بشارة ، فإنه أولا : أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد تبشيرهم . ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي .. ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة .. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : ﴿ إن الله يغفر الذنوب .. ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفرادها ، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك .

ثم لم يكف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ﴿ جميعا ﴾ فياها من بشارة ترتاح لها النفوس .. وما أحسن تطليل هذا الكلام بقوله : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم .. ﴾ (١) .

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة ،

منها إقباله عليهم ، ونداؤهم ، ومنها : إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها : الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، في قوله : ﴿ من رحمة الله ﴾ ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسبائه الحسنی ، ومنها : إعادة الظاهر بلفظه في قوله : ﴿ إن الله يغفر ﴾ ومنها : إبراز الجملة من قوله : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ مؤكدة بأن ، والفصل ، وإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة .

وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى^(١) .

وبعد أن فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما .. أتبع ذلك بعضهم على التوبة والإنابة إليه ، حتى يزيدهم من فضله وإحسانه فقال : ﴿ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

أى قل لهم - أيها الرسول الكريم - لا تغنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، وارجعوا إليه بالتوبة والإنابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذى لا تستطيعون دفعه ثم لا تجدون من ينجيكم منه .

فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية فحثتهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله - تعالى - بهم أكمل وأتم وأوسع ، فإن التوبة النصوح سبب في تحويل السيئات إلى حسنات . كما قال - تعالى - : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ﴾^(٢) .

ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم ونواهيه فقال : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ .

أى : واتبعوا هذا القرآن الكريم ، الذى هو أحسن ما أنزله - سبحانه - إليكم ، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية ، ومن تشريعات حكيمة . ومن آداب قوية .

فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات . يؤدى إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ متعلق بالأمر بالاتباع ، وإرشاد إلى وجوب الامتنال بدون تأخير أو تسويف .

(١) حاشية المجلد على الجلالين ج ٣ ص ٦٠٥ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٠ .

أى : سارعوا إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن ، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون مقدمات ، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله .

فالأية الكريمة تقرير وتأکید لما قبلها : من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح . وقوله : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ في موضع المفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف .

أى : اتبعوا ما أمرناكم به ، واحذروا ما نهيناكم عنه ، كراهة أن تقول نفس يوم القيامة ﴿ يا حسرتا ﴾ أى : يا ندامتى ﴿ على ما فرطت في جنب الله ... ﴾ أى : بسبب تفريطى وتقصيرى في طاعة الله ، وفي حقه - تعالى - .

وأصل الجنب والجنب : الجهة المحسوسة للشيء ، وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز ، حيث شبهت بالجهة . بجامع تعلق كل منها - أى الجانب والطاعة - بصاحبه . إذ الطاعة لها تعلق بالله - تعالى - . كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم نكرت « نفس » ؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يكون نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

دعا قومه حولى فجاءوا لنصره وناديت قوما بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بجوه أثنى كريم يتفض الرأس مغضبا

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا .. (١) .

وجملة : ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ في محل نصب على الحال . أى : فرطت في جنب الله وطاعته ، والحال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين باتباع هذا الدين الحق .

قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة أخرى مما تقوله تلك النفس فقال : ﴿ أو تقول لو أن الله هداني ﴾ إلى طاعته واتباع دينه ﴿ لكنت من المتقين ﴾ للشرك والمعاصي ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يفضيه - سبحانه - ولا يرضيه .

ثم ذكر - سبحانه - مقالة ثالثة لها فقال : ﴿ أو تقول ﴾ هذه النفس ﴿ حين ترى العذاب ﴾ . في الآخرة ﴿ لو أن لى كرة ﴾ أى رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون ﴾ فيها ﴿ من

المحسنين ﴿ لأقوالهم وأفعالهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العبادة لله - تعالى - وأطيعه في السر والعلن .

وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس في الآخرة ، تصويراً مؤثراً بليغاً ، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذي ينفعه في ذلك اليوم الهائل الشديد .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ رد منه - عز وجل - على هذا القائل : ﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ وتكذيب له في هذه الدعوى .

والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام ، وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .

أى ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لم يهدك الى الطريق القويم ، بل الحق أن الله - تعالى - قد أرشدك إليه عن طريق إرسال رسوله ، وإنزال كتابه ، ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت في دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب في الآخرة بسبب أعمالك القبيحة في الدنيا .

قال الشوكاني : وجاء - سبحانه - بخطاب المذكر في قوله : « جاءتك ، وكذبت واستكبرت ، وكنت » لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب . نفس واحد . أى ، إنسان واحد .. (١) .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - الجواب الذي يرد به على المشركين . وعن أحوال الناس عند النفخ في الصور .. قال - تعالى - .

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا

بِمَقَارَتِهِمْ لَّا يَمْسُهُمْ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ

خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مُقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ
هُمْ الْخَسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ
أَشْرَكَتَ لِي حَبْطُ عَمَلِكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ
فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ
بِالْبَيْتِينَ وَالشَّهَادَةِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .. ﴾ بيان
لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزي وهوان .

أى : وفي يوم القيامة إذا نظرت - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - إلى وجوه
الذين كذبوا على الله ، بأن أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا ..
إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من
أحوال .

وقوله : ﴿ وجوههم مسودة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهى فى محل نصب على الحال من

الذين كذبوا .. والاستفهام في قوله : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ للتقرير .
والمثوى : المكان والمقام .

يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله - تعالى - :
﴿ وما كنت ثاويا في أهل مدين ﴾ .

أى : أليس في جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ، بسبب تطاولهم على غيرهم ،
وتكذيبهم لآيات الله ؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم .

ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه لحال الذين كذبوا على الله ،
فقال : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .
ومفازتهم : اسم مصدر . أو مصدر ميمي . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به ، ونال مراده
منه .

أى : وينجى الله - تعالى - بفضلته ورحمته ، ﴿ الذين اتقوا ﴾ الشرك والمعاصى من
عذاب جهنم ، ﴿ بمفازتهم ﴾ أى : بسبب فوزهم برضا الله - تعالى - ورحمته ، جزاء إيمانهم
وتقواهم ، وقرأ حمزة والكسائى ﴿ بمفازاتهم ﴾ بالجمع .

ويصح أن تكون الباء في قوله : ﴿ بمفازتهم ﴾ للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف
هو حال من الذين اتقوا . أى ينجيها حالة كونهم متلبسين .
وقوله : ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ يجوز أن يكون تفسيرا لذلك الفوز ، كأنه
قيل : وما مظاهر فوزهم فكان الجواب : لا يمسهم السوء الذى يصيب غيرهم من الكافرين
والعصاة ، ولا هم يحزنون على شيء تركوه خلفهم في الدنيا .

ويجوز أن يكون حالا من الذين اتقوا . أى : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم
السوء ، أى : لا يمسهم شيء مما يكره لا في الحال ولا في الاستقبال ، ولا هم يحزنون على
ما كان منهم في الماضى .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كرم المتقين تكريما عظيما ، حيث نجاهم من عذاب
جهنم . وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم في كل زمان أو مكان .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا علم أنه لا يمس السوء ،
كان فارغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لا يحزن كان هادئ النفس عما وقع في قلبه بسبب
فوات الماضى ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات .

وقد دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة ، وتأكد هذا بقوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر .. ﴾^(١) .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ .

أى : الله - تعالى - هو وحده الخالق لكل شيء في هذا الكون ، وهو - سبحانه - المتصرف في كل شيء في هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيتته .
﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أى : له وحده مفاتيح خزائنها ، والمقاليد جمع مقلاد ، أو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلزام . أى : أنه لا يملك أمر السموات والأرض ، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره - تعالى - .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ : أى : هو مالك أمرها وحافظها ؛ لأن حافظ الخزائن ومدير أمرها ، هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قوله : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، وهى المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل : جمع مقليد .. والكلمة أصلها فارسية .

فإن قلت : ما للكتاب العربى المبين واللفارسية ؟

قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه مهملًا ،^(٢) .
ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ أى : والذين كفروا بآيات الله التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيته ، أولئك هم البالفون أقصى الدرجات فى الخسران .

وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا ﴾ وما بينها اعتراض للدلالة على هيمنة الله - تعالى - على شئون خلقه .. أى : وينجى الله الذين اتقوا بمقازتهم .. والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الكاملون فى الخسران .
وهذه المقابلة فيها مافيهما من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب الأليم للكافرين .
ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - ﷺ - أن يوبخ الكافرين على جهالاتهم . فقال : ﴿ قل أفتغير الله تأمرونى أعبد أىها الجاهلون ﴾ .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٢٦٧ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٤٠ .

وقد ذكروا في سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ - استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، و « غير » منصوب بقوله : ﴿ أعبد ﴾ ، وأعبد معمول لتأمروني على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل التوبيخ والتأنيب : أبعد أن شاهدتهم ما شاهدتم من الآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدقي فيما أبلغه عنه ، أبعد كل ذلك تأمروني أن أعبد غير الله - تعالى - أيها الجاهلون بكل ما يجب لله - تعالى - من تنزيه وتقديس .

ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف المناسب للرد على ما طلبوه . منه - ﷺ - من إشراك آلهتهم في العبادة .

ثم حذر - سبحانه - من الشرك أبلغ تحذير فقال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك ، لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

قال الجمل : قوله : ﴿ ولقد أوحى إليك... ﴾ هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله ﴿ لئن أشركت ﴾ . هذه اللام - أيضا - دالة على قسم مقدر ، وقوله : ﴿ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ كل من هذين اللامين واقعة في جواب القسم الثاني . والثاني وجوابه جواب الأول . وأما جواب الشرط في قوله : ﴿ لئن أشركت ﴾ فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم^(١)

وقوله ﴿ أوحى ﴾ مسلط على ﴿ إليك ﴾ وعلى ﴿ الذين من قبلك ﴾ فيكون المعنى : ولقد أوحى إليك - أيها الرسول الكريم - وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضا لئن أشركت ، بالله - تعالى - على سبيل الفرض ﴿ ليحبطن عملك ﴾ ، أى ليفسدن عملك فسادا تاما ﴿ ولتكونن من الخاسرين ﴾ خسارة ليس بعدها خسارة في الدنيا والآخرة . قال صاحب الكشف : فإن قلت : الموحى إليهم ، جماعة ، فكيف قال : ﴿ لئن أشركت ﴾ على التوحيد ؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٦٠٨ .

قلت : معناه . أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت ليحبطن عملك . كما تقول : فلان كسانا حلة . أى : كل واحد منا .

فإن قلت : كيف صح الكلام مع علم الله - تعالى - أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم .

قلت : هو على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها ..^(١) .

والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب فيه ما فيه من التفسير منه ومن التقييد له ، لأنه إذا كان الرسول - ﷺ - لو وقع في شيء منه - على سبيل الفرض - حبط عمله ، وكان من الخاسرين . فكيف بغيره من أفراد أمته ؟

وقوله - تعالى - : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أمر منه - تعالى - بالثبات على عبادة الله - تعالى - وحده ، وبالمداومة على شكره ، ونهى عن طاعة المشركين ، ولفظ الجلالة منصوب بقوله ﴿ فاعبد ﴾ والفاء جزائية في جواب شرط مقدر .

أى : لا تطع - أيها الرسول الكريم - المشركين فيما طلبوه منك ، بل اجعل عبادتك لله - تعالى - وحده ، وكن من الشاكرين له على نعمه التي لا تحصى .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله - تعالى - قد تجاوزوا حدودهم معه - عز وجل - ، ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

أى : أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره - تعالى - ، ما عظموه حق تعظيمه ، وما أعطوه ما يستحقه - سبحانه - من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته . وكال قدرته . فقال : ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ﴾ .

والقبضة : المرة من القبض ، وتطلق على المقدار المقبوض بالكف . ومطويات أى : مجموعات تحت قدرته وملكه ، كما يجمع الكتاب المطوى ، والجملة الكريمة حال من لفظ الجلالة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه ، حيث أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى هى من مخلوقاته ، والحال أنه - سبحانه - هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالهما في الدنيا ، وهو المتولى لتبديلها أو إزالتها في الآخرة ، فالأرض كلها مع عظمتها

وكتافتها تكون يوم القيامة في قبضته وتحت قدرته ، كالشيء الذى يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها واتساعها ، تكون مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه ، كما يطوى الواحد منا الشيء الهين القليل بيمينه ، وما دام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره في العبادة ؟

فالمقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته - سبحانه - وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطاس بصيرة حين أشركوا معه في العبادة غيره .

قال صاحب الكشف : والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعته ، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ...^(١) .

وقال الآلوسى : والكلام في هذه الآية عند كثير من الخلف ، تمثيل لحال عظمته - تعالى - ونفاذ قدرته .. بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعا ، ويمين بها يطوى السموات ، أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض والسموات ، ويمين بها يطوى السموات .

والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - . إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز عن القدرة ، بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبته - تعالى - : إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : جاء خبر من الأخبار إلى النبی - ﷺ - فقال : يا محمد . إنا نجد الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ هذه الآية ..^(٢) .

وقدم - سبحانه - الأرض على السموات لمباشرتهم لها ، ومعرفتهم بحقيقتها . وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا - أيضا - لأن الدعاوى تنقطع في ذلك اليوم . كما قال - تعالى - ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ .
روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يطوى الله

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٢٦ .

السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض .

وقوله - تعالى - : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه له - تعالى - : عما افتراه المفقرون .

أى : تنزهه وتقدس الله - تعالى - عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين .

ثم بين - سبحانه - حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ .

والصور : اسم للقرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - وحقيقته لا يعلمها إلا هو - سبحانه - وقوله ﴿ فصعق ﴾ من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذى يجعل الإنسان فى حالة ذهول شديد حتى وكأنه قد فارق الحياة .

أى : ونفخ فى الصور بأمر الله - تعالى - النفخة الأولى ، فخر ميتا كل من كان حيا فى السموات أو فى الأرض .

﴿ إلا من شاء الله ﴾ له الحياة من أهلها ، قالوا : والمستثنى من الصعق جبريل وإسرافيل وميكائيل . ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى تعيين من استثناه الله - تعالى - : من ذلك ، فالأولى تفويض من استثناه الله من الصعق إلى علمه - عز وجل - .

﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ أى : ثم نفخ فى الصور نفخة أخرى - وهى النفخة الثانية التى يكون بعدها البعث والنشور .

﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أى : فإذا بهؤلاء الذين صعقوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا سيفعل بهم ، أو ينظرون على أى حال سيكون مصيرهم .

فالأية الكريمة تفيد أن النفخ فى الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة مرة أخرى . والمراد بالأرض فى قوله - تعالى - : بعد ذلك : ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها .. ﴾ أرض المحشر .

وأصل الإشراق : الإضاءة . يقال : أشرق الشمس إذا أضاءت ، وشرق : إذا طلعت . قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها ﴾ أى : أضاءت - الأرض - يوم

القيامة ، إذا تجلّى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء^(١) .

والمراد بالكتاب في قوله - تعالى - ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ ﴾ صحائف الأعمال التي تكون في أيدي أصحابها .

فالمراد بالكتاب جنسه ، أى : أعطى كل واحد كتابه إما يمينه . وإما بشماله . وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذى فيه أعمال الخلق .

﴿ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحائف أعماله جِئَءَ بالنبيين لكي يشهدوا على أعمهم أنهم بلغوهم ما كلفهم الله بتبليغه إليهم ، وجِئَءَ بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ . وقيل المراد بهم : من استشهدوا في سبيل الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدالته في جمل حكمة فقال : ﴿ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أى : وقضى - سبحانه - بين الجميع بقضائه العادل ﴿ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴾ أى : نوع من الظلم . ﴿ وَوَفَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى : وهو - سبحانه - عليم بما يفعلونه من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ، بل هو - تعالى - يعلم السر وأخفى .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين ، وبيان مصير المتقين . وبيان ما يقوله المتقون عندما يرون النعيم المقيم الذى أعدّه - سبحانه - لهم ، فقال - تعالى - :

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿ ٧١ ﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ

الْجَنَّةَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
 خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾
 وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
 نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾
 وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
 رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ وسبق ﴾ من السوق بمعنى الدفع ، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و ﴿ زمرا ﴾ أى : جماعات متفرقة بعضها فى إثر بعض . جمع زمرة وهى الجماعة القليلة ، أى : وسبق الذين كفروا إلى نار جهنم جماعات جماعات ، وأفواجا أفواجا .
 ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ لتستقبلهم بحرهما وسعيرها ، وكأنها قبل مجيئهم إليها كانت مغلقة كما تغلق أبواب السجون ، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها بسبب جرائمهم .
 ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ على سبيل الزجر والتأنيب ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أى : من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه لكم .

وهؤلاء الرسل ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ المنزلة لمنفعتكم ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : ويخوفونكم من أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة .

﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أى : قالوا فى جوابهم على سائلهم : بلى قد أتانا الرسل وبلغونا رسالة الله ، ولكننا لم نطعمهم ، فحققت كلمة العذاب علينا ، ووجبت علينا كلمة الله التى قال فيها : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .
 وهنا رد عليهم السائلون بقولهم : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، خلودا أبديا ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى : فبئس المكان المعد للمتكبرين جهنم .

وبعد هذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البيان الذى يشرح الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال - تعالى - : ﴿ وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ أى : جماعات . قال الألوسى : أى : جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الفضل .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتى على صورة القمر ليلة البدر » .

والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، واختير للمشاكلة ..^(١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعد لهؤلاء المتقين من نعيم مقيم فقال : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .
والواو في قوله ﴿ وفتحت ﴾ للحال ، والجمله حالية بتقدير قد ، وجواب ﴿ إذا ﴾ مقدر بعد قوله ﴿ خالدين ﴾ .

أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم ، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم من جميع المكابر ، طبتم من دنس المعاصي ، فادخلوها خالدين أى : حتى إذا جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا .

قال صاحب الكشف ما ملخصه : وحتى هنا هي التي تحكى بعدها الجمل . والجمله المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أن جزاءها محذوف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف . وحتى موقعه ما بعد « خالدين » .

وقيل : حتى إذا جاءوها ، جاءوها وفتحت أبوابها . أى : مع فتح أبوابها ..^(٢) .
ثم بين - سبحانه - ما يقوله المتقون عند دخولهم الجنة على سبيل الشكر لله - تعالى - : فقال : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ بأن بعثنا من مرقدنا ، ومنحنا المزيد من عطائه ونعمه ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أى : أرض الجنة التي استقروا فيها .
﴿ نتبأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أى : ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع .

﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ الجنة التي منحها - سبحانه - لعباده المتقين .
﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أى : محققين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه . جمع حَافٍ وهو المحدث بالشئ . يقال : حففت بالشئ إذا أحطت به ، مأخوذ من الحَفَاف وهو الجانب للشئ .

(١) تفسير الألوسى ج ٢٤ ص ٣٣ .

(٢) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٤٧ .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أى : يجعلون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء .
 ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أى : وقضى - سبحانه - بين العباد بالحق الذى لا يحوم حوله
 باطل . ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساءوا بما
 عملوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى .

وبعد . فهذا تفسير محرر لسورة « الزمر » نسأل الله - تعالى - : أن يجعله خالصا
 لوجهه ، ونافعا لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
 وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر -

مساء الخميس ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ

الموافق ١٢ / ٩ / ١٩٨٥ م .

نفسير
سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « غافر » هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة التاسعة والخمسون من السور المكية ، وكان نزولها بعد سورة « الزمر » .
ويبدو - والله أعلم - أن الحواميم ، كان نزولها على حسب ترتيبها في المصحف ، فقد ذكر صاحب الإتيان عند حديثه عن المكي والمدني من القرآن ، وعن ترتيب السور على حسب النزول ..

ذكر سورة الزمر ، ثم غافر ، ثم فصلت ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف^(١) .

٢ - والمحققون من العلماء على أن سورة « غافر » من السور المكية الخالصة ، وقد حكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، كما أن الإمام ابن كثير قال عنها بأنها مكية دون أن يستثنى منها شيئاً .

وقيل : كلها مكية إلا قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ... الآية ﴾ .

ولكن هذا القليل وغيره لم تنهض له حجة يعتمد عليها ، فالرأى الصحيح أنها جميعها مكية .

٣ - وهذه السورة تسمى - أيضاً - بسورة « المؤمن » لاشتغالها على قصة مؤمن آل فرعون . كما تسمى بسورة « الطول » لقوله - تعالى - في أوائلها : ﴿ غَافِرَ الذَّنْبِ ، وَقَابِلَ التَّوْبِ ، شَدِيدَ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ ... ﴾ .

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي والشامي ، وأربع وثمانون في الحجازي ، واثنان وثمانون في البصري ..

٤ - وسورة « غافر » هي أول السور السبعة التي تبدأ بقوله - تعالى - ﴿ حَمْدٌ ﴾ والتي يطلق عليها لفظ « الحواميم » .

(١) راجع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧ .

وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار في فضل هذه السور ، منها : ما روى عن ابن مسعود أنه قال : « آل حم » ديباج القرآن .. ومنها ما روى عن ابن عباس أنه قال : « إن لكل شيء لبابا ، وللباب القرآن آل حم » أو قال « الخواميم »^(١) .

٥ - وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، وبتسليية الرسول - ﷺ - عا لقيه من أذى المشركين ومن جداهم ، وبينان وظيفة الملائكة الذين يحملون عرشه - تعالى - ، وأن منها الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ ... ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٦ - ثم دعا - سبحانه - عباده إلى إخلاص الطاعة له ، وذكرهم بأحوال يوم القيامة ، وأن الملك في هذا اليوم إنما هو الله - تعالى - وحده .

قال - تعالى - : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

٧ - وبعد أن وبخ - سبحانه - الفاقلين على عدم اعتبارهم بسوء عاقبة من سبقهم من الكافرين ، أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون ، وحكى ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة من محاورات .

كما حكى ما وجهه الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه من نصائح حكيمة ، منها قوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

٨ - وبعد أن ساق - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة التي وجهها ذلك الرجل المؤمن - الذي يكتم إيمانه - إلى قومه .. أتبع ذلك بحكاية جانب من المحاورات التي تتور بين الضمءاء والمتكبرين بعد أن ألقى بهم جميعا في النار .

كما حكى - سبحانه - ما يقولونه لخزنة جهنم على سبيل الاستعطاف والتذلل فقال : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أولم تك تأتيتكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

٩ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، لكي يشكروه عليها ، ومن تلك النعم : إيجاده الليل والنهار ، وجعله الأرض قرارا والسماء بناء ، وتصويره الناس في أحسن تقويم ، وتحليله لهم الطيبات ، وخلقهم لهم في أطوار متعددة .

قال - تعالى - : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ .

١٠ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ، فوبختهم على جهالاتهم وعنادهم ، وهدتهم بسوء المصير ، وأمرت النبي - ﷺ - أن يصبر على أذاهم ، وذكرته بأحوال الرسل السابقين مع أقوامهم ، وأندرت مشركى مكة بأن مصيرهم سيكون كمصير المشركين من قبلهم ، إذ ما استمروا في طغيانهم وكفرهم ، وأنهم لن ينفعهم الإيمان عند حلول العذاب بهم .

قال - تعالى - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

١١ - هذا ، والمتدبر في سورة « غافر » بعد هذا العرض المجلل لآياتها يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كما يراها قد ساقَت ألوانا من التسليّة للرسول - ﷺ - عما لحقه من قومه ، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

كما يراها قد فصلت الحديث عن تكريم الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم ، وتضرعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم .

قال - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ .

وتارة عن طريق وعدهم بإجابة دعائهم ، كما في قوله - تعالى - : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

كما يراها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين ، بأسلوب يغرس الخوف في القلوب ، ويبعث على التأمل والتدبر .

كما في قوله - تعالى - : ﴿ كَذِبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمَ نوحَ الْأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، فَأَخَذْتَهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۙ ﴾ .
وكما في قوله - تعالى - : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۙ ﴾ .

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر في إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وفي تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر ، وفي تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم ، نراه متمثلاً في تلك النصائح الغالية التي وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه ، والتي حكاها القرآن في قوله ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ، أَتَقْتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكْذِبْ فَاعْلَمْتُمْ أَنَّهُ كَاذِبٌ كَذِبٌ ، وَإِنْ يَكْذِبْ فَاعْلَمْتُمْ أَنَّهُ كَاذِبٌ كَذِبٌ ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بتوجيهات القرآن الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوي

القاهرة - مدينة نصر

مساء الجمعة : ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٤٠٥ هـ / ١٣ / ٩ / ١٩٨٥ م

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ
 الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
 فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ④ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ
 لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
 فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
 الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑥

سورة « غافر » من السور التي افتتحت ببعض الحروف المقطعة ، وهو قوله - تعالى - :

﴿ حَمَّ ﴾ .

وقد ذكرنا آراء العلماء في تلك الحروف المقطعة بشيء من التفصيل ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ..

وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد جرى بها في افتتاح بعض السور : على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأنه - سبحانه - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوماً من حروف هي

من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك في أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعبثوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزيل الكتاب من الله ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، أى : هذا الكتاب منزل عليك - أيها الرسول الكريم - من الله - تعالى - وحده ، وليس من عند أحد غيره . ثم وصف - سبحانه - ذاته بثاني صفات تليق بذاته فقال : ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب لكل من سواه ، من العزم بمعنى القوة والغلبة . يقال : عزَّ فلان يعز - من باب تعب - فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم : أرض عزاز إذا كانت صلبة قوية . ﴿ العليم ﴾ أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شيء منها .

﴿ غافر الذنب ﴾ أى : سائر لذنوب عباده ، ومزيل لأثرها عنهم بفضلهم ورحمته . فلفظ ﴿ غافر ﴾ من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال : غفر الله - تعالى - ذنب فلان غَفْرًا ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره وعفا عنه .

ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته ، مأخوذ من ذنب الشيء ، أى : نهايته ﴿ وقابل التوب ﴾ والتوب مصدر بمعنى الرجوع عن الذنب والتوبة منه . يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبا إذا رجع عنه .

أى : أنه - سبحانه - يغفر ذنوب عباده ، ويقبل توبتهم فضلا منه وكرما .

قال صاحب الكشف : ما بال الواو في قوله ﴿ وقابل التوب ﴾ ؟

قلت : فيها نكتة جليلة ، وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها حجة للذنوب ، كأنه لم يذنب . كأنه قال : جامع المغفرة والقبول ..^(١)

﴿ شديد العقاب ﴾ أى : لمن أشرك به ، وأعرض عن الحق الذى جاء به الرسول - ﷺ - ﴿ ذى الطول ﴾ أى : ذى الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده .

والطُّول : السعة والغنى والزيادة ، يقال : لفلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطُّول في الجسم لأنه زيادة فيه . قال - تعالى - : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا .. ﴾ أى : غنى وسعة .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى : لا إله بحق وصدق إلا هو - سبحانه - .
 ﴿ إليه المصير ﴾ أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم في الدنيا .

قال القرطبي : روى عن عمر بن الخطاب - رضى عنه - أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع في هذا الشراب .
 فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ إليه المصير ﴾ .

ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا . ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرؤه ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر ذلك قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحداكم قد زل زلته فسدوده وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه ^(١) .

ثم هون - سبحانه - على نبيه - ﷺ - من شأن الكافرين ، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغرك تقلبهم في البلاد ﴾ . والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل الوصول إلى الحق فمحمود . وقوله : ﴿ فلا يغرك ﴾ جواب لشروط محذوف . والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .

أى : ما يجادل في آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها والطعن فيها .. إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا يغرك - أيها الرسول الكريم - تقلبهم في البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق التجارات الرابحة ، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ستزول هذه الأموال من بين أيديهم ، وستكون عليهم حسرة ..

﴿ كذبت قبلهم ﴾ أى : قبل هؤلاء الكافرين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ قوم نوح ﴾ الذين أغرقناهم بسبب هذا التكذيب لنبيهم .

﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أى : وكذلك الأقوام الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، وكما فعل قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب ..

فالضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ من بعدهم ﴾ يعود إلى قوم نوح . وأفردهم - سبحانه - بالذكر لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ولم يزداهم دعاؤه لهم إلا عتوا ونفورا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ بيان لما فعله هؤلاء الأقوام الظالمون مع أنبيائهم الذين جاءوا لهدايتهم .. أى : أن هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم ، بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه بالأسر أو بالقتل ، وجادلتها بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذى جاء به من عند ربه وتبطله .

والتعبير بقوله : ﴿ ليأخذوه ﴾ يشعر بأن هؤلاء المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ بيان لما آل إليه مكرهم وجداهم بالباطل .

أى : هوبا بما هوبا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا فكيف كان عقابي لهم ؟ لقد كان عقابا مدمرا ، جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ .

أى : وكما حقت كلمة ربك - أيها الرسول الكريم - ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التى كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقودا للنار ، فكذلك تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك ، إذا ما استمروا فى تكذيبهم لك ، ولم يعودوا إلى طريق الحق .

فآيات الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - وتحذير لمشركى قريش من الاستمرار فى غيهم .

ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين ، وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشه

من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالخير فقال - تعالى - :

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا
فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

والمراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله - تعالى - ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح في تحديد عددهم .

والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين مسبحين مكبرين لله - تعالى - كما قال - تعالى - : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ... ﴾ .

وعرش الله - تعالى - كما قال الراغب مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن نؤمن بان الله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى الخالق - عز وجل - .

وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية .
والاسم الموصول في قوله - تعالى - : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ مبتدأ . وخبره قوله : ﴿ يسبحون .. ﴾ .

والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسليية النبي - ﷺ - ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم

أقرب الملائكة إلى الله - تعالى - يضمنون إلى تسبيحهم لذاته - سبحانه - ، الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا في صفة هؤلاء الملائكة وفي صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته .

أى : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به ، من صفاتهم أنهم ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أى : يزهون الله - تعالى - عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به .

﴿ ويؤمنون به ﴾ - تعالى - إيماننا تاما لا يشوبه ما يتناقى مع هذا الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون ؟ .

قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، كما عقب أعمال الخير بقوله - تعالى - : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان ^(١) .

ويستغفرون للذين آمنوا ، أى : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم ، وإيمانهم به ، يتضرعون إليه - سبحانه - أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .

وفى هذا الاستغفار منهم للمؤمنين ، إشعار بمحببتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم ، لأنهم مثلهم فى الإيمان بوحدانية - الله تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة والطاعة له .

ثم حكى - سبحانه - كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾ .

والجملة الكريمة على تقدير قول محذوف ، وهذا القول فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يستغفرون ﴾ وقوله ﴿ رحمة وعلما ﴾ منصوبان على التمييز .

أى : أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : ياربنا يا من وسعت رحمتك ووسع علمك كل شيء ، تقبل دعاءنا .

﴿ فَاغْفِر ﴾ بِمَقْتَضَى سَعَةِ رَحْمَتِكَ وَعِلْمِكَ ﴿ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ إِلَيْكَ تَوْبَةً صَادِقَةً نَصُوحًا ﴿ وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ ﴾ الْحَقِّ ، وَصِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .

﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : وَصْنِهِمْ يَارَبَّنَا وَاحْفَظْهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي جَهَنَّمَ لِأَنَّ عَذَابَهَا كَرِبٌ عَظِيمٌ .

يَا ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِكَ دَخُولًا دَائِمًا لَا انْقِطَاعَ مَعَهُ . يُقَالُ : عَدْنٌ فَلَانٌ بِالْمَكَانِ يَعْدُنُ عَدْنًا ، إِذْ لَزِمَهُ وَأَقَامَ فِيهِ دُونَ أَنْ يَبْرَحَهُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الشَّيْءُ الْمَخْزُونُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ بِالْمَعْدَنِ ، لِأَنَّهُ مُسْتَقَرٌّ بِدَاخِلِهَا .
﴿ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ فَضْلًا مِنْكَ وَكَرَمًا .

وَأَدْخَلَ مَعَهُمْ ﴿ مِنْ صَلَاحٍ ﴾ لِدُخُولِهَا بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الطَّيِّبِ ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَزُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ﴾ يَامَوْلَانَا ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِكَ وَأَفْعَالِكَ .

فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاحِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ ﴾ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنًا بَاقٍ ، وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ، وَدَعَا لَهُمْ بِذَلِكَ . لِيَتِمَّ سُرُورُهُمْ وَفَرَحُهُمْ إِذْ وَجَدُوا الْآبَاءَ وَالْأَزْوَاجَ وَالزُّرِّيَّةَ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي الْجَنَّةِ ، يَزِيدُ سُرُورَهُ وَانْشِرَاحَهُ .

﴿ وَقِهِمْ ﴾ يَارَبَّنَا ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ أَيْ : احْفَظْهُمْ يَارَبَّنَا مِنْ ارْتِكَابِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَاتِ ، وَمِنْ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ ، بِأَنْ تَتَجَاوَزَ عَنْ خَطَايَاهُمْ .

﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَجَاوَزَى فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أَيْ : فَقَدْ رَحِمْتَهُ بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ .

﴿ وَذَلِكَ ﴾ الَّذِي تَقْدِمُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمِنْ إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ ، وَمِنْ وَقَايَتِهِمُ السَّوْءَ . ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الَّذِي لَا يُضَارِعُهُ فَوْزٌ ، وَالظَّفَرُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يُقَارِبُهُ ظَفَرٌ ، وَالْأَمَلُ الَّذِي لَا مَطْمَعَ وَرَاءَهُ لَطَامِعٌ .

وَبِذَلِكَ نَرَى هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ ، قَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُقْرِبِينَ يَدْعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَسْعُدُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجْتَهُمْ .

وَكَعَادَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَرْنِ التَّرْغِيبِ بِالتَّرْهِيْبِ أَوْ الْعَكْسِ : جَاءَ الْحَدِيثُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْكَافِرِينَ . مَبِينًا انْقِطَاعَهُمْ عَنْ كُلِّ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ ، أَوْ يَدْعُو لَهُمْ بِخَيْرٍ - كَمَا دَعَا الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ - فَقَالَ - تَعَالَى - :

إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنتَنِّ وَأُحْيَتُنَا أَتُنتَنِّ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا
فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ
اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ
الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

والمقت أشد أنواع البغض والغضب . يقال : مقته مقتا ، إذا غضب عليه غضبا شديدا ،
ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان
فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾ (١) .

والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم الملائكة خزنة النار ، أو المؤمنون . وهذا النداء إنما يكون
يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت .

أى : إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار ، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان
الندامة والحسرة والمقت . لإيثارها الكفر على الإيمان .

بعد كل ذلك ﴿ ينادون ﴾ بأن يقال لهم : إن مقت الله - تعالى - لكم بسبب إصراركم
على الكفر حتى هلكتم .. أشد وأعظم من مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله ﴿ ينادون ﴾ المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون إعظاما
لحسرتهم : ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول ،
كأنه قيل : ينادون مقولا لهم : لمقت .. ومقت مصدر مضاف إلى الاسم الجليل : إضافة المصدر
لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثانى إلى ضمير الخطاب .. (٢) .

(١) سورة النساء الآية ٢٢ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢٤ ص ٥٠ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ تعليل لمقت الله أى : لغضب الله - تعالى - عليكم ، أشد من غضبكم على أنفسكم الأمانة بالسوء وذلك لأنكم جاءكم دعوة الحق على السنة رسلكم ، فأعرضتم عنها ، وصمتم على الكفر والفسوق والعصيان ، حتى أدرككم الموت ، وها أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه فى الدنيا .

ثم يحكى - سبحانه - ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم - سبحانه - عقابه العادل فيقول : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ... ﴾ .

وأرادوا بالموتة الأولى : خلقهم من مادة لا روح فيها وهم فى بطون أمهاتهم .. وأرادوا بالثانية : قبض أرواحهم عند انقضاء آجالهم .

وأرادوا بالحياة الأولى : نفخ أرواحهم فى أجسادهم وهى فى الأرحام ، وأرادوا بالثانية إعادتهم إلى الحياة يوم البعث ، للحساب والجزاء .

وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. ﴾^(١) .

﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ أى : أنت ياربنا الذى - بقدرتك وحدها - أمتنا إمامتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وها نحن قد اعترفنا بذنوبنا التى وقعت منا فى الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم ..

﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أى : فهل بعد هذا الاعتراف ، فى الإمكان أن تخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك حق الإيمان . ونعمل غير الذى كنا نعمل . فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير ، وأنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التمنى والتلهف جاء بعد فوات الأوان .

قال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية كقوله - تعالى - : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ... ﴾ وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية . وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم فى الأرحام . ثم أماتهم يوم القيامة .

وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالوا ثلاث إحياءات وإماتات .

والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ، كما قال - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (١) .

ثم بين - سبحانه - أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا ، فقال : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلى الكبير ﴾ .

أى : ذلكم الذى نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل - ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم في الدنيا ، فأخسأوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذى حكم عليكم بما حكم ..

وهو - سبحانه - ﴿ العلى ﴾ أى : المتعالى عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته ﴿ الكبير ﴾ أى : العظيم الذى هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد .

وجمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار . فقال - تعالى - :

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ

لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى

عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
 الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ
 لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ
 يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾
 وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
 بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
 قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

والمقصود بآياته - عز وجل - في قوله : ﴿ هو الذي يريكم آياته ... ﴾ الدلائل الدالة
 على وحدانيته وقدرته ، كخلقه للشمس والقمر والليل والنهار ، والبحار والأنهار ، والسماء
 والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ، والأشجار الكبيرة والصغيرة .. إلى غير ذلك
 من آياته التي لا تحصى في هذا الوجود ..

أي : هو - سبحانه - الذي يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، لتزدادوا - أيها
 المؤمنون - إيماناً على إيمانكم ، وثباتاً على ثباتكم ، ويقيناً على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة
 والطاعة هو الله الواحد القهار .

وقد ساق - سبحانه - في كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾^(١) .
 وقوله - عز وجل - : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله .. ﴾^(٢) .
 وقوله - تعالى - : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله في السموات والأرض ، لآيات لقوم يتقون ﴾^(٣) .

والمراد بالرزق في قوله : ﴿ وينزل من السماء رزقا ﴾ .. الأمطار التي تنزل من السماء على الأرض ، فتحبيبها بعد موتها ، بأن تحولها من أرض جدياء يابسة ، إلى أرض خضراء بشق الزروع والثمار .

وأطلق - سبحانه - على المطر رزقا . لأنه سبب فيه ، وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات التي يريها - تعالى - لعباده لتفردة بعنوان كونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه ، الموجبة لشكره - عز وجل - ، ولوجوب إخلاص العبادة له .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ بيان لمن هو أهل للانتفاع بهذه الايات .
 أى : وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى الطاعة وعن الكفر إلى الإيمان ، وعن العناد والجحود ، إلى التفكير والتدبر بقلب سليم .

فقوله ﴿ ينيب ﴾ من الإنابة ، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصي : إلى الإيمان والطاعة .

والفاء في قوله - تعالى - : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين .. ﴾ للإفصاح عن شرط مقدر . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شيء في هذا الوجود يدل على وحدانية الله - تعالى - فأخلصوا له العبادة والطاعة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ منكم ذلك - أيها المؤمنون - فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم ، وامضوا في طريق الحق ، ودعوهم يموتوا بغيبهم ..
 وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء .

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٣ .

(٣) سورة يونس الآية ٦ .

ومن الأحاديث التي أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد ، عن أبي الزبير محمد بن مسلم المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال : وكان رسول الله - ﷺ - يهمل بهن دبر كل صلاة^(١) .

ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين في إخلاص العبادة له ، فيقول : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش .. ﴾ أى : هو - تعالى - وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو وحده صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا هو .. قال الآلوسى قوله : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ رفيع صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها من رفيع الشيء إذا علا .. والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش ، أى : رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه .. ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه - عز شأنه - كما أن قوله - تعالى - : ﴿ ذو العرش ﴾ كناية عن ملكه - جل جلاله - ..^(٢) .

والمراد بالروح فى قوله - تعالى - : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ : الوحى الذى يوحى به على أنبيائه ، وأمير هذا الوحى جبريل - عليه السلام - .

أى : هو وحده - سبحانه - الذى يلقى الوحى . حالة كون هذا الوحى ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين . فقوله ﴿ من أمره ﴾ متعلق بمحذوف حال من الروح .

وسمى الوحى روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره - سبحانه - من عباده لإلقاء الوحى عليه .

والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

والمراد بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون .. الكل يتلاقى فى ساحة المحشر ليقضى الله

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ٥٥ .

- تعالى - فيهم بقضائه العادل .

أى : يلقى - سبحانه - يوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة ، إذا ما استمروا في كفرهم وعصيانهم لحالقتهم .

ثم صور - سبحانه - أحوال الناس في هذا اليوم العصيب ، فقال : ﴿ يوم هم يارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ .

وهذه الجملة الكريمة بدل من قوله ﴿ يوم التلاق ﴾ ، أى : يلقى - سبحانه - على من يشاء من عباده ، لكى يتنذر الناس من أهوال ذلك اليوم الذى تلتقى فيه الخلائق ، والذى يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى منهم شيء على الله - تعالى - .

واقه - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أمرهم لا في هذا اليوم ولا في غيره ، ولكنه - سبحانه - ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه في هذا اليوم ، لأنهم - لجهلهم - كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم يستطيعون التستر عنه ، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك في قوله - تعالى - ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ورحم الله صاحب الكشف ، فقد قال : قوله : ﴿ يوم هم يارزون ﴾ أى : ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء في الحديث : « يحشرون عراة حفاة غرلا » ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أى : من أفعالهم وأحوالهم ...

فإن قلت : قوله : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ بيان وتقرير لبروزهم ، واقتضى - تعالى - لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أم لم يبرزوا ، فما معناه ؟

قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب ، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أفعالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال - تعالى - : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون .. ﴾^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ السائل والجواب هو الله - تعالى - .

أى : ينادى الله - تعالى - فى المخلوقات فى ذلك اليوم ، لمن الملك فى هذا اليوم الهائل الشديد ؟ ثم يجيب - سبحانه - على هذا السؤال بقوله : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ .

قال القرطبي ما ملخصه : قال الحسن : هو السائل - تعالى - وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ .

وعن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - جل وعلا - عليها ، فيأمر مناديا ينادى : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ .

فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقولوه الكافرون غما وانقيادا وخضوعا . ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار انفراده - تعالى - بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك ومملكة^(١) .

وبعد أن قرر - سبحانه - أن الملك فى هذا اليوم له وحده . أتبع ذلك ببيان ما يحدث فى هذا اليوم فقال : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت .. ﴾ .

أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة . بما كسبت فى دنياها من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية .

﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ولا جور ولا محاباة ولا وساطات .. وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ لأنه - سبحانه - لا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه ، بل هو - سبحانه - قد أحاط بكل شيء علما ، كما قال - تعالى - : ﴿ عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ .

ثم يوجه الله - تعالى - أمره إلى النبى - ﷺ - بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين .. ﴾ .

والآزفة : القيامة . وأصل معنى الآزفة : القرية ، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف - بزنة فرح - يوم الرحيل . إذا دنا وقرب .

والحناجر : جمع حنجرة وهى الحلقوم .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠١ .

وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى . فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها .

وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشيء . يقال : كظم القربة إذا ملأها بالماء ، وسد فاهها ، حتى لا يخرج منها شيء من الماء .

والمعنى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع ، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم . ومتشبهة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا تخرج مع أنفسهم . كما يمسك صاحب القربة فمها لكي لا يتسرب منها الماء .

فالآية الكريمة تصوير يذيع لما يكون عليه الناس في هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم . وخوف ليس بعده خوف .

والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء في آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر .. ﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾

والظاهر أن قوله هنا ﴿ يوم الآزفة ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار ليس ظرفاً له . لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع في دار الدنيا .

وقوله : ﴿ إذ القلوب ﴾ بدل من يوم الآزفة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت « كاظمين » بم انتصب ؟ قلت : هو حال من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالاً من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر . وإنما جُمع جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ... ﴾^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجداً في هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم .

والحميم : هو الإنسان الذي يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حَامَتُهُ .

والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .
 أى : ليس للظالمين فى هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم فى
 الشفاعة لهم ، لأنهم فى هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم
 وإصرارهم على كفرهم .

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم ، والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان
 الذى تكون له أية كلمة تسمع فى شأنهم .

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى
 الصدور ﴾ .

والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله
 الاطلاع عليه .

والجملة خبر لمبتدأ محذوف . وإضافة فى قوله ﴿ خائنة الأعين ﴾ على معنى من ، وخائنة :
 نعت لمصدر محذوف .

أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى
 تسلل وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التى يخفيها الناس فى
 صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك فى هذا اليوم بما يستحقون .

قال القرطبي : ولما جرى بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله - ﷺ - بعدما اطمأن أهل
 مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله - ﷺ - طويلاً ، ثم قال :
 « نعم » .

فلما انصرف قال - ﷺ - لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » .
 فقال رجل من الأنصار : فهلا أو مأت إلى يارسول الله ؟ فقال : « إن النبى لا تكون له
 خائنة أعين »^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق فى هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : ﴿ والله يقضى
 بالحق ... ﴾ .

أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .
 ﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء .. ﴾ أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من

دون الله - تعالى - لا يقضون بشيء أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرّون على شيء ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .

﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ هو السميع ﴾ لكل شيء ﴿ البصير ﴾ بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم وينح - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم وانعازهم بمن كان قبلهم فقال : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ .
أى : أبلغت الجاهالة والغفلة وانطماس البصيرة هؤلاء المشركين من قومك - يا محمد - أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا .

إنهم يرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركى قريش في القوة والبأس ، وأشد منهم في إقامة المباني الفارهة ، والحصون الحصينة ..

فلما استمروا في جحودهم وكفرهم ، أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم . وما كان لهم من دون الله - تعالى - من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه .
﴿ ذلك ﴾ الأخذ من أسبابه ﴿ بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربهم .

﴿ فكفروا ﴾ أى : بالرسول وبما جاءهم به ﴿ فأخذهم الله ﴾ أى : فأهلكهم - سبحانه - ﴿ إنه قوى شديد العقاب ﴾ أى : إنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل ، شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسله .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقّت لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن علمه الشامل لكل شيء ، ومن قضائه العادل ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون . فذكرت جانبا من التهديدات التى وجهها فرعون إلى موسى وقومه ، وكيف أن موسى - عليه السلام - رد عليه ردا قويا حكما ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقَرُونَ
 فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
 عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

والمراد بآياتنا في قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ تلك الآيات التسع التي أعطاها الله - تعالى - لموسى ، لتكون معجزات له دالة على صدقة ، وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والظوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

قال - تعالى - ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .. ﴾ .
 والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة الظاهرة التي تغلب بها في الحجاج والجدال على فرعون .

أى : والله لقد منحنا موسى - عليه السلام - بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه - أيضا - حجة قوية واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلى فرعون وهامان وقارون ... ﴾ بيان لمن أرسله الله - تعالى - إليهم .

وفرعون : لقب لكل ملك من ملوك مصر في تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك

الملك الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه « منفتح » بن رمسيس الثانى .

﴿ هامان ﴾ هو وزير فرعون و﴿ قارون ﴾ هو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم . وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال .. ثم خسف به وبداره الأرض .

وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المكائد ضد موسى - عليه السلام - فيتبعهم العامة من أقوامهم .

وقوله : ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أرسلناه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده . أن قالوا فى شأنه ، إنه ساحر يمويه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه أنه رسول من رب العالمين . وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه السلام - وبين هؤلاء الطغاة الظالمين . أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبهججه الظاهرة . وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم .

ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ... ﴾ .

أى : فحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - بدعوته . وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجابههم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به .

ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - : اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم . إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة . وذلل عظيم .

والتعبير بقوله . ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومسكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى ، المؤيد بآيات الله - تعالى - .

والقائلون : ﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ هم الملأ من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان . إرضاء له . وإرهاباً لموسى - عليه السلام - ولبن آمن معه .

قال الإمام الرازى : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى ، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت. وأما فى هذا الوقت. فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات . فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشأوا على دين موسى ، فيقوى بهم . وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات . فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء ..^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد . فإن النصر سيكون فى النهاية لهم .

أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع والبطلان . يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد . والتبست عليه السبل . وصار تائه لا يعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد .

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان فجور فرعون وبغيه فقال : ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى .. ﴾

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ وجملة ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ اعتراضية ، جىء بها مسارعة لبيان خسارتهم وضلالهم . أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصة : اتركونى لأقتل موسى - عليه السلام - وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها ما فيها من الضرر بى وبكم .

ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة مستشاريه . لأنهم يرون أن قتله لا ينهى المتاعب ، بل قد يزيدا اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم ، غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم ، وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ كانوا إذا هم بقتله كفؤه بقولهم : ليس موسى بالذى تخافه . وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة .. وأنك إذا

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٠٢ .

قتلته أدخلت الشبهة على الناس . واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة .
والظاهر أن فرعون - لعنه الله - كان قد استيقن أن موسى نبيا . وأن ما جاء به آيات
وما هو بسحر، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس
منه بأنه هو الذى يثل عرشه . ويهدم ملكه . ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله . أن يعاجل
بالحلاك .. (١) .

وقوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ تظاهر من فرعون بأنه لا يبالى بما يكون من وراء قتله لموسى .
وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى .

فالجملية الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه
يقول : إني قاتل لموسى وليدع ربه لكى يخلصه منى .. !!

ثم ترى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته ، أنه ما حمله على إرادة قتل موسى ، إلا
الحرص على منفعتهم . فيقول : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض
الفساد ﴾ .

أى : اتركونى لأقتل موسى . وليدع ربه لكى يخلصه منى . إن كان فى إمكانه ذلك . فإنى
أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر أو بأن يظهر فى الأرض التى
تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم . والعمل
على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم
الباطلة . ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمقلوبين على أمرهم .. أنهم ما فعلوا ذلك
إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية !!

قال الإمام الرازى: والمقصود من هذا الكلام، بيان السبب لقتل موسى، وهو أن وجوده
يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح
هو الذى كانوا عليه . فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساعى فى إفساد
الدين الحق .

وأما فساد الدنيا فهو أنه لابد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات
وإثارة الفتن .

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾^(١) .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاولة عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

وقوله ﴿ عذت ﴾ بمعنى استجرت ولجأت . يقال : عاذ فلان بفلان واستعاذ به ، إذا لجأ إليه . واستجار به .

أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم . إني استجرت وتحصنت بربي وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب .

وفي هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه ، وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله - تعالى - له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ وربكم ﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعودوا باقائه عياده ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال : ﴿ من كل متكبر ﴾ لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ . وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه .

وقال : ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده . ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ..^(٢) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٢٠٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦١ .

وخلال هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى - عليه السلام - ، قىض الله - تعالى - لموسى رجلاً مؤمناً من آل فرعون كان يخفى إيمانه . هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعاً حكيماً مؤثراً ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى .. ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ

فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ

اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا

فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي

يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ

لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْ نَاسًا

بِأَسْ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا

أَهْدِيكُمْ إِلَّا لِسَبِيلِ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ

وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُكُونُ مَدِيرِينَ

مَالِكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ

مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ

مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُتْرَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَتْهُمْ كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قال الإمام الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن موسى - عليه السلام - أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه - تعالى - قيض إنسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالع في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشر .

ثم قال - رحمه الله - : يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه - سبحانه - يقيض أقواما لا أعرفهم ألبتة . يبالغون في دفع ذلك الشر ..^(١) .

وظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون بدليل قوله - تعالى - : ﴿ من آل فرعون ﴾ ولم يكن من بنى إسرائيل .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - ذلك فقال : وأولى القولين في ذلك بالصواب عندى : القول الذى قاله السدى من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون ، ولذا فقد أصغى لكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله .. ولو كان إسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا القاتل له ولملئه بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن يستنصح بنى إسرائيل لا اعتداده إياهم أعداء له .. ولكنه لما كان من ملاء قومه ، استمع إليه ، وكف فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى ..^(٢) .

قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذى نصح موسى - عليه السلام - بقوله : ﴿ إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٠٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٣٨ .

وكان اسمه «حزقيل» أو «حبيب» .

أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته ، وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، فعندما سمع فرعون يقول : ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ . قال لهم : ﴿ أقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

أى : أقتلون رجلا لأنه يقول ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .

فقوله : ﴿ أن يقول ربى الله ﴾ فى موضع المفعول لأجله . أى : أقتلونه من أجل قوله هذا . وجلة ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ حالية من فاعل يقول وهو موسى - عليه السلام - .

والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم والتبكيك لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبد الله - تعالى - وحده وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله وقوله .

قال الإمام ابن كثير : وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله - تعالى - « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله - ﷺ - فقال : بينا رسول الله - ﷺ - بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله - ﷺ - ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ودفع عن النبى - ﷺ - ثم قال : أقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم^(١) .

وقال القرطبى : وعن على - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله - ﷺ - فأقبل هذا يمجؤه - أى يضربه - ، وهذا يتلثله - أى : يحركه تحريكا شديدا - فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله صغيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلثل ذا ، ويقول بأعلى صوته : ويلكم .. أقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، والله إنه لرسول

الله ، فقطعت إحدى ضفيري أبي بكر يومئذ^(١) .

ثم يحكى القرآن الكريم أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف بالإنكار على قومه قصدهم موسى بالقتل بل أخذ في محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال : ﴿ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم .. ﴾ .
أى : أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شيء ، وإن كان صادقا فيما يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة مخالفة ما أتاكم به من عند ربه ..

فأنت ترى أن الرجل كان في نهاية الحكمة والإنصاف وحسن المنطق ، في مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قصد موسى - عليه السلام - بالقتل .

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال ما ملخصه : وقوله : ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ... ﴾ هذا إنكار عظيم منه ، وتبكيك شديد لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعل الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله ﴿ ربي الله ﴾ ..

ثم أخذ في الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا يتخطاه ضرره ، وإن يك صادقا يصبكم بعض ما يعدكم به إن تعرضتم له .

فإن قلت : لم قال : ﴿ بعض الذى يعدكم ﴾ وهو - أى موسى - نبي صادق ، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟

قلت : لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكريه ، إلى أن يلاوصهم - أى يحايلهم - ويدارهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال ﴿ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ وهو كلام المنصف في مقاله ، غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : ﴿ يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٨ .

بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا عن أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ..^(١) .

ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التي لا تتغير فقال : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ .

أى : إن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه - لا يهدي إلى الحق والصواب ، من كان مسرفا في أموره ، متجاوزا الحدود التي شرعها الله - تعالى - ومن كان كذابا في إخباره عن الله - تعالى - ، ولو كان موسى مسرفا أو كذابا ، لما أیده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة . وبالحجج الساطعة الدالة على صدقه .

فالجملۃ الکریمۃ إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما يبلغه عن ربه ، وتعرض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .

قال الجمل في حاشيته : فالجملۃ الکریمۃ كلام ذو وجهين نظرا لموسى وفرعون . الوجه الأول : أن هذا إشارة إلى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى ، والمعنى : إن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا ولا كذابا .

الوجه الثاني : أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى . وكاذب في ادعائه الألوهية ، والله لا يهدي من كان كذلك ..^(٢) .

ثم أخذ في تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفي تحذيرهم من نقمه فقال : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ .

أى : وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضا - : يا قوم ، أى : يا أهلى ويا عشيرتى ، أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين في أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى .

وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .

وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم في موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٣ .

يهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم ..

وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه : ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهديكم برأى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .

وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه . وأنه ما يريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص من موسى حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه ، فإنهم كانوا كما قال - تعالى - فى شأنهم : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه . وحكى القرآن عنه ذلك فقال : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب .. ﴾ .

أى قال لهم : يا قوم إني أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام - بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها ، وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرا ..

فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء . وكأن تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر ..

والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه . فالكلام على حذف مضاف .

أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

وقوله : ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ... ﴾ بـدل أو عطف بيان من قوله ﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ .

والدأب : العادة الدائمة المستمرة يقال : دأب فلان على كذا ، إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة .

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم

كقوم لوط ، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - تدميرًا ، فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى - عليه السلام - بالقتل أو الإيذاء ، فينزل بكم العذاب مثل ما نزل بهم .

﴿ وما الله ﴾ - تعالى - ﴿ يريد ظلماً للعباد ﴾ أى : فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب ، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم . وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : ﴿ ويقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ .

أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار . ونداء أهل النار لأهل الجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فلفظ « التناد » - بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضاً ..

وقوله : ﴿ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ... ﴾ يدل من يوم التناد . أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تتصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتلتقاكم النار بلمهيها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون . لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى - وعقابه .

﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى . فما له من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم .

وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع ذلك بتخويفهم من العذاب الآخرى .

ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ .

والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليها السلام - والمراد بجيئه إليهم : مجيؤه إلى آبائهم ، إذ بين يوسف وموسى - عليها السلام - أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .

أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجيء موسى إليكم ، وكان يجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبيّنات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه . ﴿ فهازلتم في شك مما جاءكم به ﴾ أى : فما زال آبأؤكم في شك مما جاءهم به من البيّنات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - . ﴿ حتى إذا هلك ﴾ أى : مات يوسف - عليه السلام - . ﴿ قلتم ﴾ أى : قال آبأؤكم الذين أنتم من نسلهم ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ فهم قد كذبوا رسالته في حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .

فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، في تكذيب رسل الله ، وفي الإعراض عن دعوتهم .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات ﴾ يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف - عليه السلام - ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة . والجاء الدينوى . ولهذا قال : ﴿ فهازلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أى : يثستم فقلتم طامعين : ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم^(١) .

وقوله : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله - تعالى - من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب في دينه . شك في صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون في آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه ، بغير حجة أو دليل فقال ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا... ﴾ .

وقوله : ﴿ الذين يجادلون ... ﴾ مبتدأ ، وخبره قوله - تعالى - : ﴿ كبر مقتا .. ﴾ والفاعل ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من قوله ﴿ يجادلون ﴾ أى : كبر جدالهم و﴿ مقتا ﴾ تمييز محول عن الفاعل ، أى : عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين .

أى : الذين يجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا .

قال الجمل : وهذه الصفة - وهى الجدل بالباطل بدون برهان - موجودة في فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم . وأبرز ذلك في صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطاب .

وفى قوله : ﴿ كبر ﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدهم^(١) .

وقوله : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ أى : مثل ذلك الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متناول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء .

ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات السليمة ، والإرشادات القوية من الرجل المؤمن لقومه .. ظل فرعون سادرا في غيه ، مصرا على كفره وضلاله .. إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر .. ويحكي القرآن الكريم كل ذلك فيقول :

وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَخًا عَلَيَّ أَتَلْعُ الْأَسْبَبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ
السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي
ءَامَنَ يَقُومُ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ

دَارُ الْفِرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
 وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
 ﴿٤١﴾ وَيَقُولُ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى
 النَّارِ ﴿٤٢﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ
 لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٣﴾ لَاجِرٌ
 أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْتِ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ﴿٤٤﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٥﴾ فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
 مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ النَّارُ
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
 آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٧﴾

والمراد بالصرح في قوله - تعالى - : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا ... ﴾ البناء
 العالى المكشوف للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح
 بمعنى الكشف والإيضاح .

والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشيء ، والمراد بها هنا : أبواب السماء
 وطرقها ، التى يصل منها إلى ما بداخلها .

أى : وقال فرعون لوزير همام : يا هامان ابن لي بناء ظاهرا عاليا مكشوبا لا يخفى على

الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعل عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر الى إله موسى .

والمراد بالظن في قوله ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ اليقين لقوله - تعالى - في آية أخرى : ﴿ وقال فرعون يأبأ الملامع لکم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعل أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾^(١) .

فقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ قرينة قوية على أن المراد بالظن في الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره وطغيانه .
أي : وإني لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا في دعواه أن هناك إلهًا غيري لكم ، وفي دعواه أنه رسول إلينا .

وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثاني يدل على الأول ، والشئ إذا أبهم ثم أوضح ، كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .
وقوله : ﴿ فأطلع ﴾ قرأه الجمهور بالرفع عطفًا على ﴿ أبلغ ﴾ فيكون في حيز الترجي .
وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب فيكون جوابًا للأمر في قوله : ﴿ ابن لي صرحا .. ﴾ .

ولاشك أن قول فرعون هذا بجانب دلالاته على أنه بلغ الغاية في الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول ، يدل - أيضا - على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس .

قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله ، من أن هناك إلهًا غير فرعون ..^(٢) .

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه : وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا لبقاتهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة ، ولكنه أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره في الأرض ، فيبقى أن يكون في السماء ، والسماء لا يتوصل

(١) سورة القصص آية ٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٨ .

إليها إلا بسلم^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن مكر فرعون هذا مصيره إلى الخسران فقال : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ .

والتباب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله - تعالى - فلانا ، أى : أهلكه ، وتبت يدا فلان ، أى : خسرتا ومنه قوله - سبحانه - : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ... ﴾ .

أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله ، فرآه حسنا ، لفجوره وطفئانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب العمى على الهدى . وما كيد فرعون ومكره وتليسه واحتياله في إبطال الحق ، إلا في هلاك وخسران وانقطاع .

ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون .. ﴾ أى : فىما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه .

﴿ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أى : اتبعونى فىما نصحتكم به ، فإن فى اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعادة وسداد . أما اتباعكم لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الفى والضلال .

﴿ يا قوم إنما هذه الدنيا متاع ... ﴾ أى : هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه .. ﴿ وإن الآخرة ﴾ وحدها ﴿ هى دار القرار ﴾ أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود .

﴿ من عمل سيئة ﴾ فى هذه الدنيا ﴿ فلا يجزى ﴾ فى الآخرة ﴿ إلا مثلها ﴾ كرما من الله - تعالى - وعدلا .

﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ بالله - تعالى - إيمانا حقا . ﴿ فأولئك ﴾ المؤمنون الصادقون ﴿ يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى : يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم قدره إلا الله - تعالى - ، ولا يحاسبهم عليه محاسب . فقد تفضل - سبحانه - على عباده . أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات .

ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ﴿ ويا قوم مالى أدعوك الى النجاة ﴾ من العذاب

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٦ .

الديوى والأخوى ، بأن آمركم بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وهو موسى - عليه السلام - .

وأنتم ﴿ تدعوننى إلى النار ﴾ أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله - تعالى - ، والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم ..

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثانى ؟ .

قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم قومه وعشيرته .. ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه - فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه - وأن ينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم - عليه السلام - في نصيحة أبيه قوله : ﴿ يا أبت ﴾ في سورة مريم .

وأما المجيء بالواو العاطفة في النداء الثالث دون الثانى ، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمجمل ، وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو . وأما الثالث : فداخل على كلام ليس بتلك المثابة^(١) .

وقوله : ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ... ﴾ بدل من قوله : ﴿ وتدعوننى إلى النار ﴾ وتفسير وبيان له .

أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى الإشراف بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .

وقوله : ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم ودعوتهم له .

فهم يدعونهم إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه ..

ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أن ما يطلبونه منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : ﴿ لا جرم أن ما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ... ﴾ .

وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب . وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في خمسة مواضع ، وفي كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .

وجهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق وثبت ، والجمله بعدها هي الفاعل لهذا الفعل ..

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس ، و« جرم » اسمها ، وما بعدها خبرها .
أى : حق وثبت لدى بما لا يقبل الشك ، أن ألهتكم التي تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لا وزن لها ولا قيمة لا في الدنيا ولا في الآخرة ..

﴿ وأن مردنا ﴾ جميعا ﴿ إلى الله ﴾ - تعالى - وحده ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى : المستكثرين من المعاصى في الدنيا ﴿ هم أصحاب النار ﴾ في الآخرة .

ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون يا قوم ما أقول لكم من حق وصدق .
﴿ وأفوض أمرى الى الله ﴾ - تعالى - وحده لكى يعصمنى من كل سوء .
﴿ إن الله ﴾ - تعالى - ﴿ بصير بالعباد ﴾ لا يخفى عليه شئ من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

وقوله - تعالى - : ﴿ فواقه الله سيئات ما مكروا ﴾ بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده ..

أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصحه لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ ..
﴿ وحق بال فرعون ﴾ أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ﴿ سوء العذاب ﴾ بأن أغرقهم الله - تعالى - فى اليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ..
والغدو : أول النهار . والعشى : آخره ، وجملة : ﴿ النار يعرضون عليها .. ﴾ بدل من قوله - تعالى - ﴿ سوء العذاب ﴾ . يعرض أرواح فرعون وملئه على النار بعد موتهم وهم فى قبورهم فى الصباح والمساء ، ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال للملائكة العذاب : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .

قال القرطبي : والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ مادامت الدنيا ..

قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ألا تراه يقول - سبحانه -
عن عذاب الآخرة : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

وفي الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار ، تعرض
على النار بالغداة والعشي ، فيقال : هذه داركم ..^(١) .

هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل
فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها في الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل
موسى - عليه السلام - ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا
زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعوهم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو
الباطل .

ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم
وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ فكانت نتيجة هذا التفويض ، أن وقاه الله
- تعالى - من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيئ يحق بهم .

ثم حكى - سبحانه - جانباً مما يدور بين أهل النار من مجادلات ، وكيف أن كل فريق منهم
يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن
سنة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين في الدنيا والآخرة قال - تعالى - :

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي

النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

لَكُمْ تَبَعًا فَمَا هَلَ أَنْتُمْ مُعْتُونُ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ

﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ

قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ

جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾
 قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُّسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
 بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
 ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ
 وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
 الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
 وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ
 حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
 وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾

و ﴿ إذ ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ متعلق بمحذوف تقديره :
 اذكر ، أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن يتخاصم أهل
 النار فيما بينهم .

﴿ فيقول الضعفاء ﴾ منهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ في الدنيا وكانوا رؤساء وقادة :

﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أى إنا كنا في الدنيا تابعين لكم ، ومنقادين لهماكم ومسخرين
 لخدمتكم .. والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ للطلب
 المصحوب بالرجاء والاستجداء ..

أى : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا في الدنيا منقادين لكم اتقياد العبد لسيده ، فادفعوا
 عنا شيئاً من هذا العذاب المهين الذى نزل بنا ، فطالما دافعنا عنكم في الدنيا وسرنا وراءكم
 بدون تفكير أو معارضة ..

وقوله ﴿ نصيبا ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله ﴿ مغنون ﴾ أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذى نحن فيه ، وتحملون عنا نصيبا منه .
وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل . ويحكى القرآن ذلك فيقول ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أى للضعفاء .

﴿ إنا كل فيها ﴾ أى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب ، وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شيء من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا .
ولفظ ﴿ كل ﴾ مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خبر ، والجمله من المبتدأ والخبر ، خبر إن .
وجمله : ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ من جملة الرد ، أى : إن الله - تعالى - قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل للمؤمنين الجنة ، وجعل للكافرين النار وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا .

وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن : ذلك فيقول : ﴿ وقال الذين فى النار ، لخزنة جهنم ﴾ وهم الملائكة المكلفون بتعذيب الكافرين .

قالوا لهم : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾ أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة التى ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التى مزقتها العذاب الدائم .

وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب : أو لم تك رسلكم فى الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم .

﴿ قالوا بلى ﴾ أى : الكافرون لخزنة جهنم : بل أتونا بكل ذلك فكذبناهم .
وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم : مادام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم ﴿ فادعوا ﴾ ما شئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا .
﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا فى ضياع وخسران .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التى لا تتخلف فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا ، والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

والأشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين يشهدون على أمهم يوم القيامة بأنهم

قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين يشهدون للرسل بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر ، وكل من يقوم يوم القيامة للشهادة على غيره يكون من الشهداء .

أى : لقد اقتضت سنتنا التى لا تتخلف أن نصررسلنا والمؤمنين فى الدنيا بالحجة الدامغة التى تزهى باطل أعدائهم ، و بالتغلب عليهم ، وبالاتقام منهم .
وأن نصرهم فى الآخرة كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، يعنى أنه ينصرهم فى الدارين جميعا بالحجة والظفر على أعدائهم ، وإن غلبوا فى الدنيا فى بعض الأحيان امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين^(١) .

وما ذكره صاحب الكشف فإننا نراه واقعا فى سيرة الرسول - ﷺ - وفى سيرة أتباعه فلقد هاجر النبى - ﷺ - من مكة وليس معه سوى أبى بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثمانى سنوات فاتحا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه .

والمؤمنون قد يُغلبون - أحيانا - ويُعتدى عليهم .. ولكن العاقبة لا بد أن تكون لهم . متى داوموا على التمسك بما يقتضيه إيمانهم من الثبات على الحق ، ومن العمل الصالح ..
وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للإشعار بأن نصر الرسل والمؤمنين فى هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين والآخرين ، لا ينكره منكر . ولا ينازع فيه منازع .

وقوله : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ . أى : ونصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أَعذارهم لكى نغفو عنهم . فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أَعذار ساقطة . وجاءت فى غير وقتها .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ لأن المقصود منها واحد . وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما .

﴿ ولهم اللعنة ﴾ من الله - تعالى - ومن عباده المؤمنين ﴿ ولهم ﴾ - أيضا - ﴿ سوء الدار ﴾ وهى جهنم وسوؤها ما يسوء فيها من العذاب ، فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : ولهم الدار السوءى .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٧٢ .

وفي هاتين الآيتين مافيها من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن الإهانة التي ليس بعدها إهانة للكافرين .

ثم ساق - سبحانه - مثالا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين . فقال - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ، هدى وذكرى لأولى الألباب ﴾ .
أى : والله لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصف والشرائع .
وأورثنا من بعده قومه بني إسرائيل الكتاب وهو التوراة . لكي ينتفعوا بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته .

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة فقلوه - تعالى - ﴿ هدى وذكرى ﴾ مفعول لأجله . أوها مصدران في موضع الحال . أى :
وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ، حالة كونه هاديا ومذكرا لأولى الألباب . لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات . وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم .

ثم ختم - سبحانه الآيات الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بالصبر على أذى أعدائه . فقال :
﴿ فاصبر إن وعد الله حق .. ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أننا سننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿ ويوم يقوم الأشهاد .. ﴾ فاصبر على ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله - تعالى - به من النصر ثابت لا شك فيه ، وحق لا باطل معه .
﴿ واستغفر لذنبك ﴾ فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل ما يغضبنا - يجعل أمتك تقتدى بك في ذلك ، وتسير على نهجك في الإكثار من فعل الطاعات .

﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ أى : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل مالا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار ، وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عما لا ينبغى ، والاشتغال بما ينبغى ، والأول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية . فوجب أن يكون مقدما عليه في الذكر ..

أما التوبة عما لا ينبغى ، فنراها في قوله - تعالى - : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ .
وأما الاشتغال بما ينبغى ، فنراه في قوله - تعالى - ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ .

والتسبيح عبارة عن تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به، والعشى والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر . وقيل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف . والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وبالجمله فالمراد منه المواظبة على ذكر الله . وأن لا يفتر اللسان عنه ..^(١) .

ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التي حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفي المساواة بين الكافر والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله - تعالى - فتقول :

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
 مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ
 خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
 وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
 إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ
 إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
 دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٣٢١ .

والمراد بالمجادلة في قوله - تعالى - : ﴿ إِن الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ .. ﴾ المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والكشف عنه .. فهي محمودة ، لأنها تهدي إلى الخير والصلاح ..

قال صاحب الكشف : فأما الجدال في آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيف عنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله ..^(١) .
وجملة ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ خبر إن ، والكبر بمعنى التكبر والتعالى والتعظيم على الغير .

والمعنى : إن الذين يجادلون في آيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم ..

هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعظيم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم أو فيمن يميلون إليهم .. وهم جميعا لن يصلوا إلى شيء من ذلك ، ولن يبلغوا ما تتوق إليه نفوسهم المريضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده .
وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢) .

فالآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التي حملت هؤلاء المجادلين بالباطل على جدالهم . هو حبهم للتكبر والتعالى ...

قال الألوسي : قوله : ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ... ﴾ أى : بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة ، للإيدان بأن المتكلم في أمر الدين ، لا بد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين ، وهذا عام في كل مجادل مبطل ..
وقوله : ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ صفة لقوله ﴿ كِبْرٌ ﴾ أى ما هم ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق بإرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة ..^(٣) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . إرشاد منه - تعالى - إلى ما يبقى من شرور هؤلاء المجادلين بالباطل .

أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو الدافع إلى جدالهم ، وما دام هذا هو حالهم ،

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ١٥٠ .

(٢) سورة فاطر آية ٢ .

(٣) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ٧٨ .

فالتجىء إلى الله - تعالى - أيها الرسول الكريم - لكى يحفظك من شرورهم وكيدهم ، إنه - تعالى - هو السميع لكل شيء ، البصير بما ظهر وخفى من شئون عباده .
ثم بين - سبحانه - للناس من طريق المشاهدة صغر حجمهم بالنسبة إلى بعض خلقه - تعالى - فيقول : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أى : لخلق السموات والأرض ابتداء وبدون مثال سابق ، أكبر وأعظم من خلق الناس . وما لاشك فيه أن من قدر على خلق الأعظم ، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر وأقدر ، ولكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهوى عليهم ، لا يعلمون هذه الحقيقة الجليلة .
وقوله - تعالى - ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفهم . فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشيء الكبير أشد من معالجة الشيء الصغير . وإن كان الامر بالنسبة إلى الله - تعالى - لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير ، إذ كل شيء خاضع لإرادته كما قال - سبحانه - : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف اتصل قوله ﴿ لخلق السموات والأرض .. ﴾ بما قبله ؟ .

قلت : إن مجادلهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث . وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحججوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ، وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إلى خلقها شيء قليل ، فمن قدر على خلقها مع عظمها . كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر ..^(١) .

وقوله - تعالى - ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ... ﴾ نفى لعدم المساواة بين الأخيار والأشرار . والمتقين والفجار ..
أى : كما أنه لا يصح في عرف أى عاقل المساواة بين الأعمى والبصير . كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين الذين قدموا في دنياهم العمل الصالح ، وبين الكافرين والفاسين الذين لطخوا حياتهم بالعمل السيئ ، والفعل القبيح ..

ولفظ « قليلا » في قوله - تعالى - ﴿ قليلا ما تتذكرون ﴾ مفعول مطلق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، و « ما » مزيدة للتأكيد . أى . تذكرنا قليلا تتذكرون .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٤ .

ثم أكد - سبحانه - مجيء الساعة في الوقت الذي يختاره - تعالى - فقال : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ﴾ أى : لا ريب ولا شك في مجيئها في الوقت الذي يشاؤه - عز وجل - ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ..

ثم أمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يكثرُوا من التضرع إليه بالدعاء فقال : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ... ﴾ .

أى : وقال ربكم - أيها المؤمنون - تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء .

ولا تنافي بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله - تعالى - ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من العبادة ، بل هو منحها كما جاء في الحديث الشريف . والإنسان الذى التزم في دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديراً بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم في آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عندما دعوا الله - تعالى - أجاب لهم دعاءهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾^(١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أى : إن الذين يستكبرون عن طاعتي ، وعن التقرب إلى بما يرضينى ، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين .

فقلوه : ﴿ داخرين ﴾ من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع يقال : دخر فلان يدخر دخور إذا ذل وهان .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تتصل بموضوع الدعاء فارجع إليه إن شئت^(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - مصير الذين يستكبرون عن عبادته ، أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التى أنعم بها على عباده ، كنعمة السماء والأرض ، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من

(١) لمعرفة آداب الدعاء وشروطه وفضله .. راجع كتابنا « الدعاء » طبع مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٤٢ .

الطيبات ، ونعمة الليل والنهار .. فقال - تعالى - :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
 فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
 وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمْ
 اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَن تُوْفَكُونَ
 ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ
 ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
 بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ
 الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ
 إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
 الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾
 هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
 يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا
 شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مُّسَمًّى
 وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا
 قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

فقوله - تعالى - : ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ بيان
لنعنى الليل والنهار اللتين أنعم بهما - سبحانه - على الناس .
أى : الله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل لتسكنوا فيه ،
وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهىأه لهذه الاستراحة بأن جعله مظلمًا ساكنًا ...
وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصرا ، أى : جعله مضيئًا مسفرًا ، بحيث تبصرون فيه
ما تريدون إبصاره من الأشياء المتنوعة .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ مبصرا ﴾ هو من الإسناد المجازى لأن الإبصار فى
الحقيقة لأهل النهار .

فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال ؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما .
فيراعى حق المقابلة ؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه
لو قال : لتبصروا فيه فانت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنًا - والليل
يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، الا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ربح فيه -
لم تتميز الحقيقة من المجاز^(١) .

وقوله : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ بيان لموقف
أكثر الناس من نعم الله - تعالى - عليهم .

أى : إن الله - تعالى - لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ، ولكن أكثرهم
لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم .
وقال - سبحانه - ﴿ لذو فضل ﴾ بالتنكير للإشعار بأنه فضل لا تحيط به عبارة
أو وصف .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء .. ﴾
يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله - عز وجل - .

و﴿ ذلكم ﴾ مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة .

أى : ذلكم الذى أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله - تعالى - ربكم خالق كل شيء فى
هذا الوجود . لا إله إلا هو فى هذا الكون ..

وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَنى تَوْفَكُون ﴾ تعجب من انصرافهم - بعد هذه النعم - عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران .

أى : فكيف تنقلبون عن عبادته - سبحانه - إلى عبادة غيره ، مع أنه - عز وجل - هو الخالق لكل شىء ، وهو صاحب تلك النعم التى تتمتعون بها .

وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحدون ﴾ بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله - تعالى - موقف الجحود والكفران .

ويوفك هنا : بمعنى القلب والصرف عن الشىء ، من الأفك - بالفتح - مصدر أفكه عن الشىء بمعنى صرفه عنه - وبابه ضرب - ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قالوا أجتنا لتأفكنا عن آلهتنا ... ﴾ أى : لتصرفنا عن عبادتها .

والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى الباطل ، ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يحدون ويكفرون .

وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر نعمه عن طريق الزمان - الليل والنهار - أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان - الأرض والسماء - فقال : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾ أى : جعل الأرض مكانا لاستقراركم عليها ، والسعى فيها .

﴿ والسماء بناء ﴾ أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق رؤوسكم ، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد .

قال الألوسى قوله : ﴿ والسماء بناء ﴾ أى : قبة ، ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب . وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ . وفيه إشارة لكرويتها . وهذا بيان لفضله - تعالى - المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان^(١) .

وقوله : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ بيان لفضله - تعالى - المتعلق بذواتهم . أى : جعل لكم الأرض مستقرا ، والسماء بناء ، وصور أشكالكم فى أحسن تقويم . وأجل هيئة . كما قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستلذ . ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أى : ذلكم الذى أعطاكم تلك النعم المتعلقة

بزمانكم . ومكانكم . وذواتكم . ومطعمكم ومشربكم . هو الله ربكم الذى تولاكم بتربيته ورعايته فى جميع أطوار حياتكم . فتبارك الله - تعالى - وتعظم فى ذاته وفى صفاته . فهو رب العالمين ومالك أمرهم .

﴿ هو الحى ﴾ أى : هو - سبحانه - المنفرد بالحياة الدائمة الباقية ..
 ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا موجود يدانيه لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .
 ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : فاعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاثر ، حالة كونكم قائلين : الحمد لله رب العالمين .

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرّون من قال لا إله إلا الله ، أن يتبعها بقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ عملاً بهذه الآية^(١) .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - ﷺ - الرد الذى يوبخ به المشركين فقال : ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي... ﴾ .
 أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين الذين يطلبون منك مشاركتهم فى عبادة آلهتهم : قل لهم إني نهيت من ربي وخالقى ومالك أمرى عن عبادة غيره - تعالى - ، والسبب فى ذلك أن كل الدلائل والبراهين التى أكرمنى - سبحانه - بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده .

فقوله : ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾ بيان السبب الذى من أجله نهاه ربه عن عبادة غيره ، وهذه البينات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية .

وقوله ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ أى : إني بعد أن نهاني ربي عن عبادة غيره ، أمرنى بأن أسلم وجهى إليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده رب العالمين ومالك أمرهم .
 ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، فقال - تعالى - :
 ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾ أى : خلق أبائكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه .
 ﴿ ثم من نقطة ﴾ وأصل النقطة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلّة .

والمراد بها هنا : المني الذي يخرج من الرجل ، ويصب في رحم المرأة ، ﴿ ثم من علقه ﴾ والعلقة قطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ أى : ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها . فقلوه : ﴿ طفلا ﴾ اسم جنس يصدق على القليل والكثير .
ثم ﴿ لتبلغوا أشدكم ﴾ بعد ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التي تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم .

﴿ ثم لتكونوا شيوخا ﴾ بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى السن التي تتناقص فيها قوتكم والجملة الكريمة معطوفة على قوله ﴿ لتبلغوا ﴾ ، أو معمولة لمحذوف كالجمل التي تقدمتها ، أى : ثم يبيقيكم لتكونوا شيوخا .

﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أى : ومنكم من يدركه الموت من قبل أن يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولتبلغوا أجلا مسمى ﴾ معطوف على مقدر . أى : فعل ذلك بكم لكي تعيشوا ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهى عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب . والجزاء .

وقوله : ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أى : ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه هو الذى يحييكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم من تلك الأطوار المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم بقوله - تعالى - ﴿ هو الذى يحيى ﴾ من يريد إحياءه ﴿ ويميت ﴾ من يشاء إماتته .

﴿ فإذا قضى أمرا ﴾ أى : فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى هذا الوجود ﴿ فإنما يقول له ﴾ أى لهذا الأمر ﴿ كن فيكون ﴾ في الحال بدون توقف على سبب من الأسباب ، أو علة من العلل .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يسلى النبي - ﷺ - عما أصابه من المشركين ، بأن بين له سوء عاقبتهم يوم القيامة ، وبأن أمره بالصبر على كيدهم ، وبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه .. فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
 ﴿٧٧﴾ إِذَا الْأَعْكَالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّكْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٨﴾
 فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ
 مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
 نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾
 ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ
 تَمْرَحُونَ ﴿٨٢﴾ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
 مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا
 نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
 بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
 هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٨٥﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ... ﴾ للتعجب
 من أحوال هؤلاء المشركين . حيث أنكروا الحق الواضح وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل .
 والمعنى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال المشركين ، وتعجب من سلوكهم

الذميم ، حيث جادلوا في الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة .
وقوله : ﴿ أنى يصرفون ﴾ أى : انظر كيف يصرفون عن آيات الله الموجبة للإيمان بها .
إلى الجحود والتكذيب والجدال بالباطل فيها ؟

لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن وصل إليهم .. ولكنهم عموا وصموا عنه . لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .
وقوله : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب .. ﴾ بدل من قوله ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ .
أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الكريم . الذى أنزلناه إليك - يا محمد -
لتخرجهم به من الظلمات إلى النور .

وكذبوا - أيضا - ﴿ بما أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب والمعجزات . فهم لم يكتفوا
بالتكذيب بك بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول .
وقوله - تعالى - : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم ،
أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله - تعالى - ولكتبه التى أنزلها عليهم .

ثم فصل - سبحانه - هذا الوعيد ، وبين ما أعد لهم من عذاب فقال : ﴿ إذ الأغلال في
أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ .
و « إذ » هنا ظرف بمعنى « إذا » وهو متعلق بـ يعلمون ، وعبر - سبحانه - بالظرف الدال
على المعنى ، للدلالة على تحقق الخبر ، حتى لكأن العذاب قد نزل بهم فعلا .
والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد يوضع في اليد والعنق فيجمعهما .
والسلاسل : جمع سلسلة ، وهى ما يربط بها الجانى على سبيل الإذلال له .
والحميم : الماء البالىغ أقصى درجات الحرارة .
ويسجرون : مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود .

والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع
الأغلال والقيود في أعناقهم ، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقي بهم في
النار التى تمتلئ بهم ، ويكونون وقودا لها .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : وهل قوله : ﴿ فسوف يعلمون . إذ الأغلال .. ﴾
إلا مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟ .

قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله - تعالى - متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد . والمعنى على الاستقبال ..^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ﴾ تبيكت وتأنيب لهم .
أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المهين لهم : أين تلك الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ، لكى تدفع عنكم شيئا من العذاب الأليم الذى نزل بكم ؟ .
وقوله ﴿ قالوا ضلوا عنا ، بل لم تكن ندعوا من قبل شيئا ... ﴾ حكاية لجوابهم الذى يدل على حسرتهم وبؤسهم .

أى : قالوا : ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا ، ولاهم يعرفون عنا طريقا . ثم أضربوا عن هذا القول توهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا : بل لم تكن نعبد من قبل فى الدنيا شيئا يعتد به ، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أوهاما وضلالا ..
وقوله - تعالى - : ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ أى مثل هذا الضلال اليبس والتخبط الواضح ، يضل الله - تعالى - الكافرين ، ويجعلهم يتخبطون فى إجابتهم على السائلين لهم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم الى هذا العذاب المهين فقال : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾

وقوله : ﴿ تفرحون ﴾ من المرح وهو التوسع فى الفرح مع الأشر والبطر .
أى : ذلكم الذى نزل بكم من العذاب ، بسبب فرحكم وبطركم فى الأرض بالباطل ، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها .

وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، فبئس ﴿ مثوى ﴾ أى : مكان ﴿ المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم .

وقال - سبحانه - ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين ، للإشارة إلى خلودهم فى جهنم ، إذ التواء معناه الإقامة الدائمة ، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

ثم ذكر الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - الوصية بالصبر فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ،

فإِذَا نُرِينِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّنِكَ فَأَلِينَا يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾
 وقوله : ﴿ فَإِذَا نُرِينِكَ ﴾ أصله : فَإِنْ نُرِكَ ، فزِيدت « ما » لتوكيد « إن » الشرطية ،
 وجوابها محذوف ، وقوله ﴿ أَوْ تُتَوَفَّنِكَ ﴾ جوابه ﴿ فَأَلِينَا يَرْجِعُونَ ﴾ .
 والمعنى : إِذَا كَانَ حَالُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا ذَكَرْنَا لَكَ يَا مُحَمَّد ، فَاصْبِرْ عَلَى جَدَاهُمْ
 بِالْبَاطِل ، إِنْ وَعَدَ اللَّهُ - تعالى - بتعذيبهم وبنصرِكَ عليهم حق .

فإِنْ نُرِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ بِهِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْهَزِيمَةِ فِيهَا وَنَعَمْتَ ، أَوْ تُتَوَفَّنِكَ قَبْلَ
 ذَلِكَ فَأَلِينَا مَرْجِعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَتُجَازِيهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عِقَابٍ .

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَأْمُرُ النَّبِيَّ - ﷺ - بِمَدَاوِمَةِ الصَّبْرِ ، وَتَحْضُ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
 بِدُونَ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتْرَكُ النَّتَاجَ لِلَّهِ - تعالى - يَسِيرُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ، فَإِذَا أُنْ
 يُطْلَعُهُ عَلَى مَا تَوَعَّدَ بِهِ أَعْدَاءَهُ ، وَإِذَا أُنْ يُتَوَفَّاهُ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَشَبِيهِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ - تعالى - : ﴿ وَإِذَا نُرِينِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّنِكَ ، فَإِنَّمَا
 عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ^(١) .

ثُمَّ سَاقَ - سبحانه - تَسْلِيَةً أُخْرَى لِلرَّسُولِ - ﷺ - فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 رِسَالًا ... ﴾ أَيْ : رِسَالًا كَثِيرِينَ ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ إِرْسَالِكَ إِلَى النَّاسِ .

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ كَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ . وَغَيْرُهُمْ .
 ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ أَخْبَارَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ لِأَنَّ حُكْمَتَنَا قَدْ اقْتَضَتْ ذَلِكَ .
 كَمَا قَالَ - تعالى - فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿ وَرِسَالًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرِسَالًا لَمْ
 نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ^(٢) .

وَالْمُرَادُ بِالْآيَةِ فِي قَوْلِهِ - تعالى - ﴿ وَمَا كَانَ لِرَّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الْمُعْجَزَةُ
 الْخَارِقَةُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهِ فِيهَا يَبْلُغُهُ عَنْ رَبِّهِ .

أَيْ : وَمَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ لِرَّسُولٍ مِنَ الرِّسَالِ أَنْ يَأْتِيَ بِمُعْجَزَةٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي بِهَا
 بِإِذْنِ اللَّهِ - تعالى - وَمَشِيتَتِهِ ، إِذْ الْمُعْجَزَاتُ جَمِيعًا عَطَايَا مِنَ اللَّهِ - تعالى - لِرَّسُولِهِ لِتَأْيِيدِهِمْ فِي
 دَعْوَتِهِمْ .

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤ .

﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أى : فإذا جاء الوقت الذى حلده - سبحانه - لعذاب أعدائه
 ﴿ قضى بالحق ﴾ أى : قضى بين الناس جميعا بالحق ، فينجى - سبحانه - بقضائه العادل
 عباده المؤمنين .

﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ أى : وخسر - عند مجيء أمر الله ، عند القضاء بين خلقه -
 المبطلون ، وهم الذين ماتوا مصرين على كفرهم أو فسوقهم عن أمره .
 وكما قال - تعالى - فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ والله ملك السموات والأرض ،
 ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ .

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة ، جانباً آخر من نعمه على عباده ، وويخ
 الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم ، وهددهم بأنهم عند مجيء العذاب
 إليهم لن ينفعهم إيمانهم .. فقال - تعالى - :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
 لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
 مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
 الْأَفْلاكِ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ
 اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
 قُوَّةً وَأَنَارَ فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
 ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
 مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
 رَأَوْا بِأَسْنَاقِ الْوَأْءَامَتِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ

مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سَأَلَتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَا لِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

وقوله - تعالى - ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام .. ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه التى تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب، بعد بيانه قبل لكثير من النعم التى تتعلق بالليل والنهار، والسماء والأرض ... الخ .

والأنعام : جمع نعم ، وأطلق على الإبل والبقر والغنم، قالوا والمراد بها هنا : الإبل خاصة ؛ لأن معظم المنافع التى ذكرت هنا توجد فيها .

أى : الله - تعالى - هو الذى خلق لكم بقدرته الإبل ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ أى لتركبوا بعضا منها، ولتأكلوا بعضا آخر منها . فمن فى الموضعين للتبويض .

﴿ ولكم فيها منافع ﴾ أخرى غير الأكل وغير الركوب، كالانتفاع بألبانها وأوبارها وجلودها ...

﴿ ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ﴾ أى : ومن منافعها - أيضا - أنكم تستعملونها فى الأمور الهامة كحمل الأثقال، والانتقال عليها من مكان إلى مكان ..

كما قال - تعالى - ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾ ^(١) .

﴿ وعليها وعلى الفلك يحملون ﴾ أى : وعلى هذه الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر يحملون .

كما قال - تعالى - : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ ^(٢) .

هذا، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا ما يشمل الإبل والبقر والغنم ، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير، فقد قال : يقول - تعالى - ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام ! وهى : الإبل والبقر والغنم، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى

(١) سورة النحل الآية ٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ١٢ .

الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها، وتحترق عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أوبارها وأصوافها وأشعارها . فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة .. »^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات الماثرة في الكون . والتي تدل جميعها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

ولفظ « أى » منصوب بقوله « تنكرون » وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام .

أى : أنه - سبحانه - في كل وقت وحين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته، فقولوا لى . أية تلك الآيات تنكرون دلالتها على ذلك .

إنها جميعا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها ؟

فالأية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى مع أن كل شىء في هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار .

ثم وبخهم - سبحانه - مرة أخرى لعدم اتعاضهم بمصارع الغابرين فقال : ﴿ أقلم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. ﴾ .

أى : أقبعوا في بيوتهم . فلم يسيروا في أقطار الأرض . فينظروا كيف كانت عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم، كقوم صالح وقوم لوط، وقوم شعيب وغيرهم .

فلاستفهام للتوبيخ والتأنيب، والفاء في قوله : ﴿ أقلم .. ﴾ للعطف على مقدر .

ثم فصل - سبحانه - حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال : ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ أى : في العدد ﴿ وأشد قوة ﴾ أى في الأبدان والأجسام ﴿ وآثارا في الأرض ﴾ أى : وكانوا أظهر منهم في العمران والحضارة والنفى .

﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى أن هؤلاء الغابرين عندما حل بهم عذابنا لم تغن عنهم شيئا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم ... بل أخذناهم أخذ عزيز مقتدر في زمن يسير .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم .. ﴾ .

أى : فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة

والزراعة .. واغتروا بتلك القشور التي كانوا يسمعونها من كانوا يزعمون أنهم على شيء من العلم الديني ، واستهزأوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدي إلى الرشد ، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله . واعتقدوا - لغباثتهم - وانطماس بصائرهم - أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها ..

ورحم الله صاحب الكشف فقد فصل القول عند تفسيره لهذه الآية فقال : قوله : ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ فيه وجوه :

منها : أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم في قوله - تعالى - : ﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة ﴾ وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لانبعث ولا نعذب .

ومنه : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بني يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال - تعالى - ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات .. لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزئوا بها ، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به ^(١) .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الأخير الذى ذكره صاحب الكشف ، هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسولهم ، واستهزائهم بهم . أى : ونزل هؤلاء الكافرين العذاب الأليم بسبب استهزائهم برسولهم ، وإعراضهم عن دعوتهم .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما أحاط بهم العذاب فقال : ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أى عاينوا عذابنا النازل بهم .

﴿ قالوا ﴾ بفزع وخوف ﴿ آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أى : وكفرنا بما كنا به مشركين فى الدنيا من عبادة لغير الله - تعالى - واعتماد على سواه .

وقد بين - سبحانه - أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء فى غير وقته فقال ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ شيئا من النفع لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب ، والإيمان الذى يدعى فى هذا

الوقت لا قيمة له، لأنه جاء في وقت الاضطراب لافي وقت الاختيار .
ولفظ « سنة » في قوله - تعالى - : ﴿ سنة الله التي قد خلت في عباده .. ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف .

أى : سن الله - تعالى - ذلك ، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية في الناس ، بحيث لا تتخلف في أى زمان أو مكان .

﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ أى : في هذا الوقت الذى ينزل الله - تعالى - فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شيء ، بحيث لا تنفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا أهلكهم التى كانوا يتوهمون شفاعتها .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة « غافر » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم -

كتبه الراجى عفوه

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - مساء الثلاثاء

٩ من المحرم سنة ١٤٠٦

٢٤ / ٩ / ١٩٨٥ م

تفسير سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « فصلت » هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة « غافر » .

وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية في المصحف البصري والشامي ، وثلاث وخمسون في المصحف المكي والمدني ، وأربع وخمسون في المصحف الكوفي . وسورة « فصلت » تسمى - أيضا بسورة السجدة ، وحَم السجدة ، وبسورة المصاييح ، وبسورة الأقوات^(١) .

٢ - والذي يقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، يراها في مطلعها تمدح القرآن الكريم : وتذكر موقف المشركين منه ومن الرسول - ﷺ - وتلقن الرسول - ﷺ - الجواب الذي يكتبته ، وتهدهم بالعذاب الأليم .

قال - تعالى - : ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ .

٣ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ، عن طريق بيان خلقه للأرض وما اشتملت عليه من جبال وأقوات ، وعن طريق خلق السماء بطبقاتها المتعددة ، وعن طريق تزيين السماء الدنيا بمصاييح وحفظها .

قال - تعالى - : ﴿ قل أنتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ .

٤ - وبعد أن هدّد الله - تعالى - مشركي مكة بالعذاب الذي أصاب من قبلهم قوم عاد

(١) راجع تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ٩٤ .

وثمود ، وفصل لهم موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم وكيف أنهم عندما كذبوا رسلهم واستحبوا العمى على الهدى ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون ..

بعد كل ذلك تحدثت عن أحوالهم السيئة يوم يحشرون للحساب يوم القيامة ، وكيف أن حواسهم تشهد عليهم في هذا اليوم العصيب .

ولنتدبر قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ .

٥ - وكعادة القرآن الكريم في قرنه الترغيب بالترهيب أو العكس ، وفي بيان عاقبة الأخيار والأشرار ، أتبع السورة الحديث عن المشركين وسوء عاقبتهم ، بالحديث عن المؤمنين وحسن مصيرهم ، فقال - تعالى - : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ .

٦ - ثم ساقَت سورة « فصلت » أنواعا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ .

٧ - ثم أخذت السورة في تسلية الرسول - ﷺ - وفي إقامة الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله .

قال - تعالى - : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

٨ - ثم ختم - سبحانه السورة الكريمة ، ببيان أن مرد علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وببيان طبيعة الإنسان في حالتي اليسر والعسر ، وببيان أن حكمته - سبحانه - اقتضت أن يطلع الناس في كل وقت على بعض من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته . قال

- تعالى - ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ .

٩ - وبعد: فهذا عرض إجمالي لسورة فصلت، ومنه نرى: أنها اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وبأن الرسول - ﷺ - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه .

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى وبيان أحوالهم يوم القيامة ... وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأحسنوا القول والدعوة إلى الله ... بأحسن البشارات وأفضلها ..

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات : وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الاربعاء : ١٠ من المحرم ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥/٩/٢٥ م

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ❶ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❷ كِتَابٌ فُصِّلَتْ
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ❸ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ❹ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
 مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
 فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ❺ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
 لِلْمُشْرِكِينَ ❻ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
 هُمْ كَافِرُونَ ❼ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ❽

سورة « فُصِّلَتْ » من السور التي بدئت ببعض حروف التهجي .

والرأى الراجح في هذه الحروف أنها جيء بها للإيقاظ والتنبيه على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التي يتخاطب بها المشركون ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وقوله ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف .

أى : هذا القرآن ليس أساطير الأولين - كما زعم الجاحدون الجاهلون - وإما هو منزل من عند الله - تعالى - صاحب الرحمة العظيمة الدائمة .

إذ لفظ « الرحمن » بمعنى عظيم الرحمة ، لأن فعلان صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ، أما صيغة فيعل فتستعمل في الصفات الدائمة ككريم ، فكأنه - تعالى - يقول : هذا الكتاب منزل من الله - تعالى - العظيم الرحمة الدائمة .

قال بعض العلماء : وإنما خص هذان الوصفان بالذكر ، لأن الخلق في هذا العالم كالمريض المحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المريض من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية . فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشئ عن رحمته ولطفه بخلقه^(١) .

ثم أتى - سبحانه - على هذا القرآن الذى أنزله بمقتضى رحمته وحكمته فقال : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ﴾ .

ومعنى : ﴿ فصلت آياته ﴾ : ميزت في ألفاظها بفواصل ومقاطع ، وميزت في معانيها لاستنباطها على أنواع متعددة من المعاني الحكيمة .

وقوله ﴿ قرآنا ﴾ منصوب على المدح ، أو على الحال من كتاب ، و﴿ عربيا ﴾ صفة للقرآن .

وقوله ﴿ لقوم يعلمون ﴾ متعلق بفصلت .

أى : هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - الذى وسعت رحمته كل شيء ، وهو كتاب فصلت آياته ووضحت وميزت من حيث ألفاظها تفصيلا بليغا ، إذ اشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه .

وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما . إذ بعضها جاء لبيان ذاته وصفاته وأفعاله - تعالى - ، وبعضها اشتمل على ألوان من نعمه التى لا تحصى ، وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ ، وبعضها جاء لتبشير المؤمنين بحسن الثواب ، ولإنذار الكافرين بسوء العقاب .

وخص - سبحانه - الذين يعلمون بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢٨ .

قال صاحب الكشف : قوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى ، لا يلتبس عليهم شىء منه .

فإن قلت : بم يتعلق قوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ؟

قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل ، أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم . وأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى : قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب ؛ لئلا يفرق بين الصلات والصفات ..^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم .

والمراد بالأكثر هنا : الكافرون الذين لا ينتفعون بهدايات القرآن الكريم .

أى : هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور ، فأعرض أكثرهم عن هداياته لاستحواذ الشيطان عليهم ، فهم لا يسمعون سماع تدبر واتعاظ ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية ، وعقول خالية من إدراك معانيه ، ومن الاستجابة له .

ونفى - سبحانه - سماعهم له ، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول - ﷺ - ومن أصحابه ، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به .. صار سماعهم بمنزلة عدمه .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على توغلهم فى الكفر والعناد فقال : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء للشىء . و﴿ وقر ﴾ الصمم الذى يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له .

والحجاب : من الحجب بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قيل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول .

أى : وقال الكافرون للنبي - ﷺ - على سبيل تئيسه من إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغطية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا ، وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك ، وإن من بيننا ومن بينك حاجزا غليظا يحجب التواصل والتلاقى بيننا وبينك ، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيها يتعلق بدينك ، ونحن من جانبنا سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا .

وهذه الأقوال التي حكاها القرآن عنهم ، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد : فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق ، وأسماعهم قد صمت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من شخص الرسول - ﷺ - الذي يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الجواب الذي يرد به عليهم فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنا إلهكم إله واحد ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم في الصفات البشرية أوجدنى الله - تعالى - بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم - عليه السلام - إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بوحيه ورسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم .. هو إله واحد لا شريك له ، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ أى : فالزموا الاستقامة في طريقكم إليه - تعالى - بالإيمان به وطاعته والإخلاص في عبادته .

وقوله - تعالى - : ﴿ .. وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ تهديد لهم بسوء المصير إذا استمروا على عنادهم وشركهم .
والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لافعل له من لفظه ، والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزى والهلاك .

أى : فهلاك وخزى وعقاب شديد هؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى : لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقيها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها .. وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

قال ابن كثير : والمراد بالزكاة ها هنا : طهارة النفس من الأخلاق المردولة ..

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير ..

وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية . اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأمورا به في ابتداء البعثة ، كقوله - تعالى - : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين

أمرها في المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين ..^(١) .

وقال بعض العلماء : قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه - تعالى - صرح في هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم - سبحانه - بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أقلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي .

ورجع بعضهم - أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان - لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة .

وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .

أعنى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومادلت عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصي ، جاء موضحا في آيات أخر كقوله - تعالى - : ﴿ ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطمع المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين .. ﴾^(٢) .

وخص - سبحانه - من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة . لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمحتاجين ، فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين .

أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير ممنون ﴿ أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم ، بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا ، فضلا من الله - تعالى - وكرما .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ - أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٣ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١١٤ للشيخ محمد أمين الشنقيطى .

كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله - تعالى - الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَبَيَّنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠
وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيلِينَ ١١ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢
فَقَضَّ عَنْهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ١٣ ﴾

قال الإمام الرازي ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما أمر نبيه - ﷺ - أن يقول للناس : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ... ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشراكة بينه - تعالى - وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة .. والاستفهام في قوله ﴿ أننكم لتكفرون ... ﴾ بمعنى الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله .. وجعل الأنداد له ^(١) . والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين على سبيل الإنكار لأفعالهم : أننكم لتكفرون بالله - تعالى - الذي خلق الأرض في يومين .

قال الألوسي : وإن واللام في قوله ﴿ أننكم لتكفرون ﴾ لتأكيد الإنكار .. وعلق - سبحانه - كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه - تعالى - واستعظام كفرهم به .

واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه ها هنا الوقت مطلقا ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأقل أنسب بالمقام ..^(١) .

قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - إن الله - تعالى - قادر على أن يخلق هذا الكون كله في لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليعلم خلقه الثبوت والتأني في الأمور .

وقوله : ﴿ وتَجَلُّونَ لَهُ أَتْدَاداً ﴾ معطوف على قوله ﴿ تكفرون ﴾ وداخل معه في حكم الإنكار .

والأتدَاد : جمع ند وهو مثل الشيء يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .

أى : وتَجَلُّونَ لَهُ أَمْثَالاً ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها - زورا وكذبا - آلهة ، وجمع - سبحانه - الأتدَاد باعتبار واقعهم ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الكواكب .

واسم الإشارة في قوله ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة .

أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتربيتها دون سواه .

وقوله : ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها .. ﴾ معطوف على ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ .

والرواسى : جميع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والاستقرار في المكان ، يقال : رسا الشيء إذا ثبت واستقر . وهو صفة لموصوف محذوف .

أى : وجعل فيها جبالا رواسى من فوقها ، لكى تستقر وتثبت ، ولا تميد أو تضطرب بكم . وقال - تعالى - : ﴿ من فوقها ﴾ لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ، ومشاهدة الإنسان لذلك بعينه ، يزيده إقناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة وحكمته البليغة .

﴿ وبارك فيها ﴾ أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار الميثونة فوقها ، والمياه التى تخرج من جوفها . والكثوز التى تحصل من باطنها .
﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ والأقوات : جمع قوت . والمراد بها أرزاق أهل الأرض وما يصلحهم .

أى : وجعل أقوات أهلها التى يحتاجون إليها فى معاشهم ومنافعهم ، على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر فى كل قطر من أقطارها أقواتا تناسب أهله ، وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ، فيعمر الكون ، ويزيد الاتصال والتعارف فيما بينهم .

قال ابن جرير : بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الآية : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - أخبر أنه قدر فى الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش . ولم يخص - جل ثناؤه - بقوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أنه قدر فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر عن تقديره جميع الأقوات ..^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ فى أربعة أيام ﴾ متعلق بمحذوف يدل ، عليه ما قبله .

أى : خلق الأرض ، وجعل فيه رواسى من فوقها ، وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها فى تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التى خلق فيها الأرض وما عليها أربعة أيام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سواء للسائلين ﴾ تأكيد لما دلت عليه الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث فى أربعة أيام .

قال الآلوسى : وقيدت الأيام الأربعة بقوله : ﴿ سواء ﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة الأيام . أى : - فى أربعة أيام - استوت سواء ، أى : استواء .

وقوله - تعالى - : ﴿ للسائلين ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : هذا الحصر فى أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض ، وما فيها ..^(٢)

وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما فيها ، ضعف مدة خلق السموات ، مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات وعجائب ؟

قلت : للتنبيه على أن الأرض هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل فى المنة على ساكنيها ، وللاعتناء بشأنهم وشأنها - أيضا -

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٤ ص ٦٣ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٠١ .

زادت مدتها لما فيها من الابتلاء بالمعاصي والمجاهدات والمعالجات ..^(١) .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته في خلق السماء ، فقال : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان .. ﴾ .

ومعنى استوائه - سبحانه - إلى السماء ، ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه - سبحانه - منزّه عن ذلك .

والدخان : ما ارتفع من لهب النار . والمراد به هنا : ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ : تعلقت إرادته - تعالى - بخلقها .

قال الألوسي : قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير في غيرها ، من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره .. وقوله : ﴿ وهي دخان ﴾ أى أمر ظلماني، ولعله أريد بها مادتها التي منها تركبت .^(٢) . وقوله - تعالى - : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ... ﴾ بيان لما وجهه - سبحانه - إليهما من أوامر .

والمراد بإتيانها : انقيادها التام لأمره - تعالى - .

أى : فقال - سبحانه - للسماء والأرض أخرجاً ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت ياسماء ، أبرزى ما خلقت فيك من شمس وقمر ونجوم .. وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من نبات وأشجار وكنوز .

قال الفخر الرازى : والمقصود من هذا القول : إظهار كمال القدرة ، أى : ائتيا شتياً أو أبيتاً ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شتاً أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعاً أو كرها ، وانتصباها على الحال ، بمعنى طائعين أو مكرهين ..^(٣) .

وقوله : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ بيان لامثالها التام لأمره - تعالى - .

أى : قالتا : فعلنا ما أمرتنا به منقادين خاضعين متسجيين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا .

(١) حاشية المجلد على الجلالين ج ٤ ص ٣٢ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٤ ص ١٠٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٣٥٣ .

قال القرطبي : وقوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ فيه وجهان : أنه تمثيل لظهور الطاعة منها ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولها . ومنه قول الراجز :
امتلاً الحوض وقال قطنى مهلاً رويدا ملأت بطنى

يعنى : ظهر ذلك فيه .

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله - تعالى - فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد - سبحانه -^(١) .

وجمعها - سبحانه - جمع من يعقل ، لخطابها بما يخاطب به العقلاء .

ثم فصل - سبحانه - بديع صنعه في خلق السموات فقال : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ... ﴾ . أى : ففرغ من خلقهن وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع في مقدار يومين .

والضمير في قوله ﴿ فقضاهن ﴾ إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات .

وقوله : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أى : وأوحى في كل منها ما أراده وما أمر به ، وخلق فيها ما اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

وقوله : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾ أى : وزينا السماء الدنيا أى القرية منكم - بكواكب مضيئة ، وحفظناها حفظاً عظيماً من الاختلال والاضطراب والسقوط ﴿ ذلك ﴾ الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق ما فيها .

﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ أى : تقدير الله - القاهر - لكل شئ . والعليم بما ظهر وبما بطن في هذا الكون .

وقد أخذ العلماء من هذه الآيات الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم في أربعة أيام ، وأن خلق السموات كان في يومين فيكون مجموع الأيام التى خلق الله - تعالى - فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام .

وقد جاء ذلك في آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾^(٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٤٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (١).

كما أخذ العلماء منها - أيضا - : أن خلق الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله - تعالى - بعد حديثه عن خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان .
وبدليل قوله - تعالى - في آية أخرى : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾ (٢).

وعلى هذا رأى سار جمهور العلماء ، وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الأرض ، لأن الله - تعالى - يقول في سورة النازعات : ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أى : بسطها .

وردوا عليهم بما روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التى معنا ، وبين آيات سورة النازعات فقال : إنه - تعالى - خلق الأرض أولا غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرها .

أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد خلق السماء ، وردوا عليهم - أيضا - بأن لفظ « بعد » فى قوله - تعالى - ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ بمعنى مع أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدا لسكنى أهلها فيها .
وردوا عليهم - أيضا - بأنه - تعالى - لما خلق الأرض غير مدحوة ، وهى أهل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله فيها .

قال بعض العلماء : والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، - وإن لم يكن موجودا بالفعل - قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ .

فقوله : ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ﴾ أى : بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذى هو أصلكم (٣).

كما أخذ منها العلماء أن وجود هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة فى هذه الأرض

(١) سورة ق الآية ٣٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٩ .

(٣) أضواء البيان ج ٧ ص ١٠٢ للشيخ الشنقيطى .

وما أقلت . وفي هذه السموات وما أظلت .. من أكبر الأدلة التي تحمل العقلاء على إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله في هذا الكون ، انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كعاقبة الظالمين الذين سبقوهم ، فقال - تعالى - :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةٍ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً أُولَئِكَ كَانُوا فِي
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُودًا مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ
عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ آخِرُهَا وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى
الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَبْعَةٌ الْعَذَابِ أَلْهَوْا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾

ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات والتي قبلها روايات تتعلق بما بين النبي - ﷺ - وبين بعض المشركين ، منها ما ذكره محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوما لقريش - ورسول الله ﷺ - جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة فقال : « يا محمد ، يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة - أى من الشرف - فى العشيرة وإنك قد آتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنتظر فيها لعلك تقبل بعضها .

ثم قال : إن كنت - يا ابن أخى - تريد مالا أعطيناك من المال حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا علينا .. وإن كان الذى يأتيك رثيا تراه - أى ترى بعض الجن - طلبنا لك الطب حتى تبرأ .

فلما فرغ عتبة قال - ﷺ - : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاسمع منى » قال : أفعل . فتلا عليه النبى - ﷺ - من أول سورة « فصلت » .

- وفى رواية أنه لما بلغ قوله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ... ﴾ قال له عتبة : حسبك ما عندك غير هذا .

ثم عاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا له : ماوراءك يا أبا الوليد ؟

فقال : لقد سمعت من محمد - ﷺ - قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ .

فقالوا : لقد سحرك محمد - ﷺ - فقال : « هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم »^(١) . ففوله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ تهديد لهؤلاء المشركين ، بعد أن وضع الحق لهم فى أكمل صورة ..

والصاعقة - كما يقول ابن جرير - : كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه . حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقا..^(٢) . والمراد بها هنا : العذاب الشديد الذى أنزله الله - تعالى - على قوم عاد وثمود فصعقهم وأهلكهم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠ .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين لقد أقمت لكم الأدلة الناصعة على وحدانية الله - تعالى - وعلى عظيم قدرته ، وعلى أنى رسول من عنده ، وصادق فيما أبلغه عنه .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ عن دعوتك ، ولجوا في طغيانهم ، واستمروا في كفرهم وعنادهم .
 ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم على سبيل التحذير : لقد ﴿ أَنْذَرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ ﴾ .

وخص - سبحانه - عاداً و ثمود بالذكر ، لأن مشركى قريش يعرفون ما جرى لهؤلاء الظالمين . إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف - أى بالمكان المرتفع الكثير الرمال - في جنوب الجزيرة العربية ورسولهم هو هود - عليه السلام - .

وأما ثمود فهم قوم صالح - عليه السلام - ، ومسكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت آثارهم باقية ، وأهل مكة كانوا يرون عليها في طريقهم إلى بلاد الشام للتجارة .
 والضمير في قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ... ﴾ يعود إلى قوم عاد و ثمود .

والمراد بالرسل : هود وصالح - عليهما السلام - من باب إطلاق الجمع على الاثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معها في المجيء إلى هؤلاء الأقوام لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .
 وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ ... ﴾ حال من قوله ﴿ صَاعِقَةً عَادَ وَثُمُودَ ﴾ وقوله ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ متعلق بـجاءتهم .

والمراد بالجملة الكريمة : أن الرسل بذلوا كل جهدهم في إرشاد قوم عاد و ثمود إلى الحق ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم وبينوا لهم بأساليب متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين .

وقوله : ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ بيان لما نصح به الرسل أقوامهم و« أَنْ » يصح أن تكون مصدرية ، أى : بأن لا تعبدوا إلا الله ، ويصح أن تكون مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف . أو تفسيرية لأن مجيء الرسل يتضمن قولاً .

أى جاء الرسل إلى قوم عاد و ثمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص العبادة لله ، ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم ، وقالوا لهم : اجعلوا عبادتكم لله - تعالى - وحده .
 قال صاحب الكشف ما ملخصه : قوله : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴾ .

أى : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، واعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله - تعالى - عن الشيطان أنه قال : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ... ﴾ يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة .

وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الدنيوى والأخرى .

وقيل معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هودا وصالحا قد أمرهم بالإيمان بها وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكأن الرسل جميعا قد جاءوهم^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ حكاية للرد السيئ الذى رد به قوم عاد وثمود على رسلهم .

ومفعول المشيئة محذوف أى : قال هؤلاء الكافرين لرسلمهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم . أنتم لستم رسلا ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل إلينا رسلا لأرسل ملائكة ، ومادام الأمر كذلك فإنا بما أرسلتم به - أيها الرسل - كافرون ، وإلى ما تدعوننا إليه مكذبون .

والسبب الذى حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون إلا من البشر كما قال - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .. ﴾ .

ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما نزل به من عذاب مهين فقال : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ... ﴾ أى . هذا هو قولهم على سبيل الإجمال لرسلمهم ، وإليك جانبنا من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم الباطلة .

إنهم قد استكبروا فى الأرض بغير الحق . واغتروا بما بين أيديهم من نعم ، وقالوا على سبيل التباهى والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة .

وقيد استكبارهم فى الأرض بأنه بغير الحق . لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم الله - تعالى - فى آيات أخرى متجبرين متعاليين على غيرهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ أتبينون بكل ريح آية تعيثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ .

الاستفهام في قوله - تعالى - الذى حكاه عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ للإنكار والنفي .
أى : لا أحد أقوى منا ، فنحن فى استطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو الشعور الكاذب الذى يشعر به الطغاة الجاهلون فى كل زمان ومكان .

وقد رد الله - تعالى - عليهم وعلى أمثالهم ردا منطقيا حكيما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمجدون ﴾ .
أى : أعموا وصموا عن الحق، ولم يعلموا أن الله - تعالى - الذى أوجدكم من العدم، هو - سبحانه - أشد منهم قوة وبأسا .

إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا يمجدون ، ويعاندون وينكرون الحق الذى جاءهم به رسلهم .

ثم حكى - سبحانه - ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على كفرهم ، وبسبب غرورهم وبطورهم فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا... ﴾ .

ولفظ « صرصرا » من الصر - بفتح الصاد - وهو شدة الحر ، أو من الصر - بكسر الصاد - وهو شدة البرد الذى يقبض البدن ، أو من الصرة التى هى الصيحة المزعجة ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة... ﴾ أى : فى صيحة .

ولا مانع من أن تكون هذه الريح التى أرسلها الله - تعالى - عليهم ، قد اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل .

وقوله : ﴿ نحسات ﴾ جمع نحسة - بفتح النون وكسر الحاء - صفة مشبهة من نحس - كفرح وكرم - ضد سعد .

أى : فأرسلنا على قوم عاد ريحا شديدة الهبوب والصوت ، وشديدة البرودة أو الحرارة فى أيام نحسات أو مشثومات نكدات عليهم بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزى لهم فى الحياة الدنيا .

﴿ ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أى : أشد خزيا وإهانة لهم من عذاب الدنيا .

﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أى : وهم لا يجادلون أحدا يدفع عنهم هذا العذاب بحال من

الأحوال .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من عذاب فقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ... ﴾ .

أى : وأما قوم ثمود الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبيننا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل الفى . فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير .

﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أى : فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا الفى على الرشد .

فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية الإيمان والطاعة .

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ أى : فكانت نتيجة إشارهم الكفر على الإيمان ، وتصميمهم على ذلك.. أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المبين الذى آبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح .

وقد حكى - سبحانه - ما أنزله بعاد وثمرود من عذاب فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ ^(١) .

وقد ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد ، كانت فى أواخر شهر شوال ، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها - أيضا - كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشائم من هذا اليوم .

والحق أن ما ذكره فى هذا الشأن لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التى ذكروها فى أن يوم الأربعاء يوم نحس : « فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد ينحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم » ^(٢) .

ثم بين - سبحانه - فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال : ﴿ ونجينا الذين آمنوا .. ﴾ أى ونجينا الذين آمنوا من عذاب الدنيا ومن العذاب الآخرة .

(١) سورة الحاقة الآيات من ٤ - ٧ . (٢) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٢٤ للشيخ الشنقيطى .

﴿وكانوا يتقون﴾ أى : يتقون الله - تعالى - ، ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من أحوال الظالمين يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم
أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم يعلمون أن ما جاءهم به رسلهم حق لا ريب
فيه ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُوا الْجُلُودُ دِهْنٌ لِّمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِيرونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ
وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ
يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

والظرف في قوله : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ متعلق بمحذوف
تقديره : اذكر .

وقوله ، ﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وأصله الكف ، تقول : وزع فلان فلاناً عن الشيء ، أى :
كفه ومنعه عنه . ومنه قول الشاعر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس ، إلا وافر العقل كامله
والمراد هنا : أن يكف

يجتمعون جميعا للحساب ثم يدعون إلى نار جهنم .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم يحشر أعداء الله جميعا إلى النار، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : فهم يحسبون في هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم، ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله - تعالى - بقضائه العادل فيهم .

والتعبير بقوله : ﴿ أعداء الله ﴾ يدل على أنهم، وعلى أن ما أبهم من عذاب مهين . إنما هو بسبب عداوتهم لله - تعالى - ولرسله - صلوات الله عليهم - ، حيث أعرضوا عن الحق الذى جاءهم به الرسل من عند بهم .

والتعبير بقوله ﴿ يوزعون ﴾ يشعر بأنهم يحسبون ويمنعون عن الحركة بغلظة وزجر .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يعرضون على النار فقال : ﴿ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ .

والمراد بشهادة هذه الأعضاء عليهم : أنها تنطق - بإذن الله - تعالى - وتخبر بما اجترحوه من سيئات، وبما فعلوه من قبائح .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « فإن قلت « ما » فى قوله : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ ما هى ؟

قلت : مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ...

فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟ .

قلت : الله - عز وجل - ينطقها ... بأن يخلق فيها كلاما ..

وشهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفرض إليها من المحرمات . وقيل : المراد بالجلود الجوارح - وقيل : هو كناية عن الفروج .. «^(١) .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله هؤلاء الكافرون لجوارحهم على سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا .. ﴾ .

أى : وقال هؤلاء الكافرون لجلودهم التى تشمل جميع جوارحهم بتعجب وذهول : لماذا شهدتم علينا مع أننا ما دافعنا إلا عنكم . لكى نتفذك من النار ؟ .

وهنا ترد عليهم جوارحهم بقولها - كما حكى سبحانه عنها - ﴿ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء .. ﴾ .

أى: قالوا فى الرد عليهم: أنطقنا الله - تعالى - الذى أنطق كل شيء بقدرته التى لا يعجزها شيء ﴿ وهو ﴾ - سبحانه - الذى ﴿ خلقكم أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئا مذكورا .

﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم، ويحكم فيكم بحكمه العادل .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث، منها ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: ضحك رسول الله - ﷺ - ذات يوم وتبسم فقال: « ألا تسألون عن أى شيء ضحكت » ؟ قالوا: يا رسول الله، من أى شيء ضحكت ؟ قال: « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس قد وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال: بلى . فيقول: فإننى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى . فيقول الله - تعالى - : أو ليس كفى بى شهيدا . وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال: فيرد هذا الكلام مرارا قال: فيختم على فيه، وتتكلم أروغانه بما كان يعمل . فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أجادل » ^(١) .

وشبيهه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم، بما كانوا يكسبون ﴾ ^(٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما سيقال لهؤلاء الكافرين يوم القيامة من جهته - تعالى - أو من جهة جوارحهم التى شهدت عليهم فقال - تعالى - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ .

وقوله: ﴿ تستترون ﴾ من الاستتار بمعنى الاستخفاء، « وما » نافية . وقوله: ﴿ أن يشهد عليكم .. ﴾ فى موضع نصب على نزع الخافض أى: من أن يشهد عليكم .. أو مفعول لأجله .

أى: مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم .

والمعنى: أن جوارحهم تقول لهم يوم القيامة على سبيل التبكيت: أنتم - أيها الكافرون - لم تكونوا فى الدنيا تحفون أعمالكم السيئة، خوفا من أن نشهد عليكم ولكنكم كنتم تحفونها

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٥٩ .

(٢) سورة يس الآية ٦٥ .

لا اعتقادكم أن الله - تعالى - لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم ما تظهرونه منها .
وما حكمكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات الله - تعالى - وكفركم باليوم
الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، واستبعادكم أننا سنشهد عليكم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ... ﴾
يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم ، ويجوز أن يكون من قول الله - تعالى - لهم ، أو
الملائكة .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر ، قرشيان وثقفي ،
- أى شخص من قبيلة ثقيف - أو ثقفيان وقرشى ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم .
فقال أحدهم : أترون الله - تعالى - يسمع ما نقول : فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع
إن أخفينا .

فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ .
فالآية الكريمة تنعى على المشركين جهالاتهم الفاضحة ، حيث ظنوا أن الله - تعالى -
لا يعلم الكثير من أعمالهم ، وتنبه المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم أن يعلموا أن الله
- تعالى - معهم ، ولا يخفى عليه شيء من أقوالهم أو أفعالهم ، وأنه - سبحانه - يعلم السر ،
وأخفى ورحم الله من قال :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت . ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه ، يغيب

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين فقال : ﴿ وذلكم ظنكم
الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ .

﴿ وذلكم ﴾ اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق ، وهو مبتدأ ، وقوله ﴿ أرداكم ﴾ خبره .
أى : وذلك الظن الذى ظننتموه بربكم ، وهو أنه - سبحانه - لا يعلم كثيرا مما تعملونه
سرا ، هذا الظن ﴿ أرداكم ﴾ أى : أهلككم ، يقال ردى فلان - كصدى - إذا هلك
﴿ فأصبحتم ﴾ أيها الكافرون من الخاسرين لكل شيء فى دنياكم .

﴿ فإن يصبروا ﴾ عن العذاب ﴿ فالتار مثوى لهم ﴾ أى : فالتار هى المكان المعد لثوانهم
فيه ، ولبقائهم به بقاء أديا . يقال : ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أى : وإن يطلبوا الرضا عنهم ، فما هم من المرضى
عنهم ، وإنما هم من المغضوب عليهم ، أو وإن يطلبوا منا الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم

إلى الدنيا ، فما هم من المجابين إلى ذلك .

قال القرطبي: وأصل الكلمة من العتب - بفتح العين وسكون التاء - وهي المؤجدة، يقال: عتب عليه يعتب - كضرب يضرب - إذا وجد عليه . فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب . والاسم العتبي ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرى العاتب قال الشاعر :

فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب^(١)
وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت الأحوال السيئة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة ، والمجادلات التي تدور بينهم وبين جوارحهم في هذا اليوم العسير عليهم . ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التي أوقعتهم في هذا المصير الأليم ، ومن الأقوال السيئة التي كانوا يتواصون بها فيما بينهم ، وعن عاقبة هذا التواصي الأنيم فقال - تعالى - :

❖ وَقِضْنَاهُمْ

قُرْنَاءَ فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَآبِينَ أَيَدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ
كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ
وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٥٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ
أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ إِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ
﴿٥٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُم مَّا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٥٩﴾

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ وقيضنا ... ﴾ أى : سببنا وهيانا وبعثنا لهم قرناء يلزمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض . والقيض قشر البيض ..
والنقيض - أيضا - التيسير والتهينة ، تقول قيضت لفلان الشيء ، أى : هيأته ويسرته له ..^(١)

والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذى لا يكاد يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيئاتها . والمراد بما خلفهم : ما يتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب .

والمعنى : إن حكمتنا قد اقتضت أن نهى ونسب هؤلاء المشركين قرناء سوء ، هؤلاء القرناء يزينون لهم القبيح من أعمال الدنيا التى يعيشون فيها ، كما يزينون لهم إنكار ما يتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾^(٢) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ... ﴾ بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء السوء ، وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع .

أى : وثبت عليهم القول الذى قاله - سبحانه - لإبليس ، وتحقيق مقتضاه وهو قوله - تعالى - : ﴿ لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ فى أمم ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ عليهم ﴾ أى : وثبت عليهم العذاب . حالة كونهم داخلين فى جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من قبلهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الإنس .

وجملة ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لكفار قريش ولغيرهم من الأمم السابقة التى هلكت على الكفر .

ثم حكى - سبحانه - ما تولى به المشركون فيما بينهم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة « ص » آية ٨٥ .

وقوله : ﴿ والغوا فيه ﴾ من اللغو ، وهو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه يقال : لغا فلان فى كلامه يلغو ، إذا نطق بكلام ساقط لا خير فيه .

ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة لأتباعهم ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل - لأتباعه - : إذا قرأ محمد فصيحا فى وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول .
أى : وقال زعماء الكفر لأتباعهم : لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يقرأه محمد - ﷺ - وأصحابه ، ولا تنصتوا إليه ، بل ابتعدوا عن قارئه ، والغوا فيه أى : وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول ، كالتشويش على القارئ ، والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق ويرفع الصوت بالخرافات والهذيان ..

﴿ لعلمكم تغلبون ﴾ أى : لعلمكم بعملكم هذا تغلبون على المسلمين ، وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن .

ولاشك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب ، هذا التأثير الذى حمل كثيرا منهم عند سماعه على الدخول فى الإسلام ونبذ الكفر والكافرين .

كما يدل على أنهم لعجزهم عن معارضته ، وعن الإتيان بسورة من مثله ، لجأوا إلى تلك الأساليب السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم .

وقد رد - سبحانه - على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد فقال : ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ .

أى : فوالله لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئه بالصياح والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذى يهينهم ، ومحسون به إحساسا أليما . ولنجزينهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ أى : جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ ، فأفعل للزيادة المطلقة وقيل : إنه - سبحانه - لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوف ، وصلة الأرحام وإكرام الضيف ... لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب كفرهم ..^(١) .

وقال الجمل فى حاشيته : وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه لكلام الله خاضعا خاشعا متفكرا متديرا . وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ

ويحفظ عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمل في هذا التخليط والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم ..^(١) .
واسم الإشارة في قوله - تعالى - : ﴿ ذلك جزاء أعداء الله ... ﴾ يعود إلى ما تقدم من العذاب الشديد المعد لهؤلاء الكافرين ، وهو مبتدأ ، و جملة ﴿ جزاء أعداء الله ﴾ خبره .
وقوله ﴿ النار ﴾ بدل أو عطف بيان .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى نذيقه للكافرين جزاء عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل فى النار التى أعدها - سبحانه - لهم .

وجملة : ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ مؤكدة لما قبلها . أى : لهم فى تلك النار الإقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهى بمثابة الدار المهيأة لسكنهم الدائم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا ينجحون ﴾ بيان لحكم الله العادل فيهم .
أى : نجازهم جزاء ألياً بسبب جحودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلنا .
ثم صور - سبحانه - أحوالهم وهم يتقلبون فى النار وحكى بعض أقوالهم التى يقولونها وهم فى ذلك العذاب الأليم فقال : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ على من أضلّوهم .

﴿ ربنا أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس ... ﴾ أى : قالوا ياربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والإنس ﴿ نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ أى : أرنا إياهم لنتنقم منهم ، بأن ندوسهما بأقدامنا احتقاراً لهم ، وغضباً عليهم ، ليكونا بذلك فى أسفل مكان من النار ، وفى أحقره وأكثرهم سعيراً .
وهكذا تتحول الصداقة التى كانت بين الزعماء والأتباع فى الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى له أسوأ العذاب .

وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير الكافرين ، فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ
أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله - تعالى - وحده ، لا شريك له
لا في ذاته ولا في صفاته .

﴿ ثم استقاموا ﴾ أى : ثم ثبتوا على هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة
الله - تعالى - في المنشط والمكره ، وفي العسر واليسر ، ومن اقتداء برسوله - ﷺ - في كل
أحواله .

قال صاحب الكشف : ﴿ ثم ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه .
لأن الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ^(١) .

ولقد بين لنا النبي - ﷺ - أن الاستقامة على أمر الله جماع الخيرات ، ففي صحيح مسلم
عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : يا رسول الله « قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل

عنه أحدا بعدك». قال : « قل آمنت بآله ثم استقم ... »^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ بيان للآثار الطيبة التي تترتب على هذا القول المؤيد بالثبات على طاعة الله - تعالى - :

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون في حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد : عند موتهم . وعن زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ، وقيل : معنى ﴿ تنزل عليهم ﴾ يمدونهم فيها يعن ويظراً لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يفرهم ما قبض لهم من قرناء السوء بتزيين القبايع^(٢) .

والخوف : غم يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل .

والحزن : غم يلحقها لفوات نفع في الماضي .

أى : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على طاعته في جميع الأحوال ، تنزل عليهم من ربه الملائكة ، لتقول لهم في ساعة احتضارهم وعند مفارقتهم الدنيا ، وفى كل حال من أحوالهم : لا تخافوا - أيها المؤمنون الصادقون - مما أنتم قادمون عليه في المستقبل ، ولا تحزنوا على ما فارقتموه من أموال أو أولاد .

﴿ وأبشروا ﴾ عما قريب ، بالجنة التي كنتم توعدون بها في الدنيا .

ثم يقولون لهم - أيضاً - على سبيل الزيادة في المسرة : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ .

أى : نحن نصرؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة في الحياة الدنيا التي توشكون على مفارقتها ، وفى الآخرة التي هى الدار الباقية ، سنتلقاتكم فيها بالترسيم والترحاب .

﴿ ولكم فيها ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، ما تشتهى أنفسكم ، من أنواع الطيبات التي أعدنا لكم خالقكم فى جناته .

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١٢١ .

﴿ ولکم فیہا ما تدعون ﴾ أى : ما تتمنونه وتطلبونه ، فقلوه ﴿ تدعون ﴾ افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

قوله - تعالى - : ﴿ نزلنا من غفور رحیم ﴾ حال من قوله : ﴿ ما تدعون ﴾ ، وأصل النزول : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكّل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته .

أى : لکم فی الدار الآخرة جميع ما تطلبونه وما تدعونه ، حال كون هذا المعطى لکم رزقا وضيافة مهيأة لکم من ربکم الواسع المغفرة والرحمة .

ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال - تعالى - : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمین ﴾ .

أى . لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله - تعالى - وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به .

ولم يكتف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذى يجعل المدعويين يزدادون استجابة له .

﴿ وقال ﴾ : بعد كل ذلك على سبيل السرور والابتهاج والتحدث بنعمة الله ﴿ إننى من المسلمین ﴾ .

أى : من الذين أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأخلصوا له القول والعمل .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية ، أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرّون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه .. وهذه الآية عامة فى كل من دعا إلى خير ، وهو فى نفسه مهتد .

وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء ... والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ^(١) .

ثم أرشد - سبحانه - إلى ما ينمى روح المحبة والمودة .. بين الداعى والمدعويين بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ .

أى : ولا تستوى الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا فى ذواتها ولا فى الآثار التى تترتب

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٦٨ .

عليها ، إذ الخصلة الحسنة جميلة في ذاتها ، وعظيمة في الآثار الطيبة التي تنتج عنها ، أما الخصلة السيئة فهي قبيحة في ذاتها وفي نتائجها .

وقوله - تعالى - : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ إرشاد منه - تعالى - إلى ما يجب أن يتحلّى به عباده المؤمنون .

أى : ما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة ، فعليك - أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المصير ، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة وفضاظته بالساحة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ بيان للآثار الجميلة التي تترتب على دفع السيئة بالحسنة .

والولى : هو الصديق المحب الشفيق عليك ، من الولي بمعنى القرب .

والحميم : يطلق في الأصل على الماء الحار ... والمراد به هنا : الصديق الصدوق معك .

أى : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة ، صار عدوك الذى أساء إليك ، كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن إليها ، ومن عفا عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنعها بالعطاء .

ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس .. عقب - سبحانه - على هذه التوجيهات السامية بقوله : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا . وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ . والضمير في ﴿ يلقاها ﴾ يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التي على رأسها الدفع بالتي هي أحسن .

أى : وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة التي على رأسها الدعوة إلى الله ومقاومة السيئة بالحسنة .. إلا الذين صبروا على المكروه وعلى الأذى .

وما يستطيعها - أيضا - إلا صاحب الحظ الوافر ، والتصيب الكبير ، من توفيق الله - تعالى - له إلى مكارم الأخلاق .

والتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكم الطرق ، وأفضل الوسائل ، التي ترفع درجته عند - خالقه - تعالى - .

ثم أورد - سبحانه - عياده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان ، فقال : ﴿ وإما يئزغك من الشيطان نزع فاستغ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

والنزع والنخس والفرز بمعنى واحد . وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا في الجلد .
المراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيدته للإنسان .

والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرك الله - تعالى - به .. فاستعذ بالله ، أى : فالتجئ إلى حماه واستجر به من كيد الشيطان ﴿ إنه ﴾ - سبحانه - هو السميع لدعائك ، العليم بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك .

فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذى يحميه من وسوسة الشيطان وكيدته ، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شىء ، العليم بكل شىء القادر على كل شىء

وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين .. ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

وَمِنْ آيَاتِهِ
الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ أَستَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

والمراد بالآيات فى قوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته .. ﴾ العلامات الدالة دلالة واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وجود

الليل والنهار والشمس والقمر بتلك الطريقة البديعة، حيث إن الجميع يسير بنظام محكم، ويؤدي وظيفته أداءً دقيقاً. كما قال - تعالى - : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ .

وقوله - تعالى - ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن .. ﴾ نهى عن السجود لغيره - تعالى - وأمر بالسجود له وحده .

أى : لا تسجدوا - أيها الناس - للشمس ولا للقمر، لأنها - كغيرهما - من جملة مخلوقات الله - تعالى - ، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذي خلق كل شيء في هذا الكون، إن كنتم حقاً تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده - عز وجل - .

فالآية الكريمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل - وتنهى عن عبادة غيره - تعالى - .

قال الجمل : هذا رد على قوم عبدوا الشمس والقمر، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار، للإيدان بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لها، بنظمها في المخلوقية في سلك الأعراض التي لا قيام لها بذاتها، وهذا هو السر في نظم الكل في سلك آياته .

وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث - مع أن فيها ثلاثة مذكرة، والعادة تغليب المذكر على المؤنث - لأنه لما قال : ومن آياته، فنظم الأربعة في سلك الآيات، صار كل واحد منها آية فعبّر عنها بضمير الإناث في قوله ﴿ خلقهن ﴾ ^(١) .

ثم بين - سبحانه - أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله - تعالى - وحده، لن ينقص من ملكه شيئاً فقال : ﴿ فإن استكبروا، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ .

أى : فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله - تعالى - فلا تحزن أيها الرسول الكريم - فإن الذين عند ربك من الملائكة . ينزهونه - تعالى - ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون، لاستلذاذهم لتلك العبادة والطاعة، وخوفهم من مخالفة أمره - عز وجل - .

فالآية الكريمة تهون من شأن هؤلاء الكافرين، وتبين أنه - تعالى - في غنى عنهم وعن عبادتهم؛ لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبد به بالليل والنهار بدون سأم أو كلل.

والمراد بالعندية في قوله - تعالى - ﴿عند ربك﴾ عندية المكانة والتشريف لا عندية المكان .

وقوله ﴿فالذين عند ربك﴾ تعليل لجواب الشرط المقدر، أى: فإن استكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: ﴿وله من في السموات والأرض، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾^(١) .

ثم بين - سبحانه - آية أخرى من آياته الدالة على وجوب إخلاص العبادة له فقال: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ..﴾ . و ﴿خاشعة﴾ أى، يابسة جدية، خشعت الأرض، إذا أجذبت لعدم نزول المطر عليها وقوله: ﴿اهتزت﴾ أى: تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و ﴿ربت﴾ أى: انتفخت وعلت، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض، ارتفعت له، ثم تشققت عنه . يقال: ربا الشيء إذا زاد وعلا وارتفع، ومنه الربوّة للمكان المرتفع من الأرض .

أى: ومن آياته - تعالى - الدالة على وجوب العبادة له وحده، أنك - أيها العاقل - ترى الأرض يابسة جامدة، فإذا أنزلنا عليها بقدرتنا المطر، تحركت بالنبات، وارتفعت بسببه، ثم تصدعت عنه .

وعنى - سبحانه - هنا بقوله ﴿خاشعة﴾ لأن الحديث عن وجوب السجود لله - تعالى - وحده، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع .

وفي سورة الحج قال - سبحانه -: ﴿وترى الأرض هامدة ..﴾ لأن الحديث هناك كان عن البعث، وعن إمكانية، فناسب أن يعبر بالهمود الذى يدل على فقدان الحياة .

قال - تعالى - ﴿يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ..﴾^(٢) . وقوله - تعالى -: ﴿إن الذى أحيأها لمحيى الموتى، إنه على كل شىء قدير﴾ بيان لمظاهر قدرته - عز وجل - .

(١) سورة الأنبياء الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الحج الآية ٥ .

أى: إن الذى أحيأها بنزول المطر عليها، ويخرج النبات منها، لقادر عن أن يحيى الموتى عن طريق البعث والنشور، إنه - سبحانه - على كل شىء قدير .

وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون، جاءت الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون فى آياته - تعالى - ولتمدح القرآن الكريم، ولتسلى النبى - ﷺ - عما لقيه من أعدائه، ولتبين أن من عمل صالحا فثأره عمله لنفسه، ومن عمل سيئا فعلى نفسه وحده يحبى .. قال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ
يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ
لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِ آجَمِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَمًى أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
فَلِنَفْسِهِ مِنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

وقوله - تعالى - ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ من الإلحاد وهو الميل عن الاستقامة، والعدول عن الحق .
يقال ألحد فلان في كلامه إذا مال عن الصواب ، ومنه اللحد في القبر ، لأنه أميل إلى ناحية
منه دون الأخرى .

والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق في شأن آياتنا بأن يؤولوها تأويلا فاسدا ، أو يقابلوها
باللغو فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات حكيمة ..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك : ﴿ لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا ﴾ أى ليسوا بغائبين عن علمنا ، بل هم تحت
بصرنا وقدرتنا ، وسنجازهم بما يستحقون من عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب .
فالجملة تهديد لهم على تحريفهم الباطل لآيات الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - البون الشاسع بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين ، فقال : ﴿ أَفَمَن
يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ .

والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين يلحدون في آيات الله سيكون مصيرهم الإلقاء في
النار ، وأن الذين استجابوا للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون ، سيأتون آمنين من الفزع
يوم القيامة .

قال الآلوسى : « وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة ، لكنه عدل عنه إلى
ما في النظم الجليل ، اعتناء بشأن المؤمنين ، لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ، ولذا عبر عن
الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر ، وعبر عن الثانى بالإتيان الدال على أنه بالاختيار
والرضا ، مع الأمن ودخول الجنة .. »^(١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد آخر لهم على إلحادهم .
أى : اعملوا أيها الملحدون ما شئتم من أعمال قبيحة ، فإنها لا تخفى على خالقكم - عز
وجل - ، لأنه بصير بكم ، ومطلع على أفعالكم ، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذى
تستحقونه .

فالمقصود من الأمر في قوله - تعالى - ﴿ اْعْمَلُوا ﴾ التهديد والوعيد .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق تهديدا ثالثا فقال : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا
جَاءَهُمْ ﴾ .

وخبر « إن » هنا محذوف للعلم به مما سبق ، أى : إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين

جاءهم على لسان رسول الله - ﷺ - ، خاسرون أو هالكون أو معذبون عذابا شديدا .
﴿ وإنه ﴾ أى : هذا القرآن الكريم هو الحق الذى جاءهم به - ﷺ - ، لعل هذا التدبير
يوصلهم إلى الهداية والرشاد ﴿ لكتاب عزيز ﴾ . أى : لكتاب منيع معصوم بعصمة الله
- تعالى - له من كل تحريف أو تبديل .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾
أى : لا يستطيع الباطل أن يتطرق إليه من أى جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من
جهة معناه لأن الله - تعالى - تكفل بحفظه وصيانه ، كما قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون ؟
قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم
بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم . فلم يخلوا طعن طاعن إلا محقوا ، ولا قول مبطل إلا
مضمحلا ^(١) .

وقوله : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ أى : هذا الكتاب منزل من لدن الله الحكيم فى أقواله
وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى .
ثم سلى - سبحانه - نبيه - ﷺ - عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد
قيل للرسل من قبلك ﴾ .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى
حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم .

فالآية الكريمة من أبلغ الآيات فى تسلية الرسول - ﷺ - لأنها كأنها تقول له ، إن
ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك ، فاصبر كما صبروا .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا
ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾ ^(٢) .

ثم علل - سبحانه - هذه التسلية وهذا التوجيه بقوله : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب
أليم ﴾ .

(١) تفسير الكشف ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

أى: ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك، ومادام الأمر كذلك. فاصبر كما صبروا، إن ربك الذى تولاك بتربيته ورعايته، لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين.

ثم رد - سبحانه - على بعض الشبهات التى أثاروها حول القرآن الكريم ردا يخرس ألسنتهم فقال: ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي..﴾. والأعجمي: يطلق على الكلام الذى لا يفهمه العربى، كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية. وقوله: ﴿أعجمي وعربي﴾ خبر لمبتدأ محذوف.

أى: ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم كما قالوا: هلا أنزل هذا القرآن بلغة العجم. لو فعلنا ذلك - كما أرادوا - لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب: هلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها؟ ثم لأضافوا إلى التعجب والإنكار، تعجبا آخر فقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي؟

ومقصدهم من هذه الشبهة الداحضة، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم.

فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا: لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، ولو نزل بلسان أعجمي، لا عترضوا وقالوا: هلا نزل بلسان عربي نفهمه.

ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي. وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة.

ثم أمر الله - تعالى - رسول - ﷺ - أن يرد عليهم بالرد الذى يكتبهم فقال: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء..﴾.

أى: قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين: هذا القرآن هو للذين آمنوا إيمانا حقا هداية إلى الصراط المستقيم، وشفاء لما فى الصدور من أسقام.

كما قال - سبحانه - فى آية أخرى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين..﴾.

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذا الكتاب فقال: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ أى: بهذا الكتاب، وبين نزل عليه الكتاب.

﴿فى آذانهم وقر﴾ أى: فى آذانهم صمم عن سماع ما ينفعهم.

﴿ وهو عليهم عى ﴾ أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الاهتداء به .
وقوله - تعالى - ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذى ما أنزله الله - تعالى - إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

أى : أولئك الكافرون الذين لم ينتفعوا بالقرآن مثلهم فى صممهم وانطماس بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد ، فهو لا يسمع منه شيئا ، ولا يعقل عنه شيئا ، لوجود المسافة الشاسعة بين المنادى ، وبين من وقع عليه النداء .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل .

وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك : ﴿ ينادون ﴾ يوم القيامة بأقبح أسانئهم ﴿ من مكان بعيد ﴾ فيكون ذلك لتوبيخهم وفضيحتهم ..^(١) .

ومن يتدبر هذه الآية الكريمة يرى مصداقها فى كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وساعا وتطبيقا .. وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا يزيدهم إلا صمما ، ورجسا إلى رجسهم وعمى على عماهم .

ثم بين - سبحانه - زيادة فى التسلية لرسوله - ﷺ - ، أن اختلاف الأمم فى شأن ما جاء به الرسل شئ قديم فقال - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه .. ﴾ .
أى : ولقد آتينا نبينا موسى - عليه السلام - كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه ، فاختلفوا فى شأن هذا الكتاب ، فعنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ - أيها الرسول الكريم - وهى ألا يعذب المكذبين من أمتك فى الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم .

لولا ذلك ﴿ لقضى بينهم ﴾ أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم .

﴿ وإنهم ﴾ أى : كفار قومك ﴿ لفى شك منه مريب ﴾ أى : لفى شك من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون فى قلق واضطراب .

ثم بين - سبحانه - سنة من سنته التي لا تتخلف فقال : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعلها .. ﴾ .

أى : من عمل عملا صالحا بأن آمن بالله ، وصدق بما جاء به رسله ، فثمره عمله الصالح لنفسه .

﴿ ومن أساء فعلها ﴾ أى : ومن عمل عملا سيئا ، فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها ﴿ وماربك بظلام للعبيد ﴾ أى : وليس ربك - أيها الرسول الكريم - بذى ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته .

فقوله ﴿ ظلام ﴾ صيغة نسب - ككفار وخباز - وليس صيغة مبالغة .

قال بعض العلماء ما ملخصه : « وفي هذه الآية وأمثالها سؤال معروف ، وهو أن لفظة « ظلام » فيها صيغة مبالغة . ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي أصل الفعل . فقولك - مثلا - : زيد ليس بقاتل للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم ، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال .

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة - وهى لفظ ظلام - فى هذه الآية وأمثالها المراد به نفي الظلم من أصله .

وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها : أن نفي صيغة المبالغة هنا ، قد جاء فى آيات كثيرة مادل على أن المراد به نفي الظلم من أصله ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا .. ﴾ .

ومنها : أن المراد بالنفي فى الآية ، نفي نسبة الظلم إليه . لأن صيغة فعال تستعمل مرادا بها النسبة ، فتغنى عن ياء النسب .. كقولهم « لسان » أى : ذولين ، ونبال أى صاحب نبل .. «^(١)» .

ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة ، أن علم قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من الخير فإذا مسه الشر يشس وقنط . وأن حكمته - تعالى - قد اقتضت أن يقيم للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذى يعيشون فيه فقال - تعالى - :

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٤٠ للشيخ الشنيطى .

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا
 وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
 شُرَكَاءِى قَالُوا أَدْنَتْكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيصٍ ﴿٤٨﴾
 لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ
 قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ
 لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى
 رَبِّىَ إِنَّ لى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَنَذِيقَنَّاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
 أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ
 ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ
 بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ
 ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
 أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
 فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾

وقوله - تعالى - : ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ..﴾ بيان لانفراد الخالق - عز وجل - بوقت قيام الساعة ، وبإحاطة

علمه - تعالى - بكل شيء ، وإرشاد للمؤمنين إلى ما يقولونه إذا ماسئلوا عن ذلك .
والأكمام : جمع كم - بكسر الكاف - وهو الوعاء الذى تكون الثمرة بداخله .
أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجع علم قيام الساعة ، وما تخرج ثمرات من أوعيتها
الكائنة بداخلها ، وما تحمل من أنثى حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته - عز وجل - و « من »
فى قوله ﴿ من ثمرات ﴾ وفى قوله ﴿ من أنثى ﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق . وفى قوله ﴿ من
أكمامها ﴾ ابتدائية .

قال الجمل : « فإن قلت : قد يقول الرجل الصالح قولاً فيصيب فيه ، وكذلك الكهان
والمنجمون .

قلت : أما قول الرجل الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من علمه - تعالى - الذى يرد
إليه ، وأما الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شيء ما يقولونه ألبتة ، وإنما غاية
ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب . وعلم الله - تعالى - هو العلم اليقين المقطوع به الذى لا
يشركه فيه أحد^(١) .

ثم بين - سبحانه - تبرؤ المشركين من آلهتهم يوم القيامة فقال : ﴿ ويوم يناديهم أين
شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد . وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم
من محيص ﴾ .

والظرف « يوم » منصوب بفعل مقدر ، ومعنى « آذناك » أعلمناك وأخبرناك ، آذن فلان
غيره يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به .
والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم والتهكم بهم فى هذا الموقف العظيم .
والظن هنا بمعنى اليقين .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم ينادى الله - تعالى - المشركين فيقول لهم
يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدونهم من دونى ليقر بركم إلى أو ليشفوا لكم
عندى ؟

﴿ قالوا ﴾ على سبيل التحسر والتذلل : ياربنا لقد ﴿ آذناك ﴾ أى : لقد أعلمناك بأنه
مأمننا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد انكشفت عنا الحجب ، واعترفنا بأنك أنت الواحد
القهار .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٤٨ .

﴿ وضل عنهم ﴾ أى : وغاب عن هؤلاء المشركين ، ما كانوا يدعون من قبل أى : ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من أصنام وغيرها .

﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى لهم من العذاب .
يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب .

وقوله - تعالى - : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾ بيان لما جبل عليه الإنسان من حب للبال وغيره من ألوان النعم . ومن ضيقه بما يخالف ذلك .

ويبدو أن المراد بالإنسان فى هذه الآية وأمثالها جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالمحن صبروا .

والمراد بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والسلطان وما إلى ذلك مما يشتهى .
والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشيء ، إذا مله وضاق به وانصرف عنه .
واليأس : أن ينقطع قلب الإنسان عن رجاء الحصول على الشيء ، يقال : يئس فلان من كذا - من باب فهم - ، إذا فقد الرجاء فى الظفر به .

والقنوط : أن يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسرا متضائلا مهموما .
فكأن اليأس شيء داخل من أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التى تظهر علامات على الإنسان .

أى : لا يسأم الإنسان ولا يمل ولا يهدأ من طلب الخير والسعة فى النعم .
﴿ وإن مسه الشر ﴾ من عسر أو مرض ﴿ فيئوس قنوط ﴾ أى : فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى - وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته .
وعبر - سبحانه - بيئوس وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للإشارة إلى شدة حزنه وجزعه عندما يعتريه الشر .

ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من حالات هذا الإنسان فقال ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ... ﴾ .

أى : ولئن أعطينا هذا الانسان الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما ، من بعد أن كان فقيرا أو مريضا ... ليقولن على سبيل الفرور والبطر : هذا الذى أعطيته شيء استحققه ، لأنه جاءنى بسبب جهدى وعلمى .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء .

﴿ ولئن رجعت إلى ربي ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ إن لى عنده للحسنى ﴾ أى : إن لى عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم فى الدنيا .

وقوله - تعالى - ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى يكون عليها هذا الإنسان الجاحد .

أى : فلنعلن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة ، ولنرينهم عكس ما اعتقدوه بأن تنزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى التى أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم عذابا غليظا ، لا يمكنهم الفكاك منه أو التقصى عنه لشدة وإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ثم أكد - سبحانه - ما ذكره من حالات الإنسان فقال : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بنعمة من نعمنا التى توجب عليه شكرنا وطاعتنا .

﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا ، وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كسبه واجتهاده .

وقوله ﴿ ونأى بجانبه ﴾ كناية عن الانحراف والتكبر والصلف والبطر .
والنأى البعد . يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه .
وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ بيان لحالة هذا الإنسان فى حالة الشدة والضر .

أى : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، فى حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويفتر ويوجد .
وفى حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .
وفى معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ .
وقوله - تعالى - : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جحودهم وجهالاتهم فقال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ... ﴾ .

أى قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الجاحدين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله - تعالى - وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان به . والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ للنفي والإنكار أى : لا أحد أكثر ضلالاً منكم - أيها الكافرون - بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورا شديداً .

والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة . من الشق - أى : الجانب - فكأن كل واحد من المتعادين أو المتخالفين : صار في شق غير شق صاحبه .

ووصف - سبحانه - شقاقهم بالبعد ، للإشارة بأنهم قد بلغوا في هذا الضلال مبلغاً كبيراً ، وشوطاً بعيداً .

فآية الكريمة تجهيل هؤلاء الكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يطلع الناس في كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله - ﷺ - فيما بلغه عنه ، فقال : ﴿ سنبينهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. ﴾ .

والمراد بالآيات في قوله ﴿ آياتنا ﴾ : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق رسوله - ﷺ - .

والآفاق : جمع أفق - كأعناق جمع عنق - وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق - كضرب يضرب - إذا سار في آفاق الأرض وجهاتها المتعددة .

والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا في أقطار السموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار .

سنطلعهم على مظاهر قدرتنا في هذه الأشياء الخارجية التي يرونها بأعينهم ، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا في أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل ، وروح ، وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة .

ولقد صدق الله - تعالى - وعده ، ففي كل يوم يل في كل ساعة ، يطلع الناس على أسرار جديدة في هذا الكون الهائل ، وفي أنفسهم .. وكلها تدل على وحدانيته ، - تعالى - وقدرته ، وعلى صحة دين الإسلام الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقوله - تعالى - : ﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ استئناف مسوق لتوبيخ

الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جاء به الرسول - ﷺ - من عند ربه هو الحق المبين .

والهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء مزيدة للتأكيد ، وقوله ﴿ بربك ﴾ فاعل كفى .

والمعنى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك - أيها الرسول الكريم - شهيد على كل شيء ، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه .. بلى . إن في شهادة ربك وعلمه بكل شيء ما يغنيك عن كل شيء سواه .

ثم بين - سبحانه - في ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال : ﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ .

أى : ألا إن هؤلاء المشركين في مرية وشك وريبة من لقاء ربهم يوم القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء ...

ألا إنه - سبحانه - بكل شيء محيط إحاطة تامة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وسيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « فصلت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر

صباح الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٠٦ هـ

١٠/١٠/١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير « سورة يس »

رقم الآية	الآية المفسرة	ص
	المقدمة	٧
١	يس	١١
١٣	واضرب لهم مثلا	١٨
٢٠	وجاء من أقصى المدينة	٢٢
٣٣	وآية لهم الأرض الميتة أحييناها	٢٨
٤٥	وإذا قيل لهم اتقوا	٣٧
٥٥	إن أصحاب الجنة	٤٢
٦٥	اليوم نختم على أفواههم	٤٧
٦٩	وما علمناه الشعر	٥٠
٧١	أولم يروا أنا خلقنا	٥٢
٧٧	أولم ير الإنسان أنا خلقناه	٥٥

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الصافات »

رقم الآية	الآية المفسرة	ص
	مقدمة وتمهيد	٦٣
١	والصافات صفا	٦٦
٦	إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب	٦٩
١١	فاستفتهم أهم أشد خلقا	٧٢
٢٢	احشروا الذين ظلموا وأزواجهم	٧٦
٤٠	إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم	٨٢
٥٠	فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون	٨٤
٦٣	أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم	٨٧
٧٥	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون	٩١
٨٣	وإن من شيعته لإبراهيم	٩٣
١١٣	ولقد مننا على موسى وهارون	١٠٦
١٢٣	وإن إلياس لمن المرسلين	١٠٧
١٣٣	وإن لوطا لمن المرسلين	١٠٩
١٣٩	وإن يونس لمن المرسلين	١١٠
١٤٩	فاستفتهم أأربك البنات ولهم البنون	١١٣
١٧٠	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين	١١٩

فهرس إجمالى لتفسير « سورة ص »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	مقدمة	١٢٥
١	ص والقرآن ذى الذكر	١٢٨
١٢	كذبت قبلهم قوم نوح	١٣٧
١٧	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود	١٤١
٢٧	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا	١٥٤
٣٠	ووهبنا لداود سليمان نعم العبد	١٥٧
٤١	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه	١٦٥
٤٥	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب	١٧٠
٤٩	هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب	١٧٢
٦٥	قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله	١٧٨

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الزمر »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	مقدمة	١٨٧
١	تنزيل الكتاب من الله	١٩١
٥	خلق السموات والأرض بالحق	١٩٥
٨	وإذا مس الإنسان ضر	٢٠٠
١٠	قل يا عباد الذين آمنوا	٢٠٣
١٧	والذين اجتنبوا الطاغوت	٢٠٧
٢١	ألم تر أن الله أنزل من السماء	٢١٠
٢٣	الله نزل أحسن الحديث	٢١٣
٢٧	ولقد ضربنا للناس	٢١٧
٣٣	فمن أظلم ممن كذب على الله	٢٢١
٣٨	ولئن سألتهم من خلق	٢٢٥
٤٥	وإذا ذكر الله وحده	٢٣٠
٥٣	قل يا عبادى الذين أسرفوا	٢٣٦
٦٠	ويوم القيامة ترى	٢٤١
٧١	وسيق الذين كفروا	٢٤٩

فهرس إجمالى لتفسير « سورة غافر »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	مقدمة وتمهيد	٢٥٥
١	حم	٢٥٩
٧	الذين يحملون العرش	٢٦٣
١٠	إن الذين كفروا ينادون	٢٦٦
١٣	هو الذى يريكم آياته	٢٦٨
٢٣	ولقد أرسلنا موسى	٢٧٧
٢٨	وقال رجل مؤمن	٢٨٢
٣٦	وقال فرعون يا هامان	٢٩٠
٤٧	وإذ يتحاجون فى النار	٢٩٦
٥٦	إن الذين يجادلون فى آيات الله	٣٠١
٦١	الله الذى جعل لكم الليل	٣٠٥
٦٩	ألم تر إلى الذين يجادلون	٣١٠
٧٩	الله الذى جعل لكم الأنعام	٣١٤

فهرس إجمالى لتفسير « سورة فصلت »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	مقدمة وتهيد	٣٢١
١	حم	٣٢٤
٩	قل أننكم لتكفرون	٣٢٩
١٣	فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة	٣٣٥
١٩	ويوم يحشر أعداء الله	٣٤١
٢٥	وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم	٣٤٥
٣٠	إن الذين قالوا ربنا الله	٣٤٨
٣٧	ومن آياته الليل والنهار	٣٥٣
٤٠	إن الذين يلحدون	٣٥٦
٤٧	إليه يرد علم الساعة	٣٦٢